

الترّحال في جزيرة العرب

تأليف: بايارد تايلور

ترجمة: رنا جزائري

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

التّرحال في جزيرة العرب

للأديب الأميركي

بايارد تايلور

ترجمة

رنا جزائري

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS207 .T2412 2012

Taylor, Bayard, 1825-1878
[Travels in Arabia]

الترحال في جزيرة العرب / بايارد تايلور ؛ ترجمة: رنا جزائري ؛ تحرير وتعليق: أحمد إيبش. ط. 1 .- أبو ظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.

ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : Travels in Arabia

تدمك : 978-9948-17-060-0

1. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات. أ. جزائري، رنا. ب. إيبش، أحمد. ج.العنوان. د.السلسلة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

التّرحال في جزيرة العرب

سلسلة
روّاد المشرق العربي

تقدّم «**هيئة أبوظبي للسـياحة والثقافة**» للمكتبـة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيـرة العـرب بوجـه الخصوص، كتابـاً جديداً مـن السّلسـلة الثقافيّة التّراثيّـة: «**روّاد المشـرق العربي**». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتـراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشـعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا اسـتعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشـر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعـه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشـرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشـر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسـعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شـتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسـفة والفكر الإنساني، الفنون، وسـائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسـة ورياضيّـات وصيدلـة وكيمياء. ومنها أيضـاً الأدب الجغرافـي العربي وأدب الرّحلات.

ومـا دُمنـا بصدد ذكـر تُراثنا الجغرافي، فلا بُـدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّـاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

ما برح الشرق يجتذب إليه على مدى القرون آلافاً من الرّحالين الغربيين، من سيّاح وتجّار وجغرافيين وأدباء وشعراء ورسّامين وحتى جواسيس، هاموا بالشرق وعشقوا حياته الرّومانسيّة المُفعمة بشاعرية القُرون الخوالي وبعَبَق التاريخ، وعُذريّة صحرائه المليئة بالأسرار والمغرية بأشدّ المغامرات إثارة. جُلّ هؤلاء ترك لنا نصوصاً أدبية رائعة ألّفت على مدى العصور مكتبة كبيرة ضمن إطار أدبي وصفي فريد، هو «أدب الرّحلات»، الذي صار رافداً مهمّاً للأدب الجغرافي العربي. لكن من أشدّ ما يدعو إلى العجب أن هذه النّصوص برغم أهميّتها وطرافتها قد أهملها كتّابنا ومثقّفونا أيّما إهمال، فكم من الكتب - التي تعدّ بالآلاف لا المئات - عقدها أصحابها لوصف رحلاتهم إلى المشرق، لم يُنشر منها بالعربية إلا أقل من القليل!

نقدّم اليوم للقرّاء كتاباً مهمّاً يتناول سيرة بعض الرّحّالين الأوروبيين الذين جالوا بأرجاء جزيرة العرب على امتداد قرنين من الزّمان، فيفتتح بمقدمة تاريخيّة حول الرّوّاد الأوائل، ثم يتابع ببعض التفصيل أخبار رحلات ستة رحالين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، هم: الرّحّالة الدّنماركي كارستن نيبور، السّويسري يوهان لودڤيغ بوركهارت، البريطاني جايمس ويلستِد، البريطاني ريتشارد بُرتون، البريطاني وليَم غيفورد پالغريف، وأخيراً الرّحّالة البريطانيّة الليدي آن بلَنت.

* * *

أمّا مؤلف الكتاب فهو أديب شاعر أميركي، وناقد أدبي ومترجم ومؤلف في أدب الرّحلات، له كتب تضم أخبار رحلاته إلى المشرق، الذي زاره بدءاً من عام 1851، وله لوحة جميلة رُسمت بدمشق عام 1855.

بايارد تايلور (1825-1878):

ولد بايارد تايلور في عام 1825 في مقاطعة چستر بولاية پنسلڤانيا الأميركيّة لأسرة من طائفة الكويكرز. وفي سن السابعة عشرة كان يمتهن الطباعة ويجيدها، وسرعان ما ظهرت لديه موهبة شعرية وكان يرعاه في ذلك الأديب روفوس ويلموت غْريسوولد Rufus Wilmot Griswold ونُشرت أول مجموعة شعريّة له في فيلادلفيا عام 1844 بعنوان: *Ximena*.

بعد ذلك أبحر بايارد الشاب إلى أوروپا، واستمتع بالتجوال مشياً على الأقدام في إنكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، وهذه الجولة التي استمرّت عامين لم تكلفه سوى 100 جنيه، لكنها جعلت منه رحّالة ذا شأن، وإبّان عودته إلى أميركا طالبه القرّاء بجمع مقالاته التي كان يرسلها للصحف في كتاب، فنشرها عام 1845 بعنوان: *Views Afoot*، وإبّان فورة البحث عن الذهب في كاليفورنيا توجّه إليها وإلى مكسيكو فخرج عنهما بكتاب ثمين *El Dorado* حقق مبيعات كبيرة في أميركا وبريطانيا.

كان تايلور دائم الحلم بزيارة المشرق، فقام عام 1851 بزيارة مصر وفلسطين وسوريا، وظهرت آثار سحر المشرق في كثير من إبداعاته الشعريّة، كقصيدته الشهيرة *Bedouin Love-Song*. كما ألّف عن رحلاته في مصر وأفريقيا وفلسطين كتابين شائقين، هما:

A Journey to Central Africa.
The Lands of the Saracen.

كما أنّ له كتباً أخرى عن رحلاته في الهند والصّين واليابان في عام 1853، وعن بلاد الشمال عام 1857، وكذلك صدرت بقلمه عام 1890 ترجمة إنكليزية لرائعة غْوته

«فاوست» *Faust: A Tragedy*.

لم يتوقف تايلور عن الكتابة والتّرحال، وفي عام 1878 عُيّن قائماً بأعمال الولايات المتحدة في برلين، ولدى سفره إلى ألمانيا كان معه في السفينة ذاتها الأديب الأميركي السّاخر الشهير مارك توايـن Mark Twain الـذي كتب عن الرّجل بإطـراء وإعجاب كبيرين، وغبطه على إجادته التامّة للغة الألمانيّة. وكنا التقينا بمارك تواين على صفحات كتابه الممتع «أبرار في الغُربة» الذي يروي أخبار رحلة مشابهة إلى أوروبا والمشرق في عام 1867.

لكن بعد مضي بضعة أشهر توفي بايارد تايلور في السنة ذاتها ببرلين، وكان من أواخر مؤلفاته التي دوّنها كتابه هذا «التّرحال في جزيرة العرب»، فنُشر للمرة الأولى بعد وفاته في عام 1881، والثانية في نيويورك بدار أبناء تشارلز سكريبنَر عام 1893، وقام على مراجعته توماس ستيفنز Thomas Stevens، وها نحن أولاء نضمّه إلى سلسلتنا.

ختاماً، أشير إلى أن الحواشي الواردة في هوامش الكتاب هي لي، فيما خلا ثلاثاً منها وضعها ستيفنز، وقد أشرت إلى ذلك في مكانه.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

بيروت، 17 أغسطس 2011

د. أحمد إيبش

* * *

نقاط حول الترجمة

عنـد ترجمة الحروف والتعابير الأجنبيّة، يواجه القـارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لـم تتمكـن مجامعنا اللغويّة من حسـمه إلى اليوم. لكن بمـا أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر نقطتين:

1 - بخصـوص حـرف الجـرّ الفرنسـي de أو du لا أتّبع أبـداً طريقـة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق.

2 - أمّـا عقـدة الترجمـة الكبـرى إلـى العربيّة فهي حـرف G الذي أعجـز مجامعنا اللغويّـة، فاسـم Google يُكتـب بمصـر: جوجل، وفي الشـام: غوغل، وفـي العراق: گـوگل، وفـي الخليج: قوقل، وفـي المغرب بكاف موسـومة بـ3 نقـاط، وفي تونس: ڨوڨل. هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن الجيم المشـبعة (الجيم الشـجريّة)، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّـه في لهجات العربيّة القديمة جيم (بقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى اتباع أسـلوب أجدادنا العـرب في الأندلس بترجمته غيناً (لكن بثـلاث نقاط ڠ تمييزاً له عن الغين)، كطريقتهم في تعريب الأسـماء: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: غاغا أم جاجا أم قاقـا؟ لكن مـع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسـومة برمز مميّز، دائرة أو جيم بقلم المُسـند فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى نفعل؟!



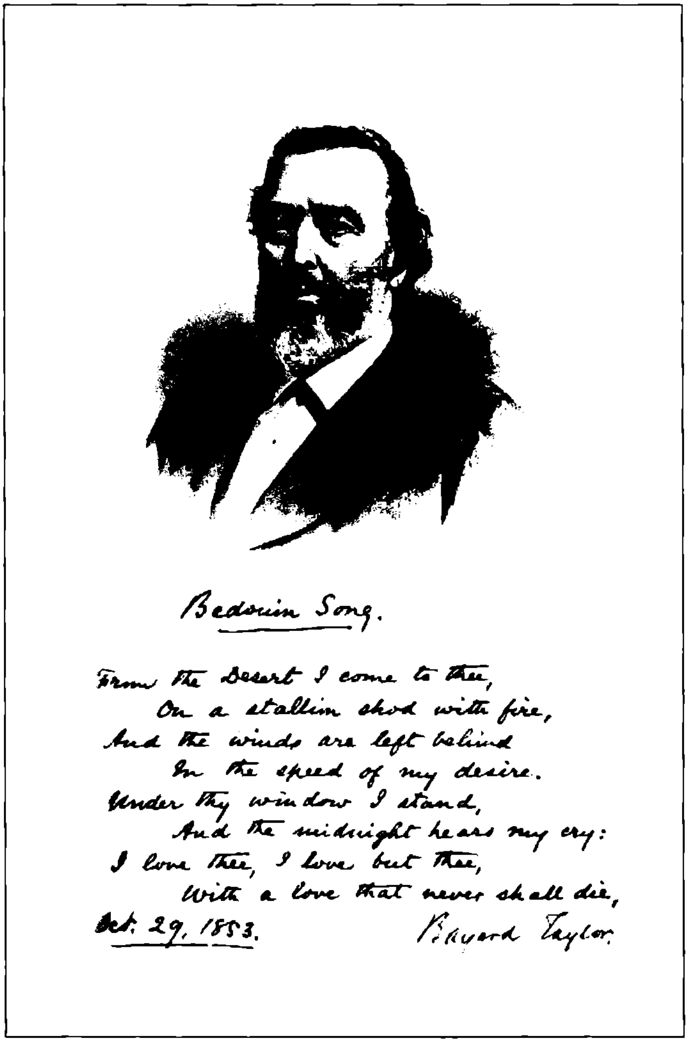
مؤلف الكتاب بايارد تايلور في شبابه



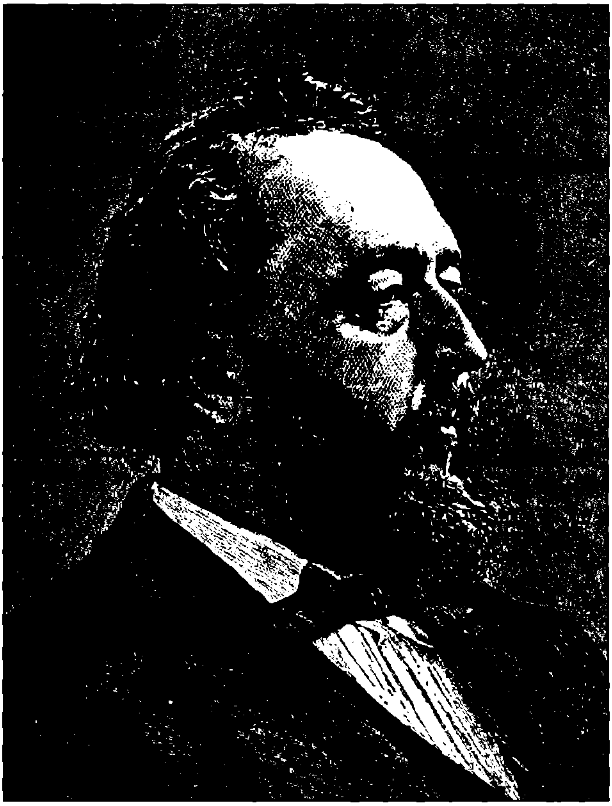
الشاعر والرحّالة الأديب بايارد تايلور في كهولته



الشاعر والرحّالة الأديب بايارد تايلور في كهولته



بايارد تايلور وأنشودته البدوية

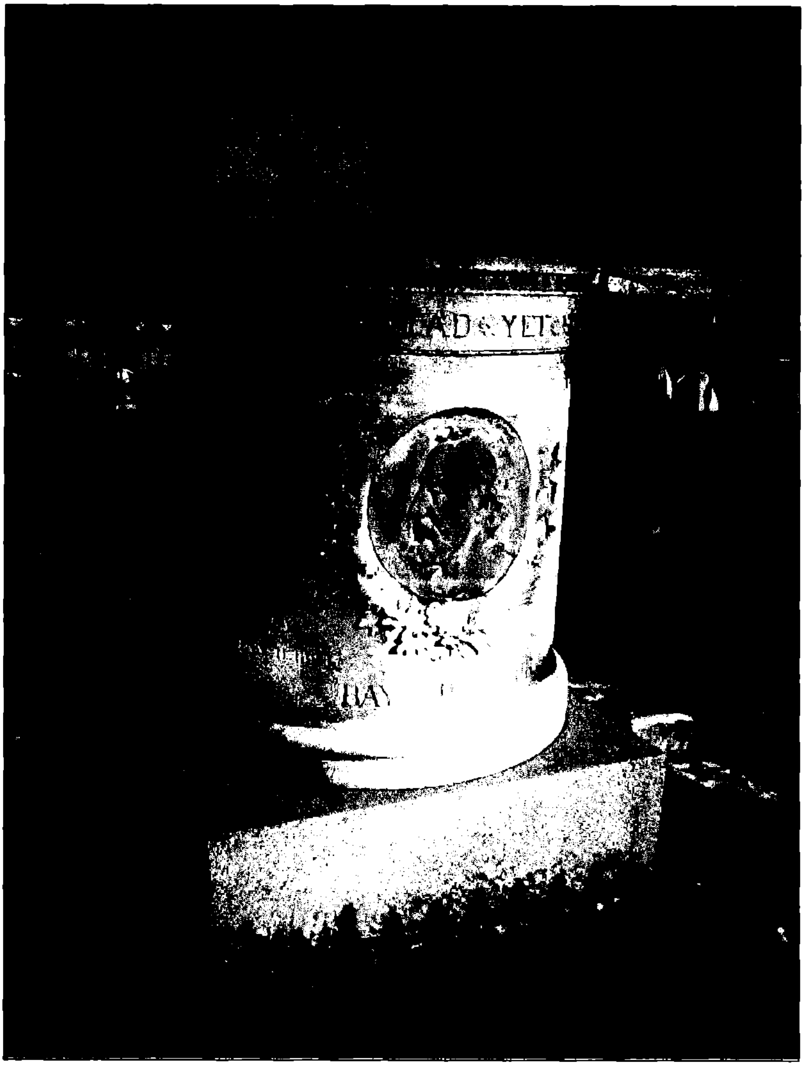


بايارد تايلور في كهولته (1825-1878)



بايارد تايلور بلباس شرقي عند قبّة سيّار المطلّة على دمشق

لوحة زيتيّة للرسّام الأميركي توماس هيكس Thomas Hicks عام 1855



ضريح بايارد تايلور في ساحة كينيت في پنسلڤانيا

Bayard Taylor's Bedouin Song

From the Desert I come to thee
On a stallion shod with fire;
And the winds are left behind
In the speed of my desire.
Under thy window I stand,
And the midnight hears my cry:
I love thee, I love but thee,
With a love that shall not die

Till the sun grows cold,
And the stars are old,
And the leaves of the Judgment Book Unfold!

Look from thy window and see
My passion and my pain;
I lie on the sands below,
And I faint in thy disdain.
Let the night-winds touch thy brow
With the heat of my burning sigh,
And melt thee to hear the vow
Of a love that shall not die

Till the sun grows cold,
And the stars are old,
And the leaves of the Judgment Book Unfold!

My steps are nightly driven,
By the fever in my breast,
To hear from thy lattice breathed
The word that shall give me rest.
Open the door of thy heart,
And open thy chamber door,
And my kisses shall teach thy lips
The love that shall fade no more

Till the sun grows cold,
And the stars are old,
And the leaves of the Judgment Book Unfold!

ILLUSTRATED LIBRARY OF TRAVEL

TRAVELS IN ARABIA

COMPILED AND ARRANGED BY

BAYARD TAYLOR

REVISED BY

THOMAS STEVENS

NEW YORK
CHARLES SCRIBNER'S SONS
1893.

نموذج عنوان الطبعة القديمة، نيويورك 1893

الفصل الأول

موجز حول جزيرة العرب
موقعها الجغرافي وتاريخها القديم

الواقع أن شبه جزيرة العرب، لكونها تشكّل أقصى الجنوب الغربي لقارة آسيا، تبقى منفصلة جزئياً عن ذاكرة القارة جغرافياً وتاريخياً. وعلى الرّغم من ورود أجزاء منها في التاريخ القديم، واحتمال أن تكون شواطئها معروفة للبحارة القدماء، فإن الجزء الأكبر منها بقي دائماً شبه منعزل ومجهول.

يعدّ الجغرافيون أحياناً تلك الصحراء الواقعة بين سوريا والفُرات جزءاً من شبه الجزيرة، ولكن الخط الواصل بين البحر الميت ومصبّ نهر الفُرات (الذي يتطابق تقريباً مع خط العرض 30°) يشكل الحدود الشمالية لشبه الجزيرة. وبينما تصل نقطة أقصى الجنوب للساحل العربي خط العرض 40 °12 ´، فإن الجزء الأكبر من المنطقة، والذي تتجاوز مساحته مليون ميل مربع، يقع بين المدارين. ومن حيث الشكل فإنها تشبه معيناً غير منتظم، يمتد القطر الأطول من السويس إلى رأس الحدّ في عُمان وطوله 1,660 ميلاً، والقطر الآخر يمتد من نهر الفُرات إلى مضيق باب المندب بطول 1,400 ميل.

ويُعدّ ساحل شبه الجزيرة الممتد من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي حتى خليج عُمان والخليج العربي بأكثر أقسامه حزاماً خصيباً يقطنه سكان مقيمون وشبه متحضرين. وخلف هذا الحزام المتفاوت بالعرض حيث يتراوح مابين بضعة أميال إلى

مئات الأميال تنبسط صحراء شاسعة، تتخلّلها أحياناً سلاسل جبلية، ويوجد فيها من الداخل الكثير من الأودية الخصبة وبمساحات كبيرة، وهي مناطق مأهولة بالسكان. وحتى القرن الحالي قلائل هم الذين كانوا على دراية بهذه المناطق الداخلية.

قسَّم الجغرافيون القدماء جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام هي: بلاد العرب الصخرية *Arabia Petræa*، وهي المنطقة الشمالية الغربية والتي تضم شبه جزيرة سيناء، وهي المنطقة الممتدة بين خليج السويس والعقبة؛ والقسم الثاني بلاد العرب الصحراوية *Arabia Deserta* وهي منطقة الصحراء الوسطى الكبرى؛ وأخيراً بلاد العرب السعيدة *Arabia Felix* وعلى ما يبدو أنهم قصدوا بها الجزء الجنوبي الغربي والذي يعرف الآن باليَمَن. تعتمد الجغرافيا العربية الحديثة، والتي هي معتمدة جزئياً في خرائطنا، تعتمد إلى حدّ ما على التقسيمات السياسية للمنطقة. والمنطقة الساحلية الممتدة على طول البحر الأحمر نزولاً إلى نصف المسافة تقريباً ما بين جدّة ومضيق باب المندب، والتي تضمّ الأماكن المقدسة مدينتي مكّة والمدينة، تدعى الحجاز. أما اليَمَن، وعاصمتها صنعاء والموانئ الرئيسية فيها: المُخا والحُديدة واللُّحيّة، فهي تطوّق الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة.

وأما الساحل الجنوبي، فعلى الرّغم من كونه مقسماً إلى عدة دويلات صغيرة، فإنه يُعرف باسم حضرموت. فيما تمتدّ مملكة عُمان على طول الساحل الشرقي، تقريباً حتى أعلى الخليج العربي. والواحات الشمالية، مقرّ الدّعوة الوهّابية[1]، تُسمّى بنجد؛ والمنطقة الجنوبية المجهولة والتي يعتقد أنها صحراء بشكل كامل يقطنها بعض البدو الرحّل وتُعرف بالدَّهناء أو الأحقاف.

يقطن في جزيرة العرب جنس بشريّ واحد منذ القدم، وعبر آلاف السنين حدث فيها تغيير أقل من البلاد الأخرى في العالم، بدون استثناء الصين. وحسب السلالة المذكورة في الكتاب المقدّس فإن السكان الأصليين ينحدرون من حام إلى كوش، إلا أن البدو كانوا يدّعون دوماً أنهم ذرية إسماعيل. وبعض المناطق في البلاد مثل

(1) الصّواب في التسمية: دعوة الإصلاح السّلفيّة.

أدوم (أو أدوميا) وتيمان وسبأ (اليَمَن الجديد) مذكورة في العهد القديم؛ ولكن لم تفلح حكومات البابليين أو الآشوريين أو الفرس أو المصريين في الاستيلاء على شبه الجزيرة. لقد قام الإسكندر الأكبر فعلاً بالإعداد لغزو المنطقة، إلا أن هذا الغزو لم يتمّ بسبب وفاته ويُعدّ الطروادي الإمبراطور الرّوماني الوحيد الذي تغلغل داخل المنطقة.

كان سكان المنطقة وثنيين، تشبه ديانتهم نوعاً ما ديانة الفينيقيين، وبعد خراب القدس وجد كل من اليهود والمسيحيين طريقهم إليها واهتدوا، كان هناك يهود في المدينة ومكّة واليمن؛ حتى إن آخر ملوك الحِمْيريين حوّل ديانته إلى اعتقاد متراكب. وبهذا فإن قوة الديانات السابقة كانت قد ضعفت عند ولادة محمّد[1] (عام 570 ميلادية)، وهناك أدلّة قوية للتكهن بأن ضعف اليهود والمسيحيين الناتج عن العداوة الطويلة بينهما كان العامل الأساسي لعزوف محمّد عن ديانتيهما عند ولادته كانت حضارة القبائل العربية الحاكمة لا تقلّ كثيراً عن تلك في أوروبا والإمبراطورية الشرقية. فقد كان هناك أدب عربي، كما أن فنون العالم القديم وعلومه قد وجدت طريقها إلى واحات نجد.

إن اتحاد أفضل وأقوى العناصر في الجنس واتباعه بنشأة الدين الجديد، أعطى البشر الذين يجري في عروقهم الدّم العربي دوراً في تاريخ العالم. وبعد ستمئة عام على وفاة محمّد[2] كان المسلمون والمسيحيون قوتين متعادلتين تقريباً، ومن الصعب حتى في الوقت الرّاهن، الحكم من ساهم بشكل أكبر في الفنون اتي انبثقت منها الحضارة الحديثة. وتحت حكم الخلفاء، انتعشت جزيرة العرب كما لم يحصل من قبل؛ ومع ذلك ليس من الواضح أن حياة السكان تغيّرت بشكل ملموس أو أن أي نموّ حصل نتيجة للأهمية الجديدة للمنطقة قد أصبح دائماً، فتجارتها كانت مقتصرة على منتجات شريطها الساحلي الخصب الضيّق، والصحراء القاحلة فصلتها عن بغداد وسوريا؛ وأيٌّ من الطرق الواصلة أوروبا بالهند الشرقية لم تعبر خلالها، وبذلك بقيت مجهولة مقارنةً بالعالم المسيحي.

---

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(2) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بعد سقوط الخلافة عادت القبائل إلى حالتها السابقة عشائر مستقلة، ولخصوماتها القديمة التي بقيت مكبوحة عدة قرون، لكنها عاودت انتعاشـها الآن. بسط الأتراك في القرن السـادس عشـر سـيطرتهم على نجد واليمن؛ واسـتولى البرتغاليّون على مسقط مدة مئة وخمسين عاماً، وقام الفرس ببعض الاحتلالات الآنية. لكن المنطقة الداخلية الواسـعة حافظت على استقلالها بسهولة. إن الصّحارى المترامية بين الأودية الواسعة الخصبة والشـريط الساحلي هي موطن البدو الرحّل. كانت مهنتهم الوحيدة هي الغزو والقتـال ومبدؤهم في معيشـتهم أن يدهم ضد الآخرين، ويـد الآخرين ضدّهم. وعلى ذلك عملوا بمثابة حرّاس شخصيين حتى لأعدائهم.

إن السـكينة والعزلة الطويلة التي عاشتها أواسط جزيرة العرب تم كسرها في القرن الحالي. ومن الجيد القول هنا، وباختصار شـديد، إنّ الظروف هي التي أدّت إلى ذلك لأنها وحدها تبيّن الصعوبة والخطورة الكبيرة التي ينبغي أن يواجهها كل المستكشفين المعاصريـن. فـي أوائل القـرن الماضي بـدأ أحد أبناء جـزرة العرب ويدعـى]محمّد بـن عبـد الوهـاب[بالوعظ والإصلاح، واشـتهر بسـبب معتقداته في إصـلاح العقيدة الإسلامية. لقد جاهر بجواز الإقصاء أو الإبعاد القسري لكل منشقّ عن التعاليم الدينية، ونادى أيضاً بأقسـى أشـكال الصيام والصلاة والامتناع عن التدخين (التبغ) وتغييرات أخـرى من العادات الشـرقية في حياتهم، وبعد نجاحه في كسـب حاكـم نجد (محمّد بن سـعود)، اتخذ من الدرعيّة مقراً له وعاصمة، فصارت مركزاً للقائه مع أتباعه الذين سُمّوا بالوهابيين[1]. وازداد عددهم حتى إن سلطتهم غدت العليا في كل جزيرة العرب الوسـطى، وتمكن خليفة ابن سـعود من حشـد جيش قوامـه 100,000 رجل للتصدّي للقوة العثمانية.

فـي عام 1803 اسـتولى الوهابيون[2] على مكّة، وقتلوا عدداً كبيـراً من النّاس الذين

---

(1) هذه التسمية مغلوطة، وقد روّج لها أعداؤهم، والصحيح تسميتها: دعوة الإصلاح السّلفي، كما سمّاها أصحابها. لكن الرّحّالين الغربيين ومن تبعهم من كتّاب درجوا على هذه التسمية.

(2) مع ذلك سوف نبقي على هذه الصّيغة، ما دمنا نترجم وليس من الأسلوب العلمي تحوير النصّ، بل تركه بذائقته اللغوية والفكرية والاصطلاحيّة كما هو، ثم يقوم القارئ بنقده كما يشاء.

كانوا متجمعين هناك. وقاموا بحملة ثانية على المدينة لكنها فشلت، فبادروا إلى نهب وتشتيت قافلة الحجّاج السنوية. وأخيراً وفي عام 1809 أوكل السلطان إلى محمّد علي والي مصر مهمة قمع هذا التمرّد الديني والسياسي الذي بات يشكل خطراً. كان مصير الحملة الأولى على جزيرة العرب أن مُنيت بالفشل؛ بينما نجحت الحملة الثانية تحت إمرة إبراهيم باشا الذي تغلب على الوهابيين في عام 1818، واستولى على الدِّرعيّة ودمّرها بشكل كامل. وفي عام 1828 بدؤوا حرباً جديدة ضد تركية، ولكنهم هُزموا مجدداً. ومنذ ذلك الحين امتنعوا عن أيّة أعمال حربيّة، ولكن عداواتهم وتعصبهم بقي كما كان. إن عقيدة الوهابية تذكي النزعات العشائرية والعرقية، ومن المحتمل أنها ولفترة طويلة من الزمن قد حالت دون أي تواصل بين جزيرة العرب والعالم الخارجي.

يعود الجزء الأكبر من معرفتنا بجزيرة العرب إلى تاريخ فتح هذه البلاد، إن الموانئ الرئيسية والطريق الواصل من السويس إلى جبل سيناء Sinai كانت معروفة في القرون الوسطى، وما عدا ذلك كان شبه مجهول كلياً. خلال الخمسين أو الستين عاماً الأخيرة اكتشفت جبال أدوم Edom، واكتشفت مدينة البتراء[1] المنحوتة بالصّخر، كما زار روّاد الأوروبيين مدينتي مكّة والمدينة واليمن، وحضرموت، وأجزاء من عُمان؛ و أصبح لدينا بعد ذلك كله رصيد واضح وجيد عن نجد وباقي مناطق وسط جزيرة العرب بواسطة الرّحالة الإنكليزي المستر پالغريف.

وهكذا، فقط بقي الجزء الجنوبي الداخلي من شبه الجزيرة الذي توجّبت زيارته الاسم الذي أطلقه العرب على هذه المنطقة «الرّبع الخالي» و«الأحقاف»، وبلا شك فهذا الاسم يصف المنطقة، إنه منيع ومتموّج وأرض رملية قاحلة ومرقطة بواحات نادرة وصغيرة تزوّد البدو بالماء المأوى، ولكن لا توجد مساحات كبيرة مأهولة وبالتالي لا يوجد فيه مدن أو أدنى تنظيم سياسي.

(1) هذا تعريب غشيم لتسمية العاصمة النبطيّة العظيمة بصيغتها اليونانيّة: پترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطيّة: سلَع، التي تعني الصّخرة. أما البتراء فماذا تعني في العربيّة؟ إنها لا تعني سوى المقتطعة والمنقوصة، وهذا ليس معنى اسمها أبداً.



صورة 1: مسير ليلي في صحاري جزيرة العرب

الفصل الثاني

المستكشفون الأوائل في جزيرة العرب

عندما عادت عادة الترحال للظهور في القرون الوسطى كانت إما لأسباب دينية أو تجارية، إما بالحجّ إلى روما وفلسطين، (وعندما يكون ممكناً) إلى أضرحة القديسين المعروفين أو رحلات إلى المشرق وفارس والهند من أجل كسب المال بالاتجار، والذي جعلت أرباحه تتزايد بمقدار ما تزايدت مخاطره. منذ الحملة الطروادية على جزيرة العرب (عام 117 ميلادية) وحتى القرن السادس عشر، ليس لدينا أيّة تقارير عن تاريخ أو أحوال البلاد كتلك التي يمكن الحصول عليها من المرويات اليهودية والمسيحية القديمة وبعدها الوثائق الإسلاميّة.

إنَّ أول سرد حول زيارة جزيرة العرب والذي على ما يبدو يمكن اعتماده هو ذلك الذي قدّمه لودوڤيكو دي ڤارتيما[1] Ludovico di Varthema القادم من روما، فبعد زيارته مصر انضم إلى قافلة الحجيج في دمشق عام 1503 برفقة قائد مملوكي، هو نفسه يشمئزّ من كونه مملوكياً مقيتاً. بعد عدّة هجمات شنّها عليهم بدو الصحراء، وصلت القافلة إلى المدينة، التي ذكر أنها تحوي ثلاثمئة بيت. وأعطى ڤارتيما وصفاً دقيقاً

(1) يعود أصله إلى مدينة بولونيا في شمال إيطاليا، وكتاب رحلاته في عام 1502 هو الأقدم من نوعه في وصف الرّحلة إلى بلاد الحجاز واليمن وسوريا ومصر والهند. وقد قاربتُ على إنجاز ترجمته بالكامل، وسننشره في هذه السلسلة بمطلع العام القادم إن شاء الله تعالى. وأنبّه إلى أن اسمه لا يُلفظ: دي فارثيما كما يكتبه الكثير من باحثينا، لأنه ما من حرف (ث) في الإيطاليّة.

لقبر النبي[1]، وتهكّم من الاعتقاد الشائع بأن قبره معلق في الهواء بين أربع حجارة مغناطيسية.

كما وصف المغامرة التي حلّت بهم مساء زيارتهم إلى المسجد: «تقريباً عند الساعة الثالثة ليلاً، دخل عشرة أو اثنا عشر شخصاً من ذرية محمّد من كبار السّن على قافلتنا التي كانت على مرمى حجر من مدخل المدينة. وصاروا يركضون هنا وهناك يجأرون صائحين بهذه الكلمات: «محمّد رسول الله سيُبعث من جديد! يا نبي، يا الله، محمّد سيبعث من جديد! ارحمنا يا رب!» فما كان منا، نحن وقائدنا، إلا أن نهضنا جميعاً عندما سمعنا هذا الصّياح، أخذنا كل ما وجد مع الحملة من أسلحة، وتوقعنا أن يأتي النّاس وينهبوا قافلتنا. سألنا عن سبب هذا الهتاف، ولماذا يتصايحون؟ لأنهم كانوا يصيحون كما يفعل المسيحيون عندما يحدث حدثٌ عجيب مصادفة. أجاب الأكبر سناً: «ألا ترون البريق الساطع من قبر النبي محمّد؟» أجاب قائدنا إنه لا يرى شيئاً، ونحن أيضاً حيث كنا قد سئلنا، أجبنا بالجواب ذاته. ثم قال أحد الرجال المسنين: «هل أنتم رقّ؟» وهذا يعني رجال مشترَون، أي بما معناه مماليك. وهنا قال قائدنا: «بالطبع نحن مماليك». بعدها أضاف الرجل العجوز: «أنتم أيها السادة لا تستطيعون رؤية الأشياء السّماوية كونكم حديثين، أي حديثي العهد بالإيمان، ولم تتثبتوا بعد في عقيدتنا». ومن ذلك يمكن الفهم أنه لم يكن هذا البريق الذي خرج من النعش سوى لهيب أحدثه الرهبان ليخرج من المكان المفتوح في الحصن، والذي خُدعنا به».

بعد مغادرة المدينة، سافرت القافلة لثلاثة أيام عبر «سهل واسع» مغطى بكامله برمال بيضاء ناعمة جداً وتشبه الدّقيق. ثم عبروا جبلاً حيث سمعوا «ضجيجاً مرعباً وصراخاً»، وبعد السفر مدة عشرة أيام، اقتتلوا خلالها مرتين مع «خمسين ألف أعرابي»، وصلوا مكّة التي يقول عنها ڤارتيما: «إنها مدينة جميلة جداً، ومأهولة بشكل جيد، وتحتوي على ستة آلاف بيت متوضعة بشكل دائري بناؤها جيد مثل أبنيتنا، وبعضها تصل كلفته إلى ثلاثة أو أربعة آلاف قطعة ذهبية؛ وليس لها جدران».

---

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وصف ڤارتيما الطقوس التي يؤدّيها الحجّاج بدقة لا بأس بها. وعلى ما يبدو أن صحبته بالمماليك كانت تحت حماية كاملة حتى حان الوقت للقافلة لكي تعود أدراجها إلى دمشق، وأُمر أعضاء المجموعة مرافقتها، بمرارة الموت. وتمكن من الفرار بإقناع أحد المسلمين أنه يتقن فن استخدام المدفع وأنه يرغب بالوصول إلى الهند ليساعد أهلها في الدفاع عن أنفسهم ضد الپرتغال. بعد وصول ڤارتيما بالسّلامة إلى جدّة أبحر باتجاه بلاد فارس، وزار اليمن في طريقه إلى هناك؛ وفي طريقه إلى الهند وبعد العديد من المغامرات، عاد إلى أوروپا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

الأوروپي الثاني الذي قصد المدن المقدسة كان جوزيف پِتس Joseph Pitts، وهو رجل إنكليزي وقع في أسر قرصان جزائري ليصبح صبياً بحاراً في السادسة عشرة من عمره، وأجبره سيّده على أن يصير مسلماً. وبعد عدّة سنوات، عندما تعلم اللغتين العربية والتركية رافق سيده في الحجّ إلى مكّة عن طريق القاهرة، فالسويس فالبحر الأحمر. وهنا حصل على حريته؛ لكنه تابع مع الحجيج إلى المدينة، ثم عاد إلى مصر براً عبر منطقة العربية الصخرية *Arabia Petræa*. وبعد خمسة عشر عاماً على إبعاده نجح في الهرب إلى إيطاليا، ومنها شقّ طريقه عائداً إلى إنكلترا.

قدم (پتس) شرحاً دقيقاً وصحيحاً بشكل عام في المناسك في مكّة. ولم يكن بالطبع متبحّراً في العلوم الإسلامية، وكحال كل الزائرين السابقين إلى مكّة، اشتمل سرده على وصف أدق من وصف بوركهارت Burckhardt؛ إلا أنه توافق معه في جميع التفاصيل الأساسية. ووصفه للمدينة والمشهد المحيط بها جدير بالاقتباس لشدة جذب بساطة أسلوبه:

«أولاً، بالنسبة لمكّة فهي مدينة قابعة في أرض قاحلة (تبعد حوالي مسير يوم واحد عن البحر الأحمر)، في وادٍ أو بالأحرى وسط عدة هضاب صغيرة. إنها مكان دون قوات عسكريّة، وبحاجة إلى جدران وأبواب، وأبنيتها - كما ذكرت مسبقاً - عادية جداً، وتبدو بأغلبيتها أنها مكان لا يوجد فيه تسلية جيدة، بينما هي ليست كذلك بالنسبة لآلاف الحجيج الذين يؤمّونها سنوياً، والذين تعتمد عليهم المدينة كلياً

(نسبياً)؛ إذ أن هناك الكثير من المحال التي تفتح على مدار العام بالإضافة لموسم الحج.

«الناس هنا، كما لاحظت، فقراء ونحيلون وبشرتهم داكنة. والمدينة محاطة على مدى عدّة أميال بآلاف الهضاب الصغيرة، المصطفة بعضها بجانب بعض. كنت أعلى أحدها قرب مكّة، وتمكنت من رؤية مساحة لعدة أميال، ومع ذلك لم أتمكن من مشاهدة نهاية هذه الهضاب التي كانت كلها صخرية وسوداء، وأقرب لأن تكون كبيرة، تظهر من البعيد وكأنها ديكة وكلها تؤشر باتجاه مكّة. محيط بعضها يصل إلى نحو نصف ميل، لكنها كلها تقريباً بالارتفاع ذاته. والناس هنا لديهم بعض المرويّات الغريبة والبسيطة الخاصة بهم، فمثلاً عندما أراد إبراهيم بناء بيت الله، الله عز وجل أمره بذلك، كان من الواجب أن يسهم كل جبل في العالم بالبناء؛ ولذلك أرسل كلٌ منهم حصته، ويوجد جبل قريب من الجزائر Algier ويدعى الجبل الأسود، والسبب وراء سواده، كما يعتقدون، أنه لم يرسل أي جزء من نفسه لبناء المعبد في مكّة. وبين هذه الهضاب يوجد مسار جيد ومنبسط على الرغم من أنها متداخلة في بعضها.

«يوجد في قمّة أحدها كهف الذي يسمونه كهف حِراء، المبارك، ويقولون إن محمّداً كان يلجأ إليه لعزلته وتأملاته وصيامه؛ ويعتقدون أنه في هذا المكان تلقى جزءاً كبيراً من القرآن الذي نزل به عليه الملَك جبريل. ذهبتُ إلى هذا الكهف، ولاحظت أنه لم يتم أيّ تجميل لهذا المكان، وأعجبت بذلك.

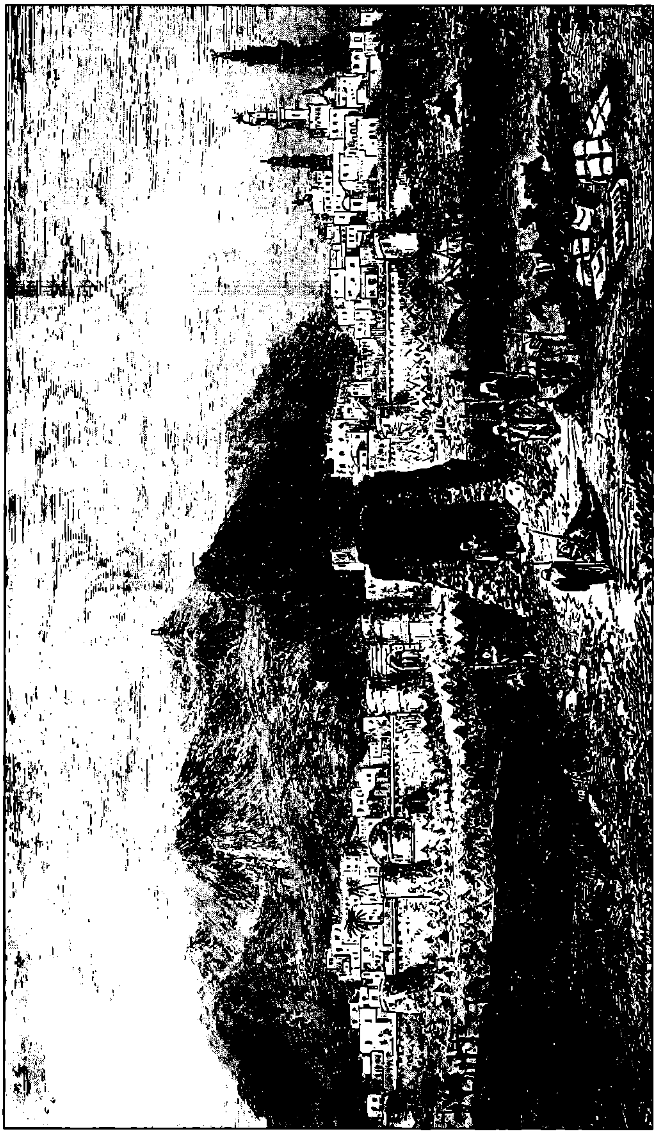
«هناك على بعد حوالي نصف ميل من مكّة يوجد هضبة شديدة الانحدار، وتوجد درجات صنعت للوصول إلى أعلى الهضبة، حيث يوجد قبّة، وتحتها يوجد صخرة مشطورة؛ يقولون هنا، عندما كان محمّد صغيراً جداً، وله من العمر حوالي أربع سنوات، حمله الملَك جبريل وفتح صدره وأخرج قلبه لينتزع منه بضعة لطخات دم سوداء، والتي هي أصل الفساد؛ وأعاده إلى مكانه وبعدها أغلق الجرح؛ وخلال هذه العملية لم يحسّ محمّد بأي ألم».

أمّـا السّـرد التالي من هذا الحـج فقدّمه جوڤانّي فيناتـي[1] Giovanni Finati، وهو إيطالـي هـرب من الخدمة الفرنسـية على سـاحل دلماسـيا، وأصبح جنديـاً ألبانياً. في طريقه إلى مصر، بعد مغامرات عديدة، أصبح أخيراً برتبة عريف في الحرس الشخصي لمحمّد علي، وشـارك في عدّة حملات ضد الوهابيين لكنه لم يخترق البلاد بعيداً عن الشـاطئ، وكانت زيارته إلى مكّة نتيجة فراره من الجيش المصري بعد إحدى هزائمه. لم تحتو قصته على أي شيء أكثر مما ذكره الرّحالة التالون بشكل أكثر شمولية وإقناعاً.

في ذلك الوقت كانت حقبة الاكتشـافات العلمية الدقيقة قد بدأت، والتفاصيل التي وصلتنا من تلك الحقبة ساهمت بشكل إيجابي في معرفتنا عن جزيرة العرب. وباستثناء رحلة كارسـتن نيبور، التي شـملت فقط شبه جزيرة سـيناء واليمن، فإن الاستكشافات المهمـة - التـي كانت بمجملها صعبة وجريئة - كانت قـد تحققت مع بداية هذا القرن التاسع عشر.

* * *

(1) حصلتُ على نصّ الكتاب النادر لهذا الجندي الإيطالي الذي حمل اسم محمّد آغا، وسننشره ضمن هذه السّلسلة إن شاء الله تعالى في العام المقبل.



صورة 2: مشهد للمدينة المنوّرة

الفصل الثالث

رحلة نيبور إلى اليمن

في عام 1760 قرّرت الحكومة الدّنماركية إرسال حملة إلى جزيرة العرب والهند بهدف الاستكشاف الجغرافي. صدر الأمر إلى كارستن نيبور Carsten Niebuhr، الذي تعود أصوله إلى هانوفر Hannover، وهو مهندس مدني. رافقه أربعة رجال آخرين في هذا المشروع: فنان، وعالم نبات، وطبيب، وعالم فلك. لكن، وبقدر واحد، ماتوا جميعهم خلال هذه الرحلة، وعاد نيبور وحيداً، بعد غياب استمر حوالي سبع السنوات، لينشر أول قصة عن السفر مبنية على مراقبة علمية.

أبحرت المجموعة من كوپنهاغن إلى سميرنا (إزمير) Smyrna في يناير 1761، فزاروا القسطنطينية ثم وصلوا إلى مصر، حيث مكثوا سنة تقريباً. وبعد الرحلة إلى سيناء، نجحوا في شق طريقهم إلى متن سفينة تقلّ حجاجاً من السّويس إلى جدّة، وأبحروا من الميناء السابق في أكتوبر من عام 1762. أخذوا احتياطاتهم باقتناء لباس عربي، والتزموا قدر الإمكان بعادات المسافرين المسلمين؛ وبذلك، وعلى الرغم من كون الرحلة مملّة وغير مريحة، فإنها لم تكن محفوفة بأيّة أخطار عدا عن الشعاب المرجانية المتواجدة على طول ساحل جزيرة العرب. رست السفينة في ينبُع، ميناء المدينة، ثم تابعت رحلتها حتى وصلت أخيراً إلى جدّة، بعد رحلة استغرقت تسعة عشر يوماً.

دخل المسافرون إلى جدّة وهم متخوفون بشدة من سوء معاملة السكان، ولكن

مخاوفهم باءت بالفشل. وعلى ما يبدو اعتاد السكان على رؤية التجار المسيحيين في مدينتهم، وليس لديهم اكتراث محدّد بالغرباء، الذين يذهبون بحرية إلى المقاهي والأسواق، ويشعرون أنهم بمأمن طالما أنهم لا يحاولون اجتياز البوابة المؤدية إلى مكّة. استقبلهم الوالي التركي في المدينة بلطف، وسُمح لهم أن يستأجروا بيتاً لإقامتهم المؤقتة.

بعد ستة أسابيع من الانتظار للفرصة المواتية للعبور إلى المُخا، علموا أن هناك سفينة عربية ستبحر باتجاه الحُدَيدَة، أحد موانئ اليمن. كانت السفينة، بعد زيارتهم إليها، أشبه أن تكون عبّارة hogshead عن أن تكون سفينة؛ كان طولها سبعة أقدام بحرية وبعرض ثلاثة. لم يكن هناك سطح سفينة؛ وألواحها كانت رقيقة جداً، ويبدو أنها متراصة مع بعضها بواسطة مسامير فقط، ولم تكن مثبّتة. لم يكن القبطان يلبس سوى قطعة قماش من الكتان ملفوفة على خصره، والبحارة، وعددهم تسعة، كانوا عبيداً سوداً من أفريقيا أو الملبار. وعلى الرغم من ذلك حجزوا للسفر، وأخذوا داخل السفينة لهم وحدهم، ولكنهم عندما أتوا ليصعدوا إليها وجدوا أنها ممتلئة ببضائع الآخرين. كانت الرحلة آمنة وممتعة، وفي غضون ستة عشر يوماً نزلوا في اللُّحَيَّة في اليمن.

كان حاكم هذا المكان زنجياً، وكان قطعاً من الرّقيق. استقبل المسافرين بأكبر لطف وأقنعهم بمغادرة السفينة وأعطاهم مكاناً للإقامة، ووعدهم بتأمين الجمال لرحلتهم اللاحقة براً. وعلى الرغم من استيائهم نوعاً ما من شدة فضول السكان، فإن إقامتهم كانت مقبولة جداً، ومنحت علماء التاريخ الطبيعي تسهيلات كثيرة لإنجاز مجموعاتهم، ولذلك امتدّت إقامتهم مدة أربعة أشهر. يقول نيبور: «كانت لدينا فرصة واحدة لتعلم أفكارهم حول الفوائد التي يمكن أخذها من الأدوية. وقد أعطى السيد كرامر وصفة كانت عبارة عن دواء مقيّء بشكل مروّع. وكان العرب بعد اكتشافهم نتائجه المذهلة، يصرّون على أن يتناول الجميع العلاج الممتاز ذاته، وذاع صيت مهارة صاحبنا بينهم. وذات يوم أرسل أمير الميناء في طلبه؛ ولأنه لم يذهب حالاً،

أرسل الأمير حصاناً مُسرجاً حتى بابنا. وكان السيد كرامر علي وشك أن يمتطي صهوة هذا الحصان اعتقاداً منه أنه أُرسل ليحمله إلى الأمير، إلا أنه أُخبر أن هذا هو المريض الذي عليه علاجه. ولحسن الحظ وجدنا طبيباً آخر من ضمن مجموعتنا؛ كان خادمنا السويدي فيما مضى مع سلاح الفرسان في بلده، وحدث أن حصل على بعض المعرفة بأمراض الخيول. عرض أن يعالج حصان الأمير، ونجح في ذلك. وهذا العلاج الذي قدّمه جعله مشهوراً، وأصبح بعد ذلك يُرسل لعلاج المرضى الآدميين».

وكونهم راضين عما حققوه، حتى هذا الوقت، لم يكن هناك أي خطر في السفر إلى اليمن، لم ينتظروا رحيل أيّة قافلة كبيرة، وفي 20 فبراير 1963 غادروا اللُّحَيَّة، ممتطين الحمير، وشقوا طريقهم عبر تهامة، أو الأرض المنخفضة، باتجاه مدينة بيت الفقيه الكبيرة، التي تقع قرب هضاب زراعة البن. كانوا يرتدون ملابس تشبه إلى حدّ ما تلك التي يرتديها السكان الأصليون: قميص طويل، يصل تقريباً حتى القدمين، نطاق، وعباءة على الكتفين. كانت البلاد قاحلة، لكن كان هناك الكثير من القرى الصغيرة، وكانوا يجدون من حين لآخر بين كل عدة أميال مقهى أو بالأحرى كوخاً لاستراحة المسافرين. وبعدما اقتصرت معاناتهم على استخدام الماء غير العذب، والذي يستخرج من الآبار التي يتجاوز عمقها مئة قدم، وصلوا أخيراً إلى بيت الفقيه خلال خمسة أيام.

هنا استقبلهم أحد التجّار المحليين بلطف، وقد استأجر لهم بيتاً حجرياً. تتربّع المدينة على سهل مزروع بشكل جيد؛ وهي حديثة نسبياً، لكنها مزدحمة بالسكان، ويشعر المسافرون الذين اعتادوا الآن تماماً على طبيعة الحياة في الصحراء بالأمان. لم يولهم الأمير أي اهتمام خاص، وهو تجاهل شعروا حياله برضى تام، لأنه منحهم الحرية ليتجوّلوا في أصقاع المدينة. لذلك قرّر نيبور جعل هذا المكان المركز الرئيسي للبعثة، ولأخذ بعض الوقت للتنزّه في هذا الجزء من اليمن. يقول: «لقد استأجرتُ حماراً، ووافق صاحبه أن يرافقني سيراً على قدميه خادماً لي. كان كل ما ارتديته عمامة، ورداءً كبيراً دون أكمام، وقميصاً، وسروالاً داخلياً من الكتان وخُفّ، ولمّا كان من الشائع في

هذه البلاد حمل السّلاح في السفر، فقد حملت معي سيفاً ومسدسين معلقين بنطاقي. كان سرجي عبارة عن قطعة بساط قديم، وبذلك خدمني كمقعد للجلوس وكطاولة ولأغراض أخرى. ولأتغطى في الليل كان لدي معطف من الكتان يلفّه العرب حول أكتافهم درءاً للشمس والمطر. أمّا دلو الماء فكان أداة لا يمكن التخلي عنها لأيّ مسافر في أراضٍ مقفرة كهذه، وكنت أعلقه على سرج جوادي».

بعد رحلة إلى ميناء الحُدَيدَة، زار نيبور مدينة زُبَيْد القديمة، التي بُنيت على أنقاض مدينة قديمة والتي يُقال إنها كانت في ما مضى عاصمة لكل البلد المنخفض. تقع زُبَيد في وادٍ واسع وخصب ويجتازها في موسم الأمطار نهر كبيرٌ يروي أراضٍ واسعة في البلد. وثمّة بقايا من القناة التي بناها الأتراك، لكن المدينة الجديدة لا تغطي نصف مساحة العاصمة القديمة. ومع ذلك فإن زُبَيْداً[1] لا تزال تتميز بمدرستها التي يدرس فيها الشباب من كل أرجاء ذلك القسم من اليمن تلك العلوم التي يتثقف بها المسلمون.

كانت رحلة نيبور التالية إلى مزارع قهوة المُخا الشهيرة، حيث كان قد ذهب الأعضاء الآخرون من فريقه خلال فترة زيارته إلى زُبَيْد. بعد المسير حوالي عشرين ميلاً شرق بيت الفقيه، وصل أسفل الجبل. ووصف المنطقة كالتالي: «لا يمكن استخدام الحمير ولا البغال في هذه المنطقة. يجب تسلق ممرات الهضبة المنحدرة والضيقة؛ لكنها مقارنة مع سهول تهامة التي جففتها الشمس، يبدو المنظر بالنسبة إلي ساحراً، فقد اكتست بالحدائق ومزارع أشجار البن.

«حتى هذه اللحظة لم أرَ سوى هضبة واحدة بازلتية صغيرة؛ لكن جميع الجبال هنا تتكوّن بشكل رئيس من هذه الأعمدة. وتلك الصخور المنفصلة تشكل أجساماً كبيرة في هذا المنظر الطبيعي، خصوصاً عندما ترى شلالات الماء تتدفق من أعلى قممها. هذه الشلالات، وهذا حالها، بدت وكأنها مدعّمة بصفوف من الأعمدة الاصطناعية. وهذا البازلت ذو منافع عظيمة للسكان؛ فالأعمدة التي يمكن فصلها بسهولة تستخدم

(1) أكتب ذلك على اعتبار أن اسم زُبيد ليس ممنوعاً من الصّرف، فلو قست ذلك على اسمَي مدينتَي (دمشق وبيروت) لما استقام، فكلاهما كنعاني، وأمّا اسم زُبيد فعربي جنوبي حتى الجذور.

كدرج وذلك لأن الصعود صعب للغاية، وكأسوار لدعم مزارع أشجار البن، المتواجدة على المنحدرات الشديد للجبال.

«إن الشـجرة التـي تطـرح البنّ معروفـة في أوروپـا؛ لذلك لا داعي لأقـوم بوصفها بالتفصيـل. كانت أشـجار البن جميعها مزهـرة في بلقوسـة[1] Bulgosa، وكانت تملأ الجو بشـذا عطرها الجميل. كانت مزروعة على مصاطب على شـكل مدرج. معظمها بعليـة تسـقى بميـاه الأمطـار، ولكـن بعضهـا بالتأكيـد كان يُروى مـن ميـاه الصهاريج الموجـودة فـي المرتفعات والتي تُعبـأ من أمطار الربيع، لتُـرش على المصاطب حيث تنمو أشجار كثيفة جداً لدرجة تحجب أشعة الشمس من الوصول إلى أغصانها. علمنا أن هـذه الأشـجار، المروية، تنتج ثماراً ناضجة مرتين في العـام؛ لكن ثمار الغلة الثانية لاتكون ناضجة تماماً، وبذلك تكون جودة البن من هذه الغلة أدنى من الغلة الأولى.

«تتواجـد الحجـارة في هذه المنطقة بشـكل أكبـر من تواجدها فـي تهامة، والبيوت - سواء الموجودة في القرى أو المتناثرة على الهضاب - كلها مبينة بالحجر. وعلى الرّغـم من كونها لا تُقارن بالبيوت في أوروپا من حيث اتسـاعها وأناقتها، فإن مظهرها جيد؛ وخصوصـاً تلك البيوت الواقفة فوق المرتفعـات، ومدرجات الحدائق الجميلة والأشجار تحيط بها.

«حتى في قرية بلقوسة هذه كنا على ارتفاع شاهق عن سطح السهل الذي ارتقينا منه؛ تسلقنا نصف المسافة إلى كسمة[2] Kusma بصعوبة، حيث يسكن أمير هذه المقاطعة، على أعلى قمة من سلسلة الجبال، ويا لها من طبيعة خلابة تلاقي العين في كل اتجاه.

---

(1) كذا ترد التسمية في الأصل الإنكليزي، وعلى الرّغم من البحث الواسع في أسماء قرى اليَمَن وبلدانه، فلم أظفر بهذه التسمية، وهي على أي حال منقولة من كتاب رحلة الدّنماركي كارستن نيبور Carsten Niebuhr الذي ألّفه بالألمانية، وفي هذه اللغة ينطق الحرف S زاياً، فهل هي بلقوزة؟! العون يا أشقاءنا في اليَمَن.

(2) تقع منطقة كسمة إلى الشرق من بيت الفقيه، وهي منطقة واسعة تضم نواحي عديدة وتقطنها قبائل كثيرة، ومركزها مدينة كسمة التي تحمل الاسم ذاته.

«أمضينا الليلة في بلقوسة. جاء عدّة رجال من القرية لرؤيتنا، وبعد رحليهم جاءت مضيفتنا لزيارتنا بصحبة بعض الشابات اللواتي كنّ جميعهنّ متشوقات لرؤية الأوروبيين. بدون أقل خجلاً من نساء المدن؛ كانت وجوههن سافرة، وتحدثن معنا بحرية. وبسبب أن الهواء على الهضاب كان أعذب وأبرد، فالنساء هنا لهن بشرة أجمل وأفتح منهن في السهول. رسم فناننا لوحة لفتاة كانت تجلب الماء، كانت تلبس قميصاً من الكتان بمربعات بيضاء وزرقاء. وكان أعلى وأسفل القميص، كما هو أسفل السروال مطرزاً بألوان مختلفة.

«وبما أننا لم نتعرّض لأيّة مضايقة حتى الآن، اقترح نيبور أن نقوم برحلة أطول باتجاه الداخل الجنوبي لليمن، عبر الجبال، وصولاً إلى المدينتين المهمّتين عَدَن وتَعز. تمّت التحضيرات بسهولة. استأجر المسافرون الحمير، ورافقهم مالكوها سيراً على الأقدام مرشدين وخدماً. وقد استخدموا أسماء عربية لمزيد من التخفي، وشخصياتهم الحقيقية قد تم إخفاؤها بشكل محكم حتى إن المرشدين اعتقدوا أنهم مسيحيون شرقيون، وليسوا أوروبيين. وجدوا عند ولوجهم إلى الجبال عبر طريق متعرّجة أولاً منطقة قاحلة، غير أنهم لم يلبثوا أن وصلوا إلى وادٍ مزروع بالبنّ. كان السكان ينامون في الليالي الباردة في أكياس من الكتان، ويرفعونها فوق رؤوسهم وبذلك يدفئون أنفسهم بزفيرهم».

عند وصولهم إلى عدن، التي وجدها نيبور تتألف من ثلاثمئة بيت، والمناطق المرتفعة مسكونة بشكل أكبر. إضافة إلى الطرقات التي تم حفرها في الصخور كانت هناك أحواض من الماء وُضعت ليستخدمها المسافرون، وفي الأماكن المكشوفة، بيوت ليستخدموها مأوى في حال حدوث عواصف. والمكان الثاني من حيث الأهمية كان جبلة[1] Djobla، وهو موضع ذو شأن في السجلات التاريخية لليَمَن، ولكن لا يوجد فيه آثار باستثناء بعض بقايا المساجد. ومسير يومين أوصل المجموعة إلى مدينة تَعز المحصّنة، لكنهم لم يغامروا بدخول أسوارها لكونهم لم يتقدّموا بطلب

(1) جبلة أهم مدن اليَمَن الأعلى (حسب تسمية كارستن نيبور)، وتليها في الأهميّة مدينة إب.

للأميـر للحصول على الإذن. فعادوا إلى مقرهم في بيت الفقيه عن طريق حاس، وهي مدينة أخرى كبيرة تقع أسفل الجبال، وبذلك كانوا قد تعرّفوا إلى جزء كبير من هضاب جزيرة العرب الصخرية.

استغرقت الرحلة إلى المُخا ثلاثة أيام عبر أرض منبسطة حارّة وقاحلة وغير مأهولة، فيمـا عدا الأودية حيث تروى بغزارة في موســم الأمطار. وتبعـت وصولهم إلى المُخا سلســلة من المنغصات، أولاً من المسـؤولين في مكتب الجمارك، ثم من الأمير الذي تحامل فجأة ضد المسافرين. وبذلك كانوا عرضةً لأن يتم إخراجهم من المدينة. ولكن قـدم تاجر إنكليزي لمسـاعدتهم، وأهدى الأمير هدية بقيمة خمسـين دوقية، فحصلوا على الإذن للإقامة في المدينة في نهاية أسبوع سـيء للغاية. وبسـبب الحرّ والحرمان مرضوا جميعاً، وبعد وقت قصير مات أحد أفراد المجموعة.

طلـب نيبـور الإذن بالدخـول إلى صنعـاء، عاصمة اليمـن. وهذا ما رفضـه الأمير، حتى تمكن من إرسـال خطاب إلى الإمام؛ وبعد التأخير لمدة شـهر، سُمح للمجموعة للذهـاب حتـى تَعـز، التي بلغوها فـي أربعة أيام، حيث اسـتُقبلوا بشـكل جيـد. كانت الأمطار المنعشـة المنهمرة كل مسـاء تنقّي الجو، وتماثل الجميع للشفاء من المرض، باستثناء عالم النبات الذي قضى قبل وصولهم إلى صنعاء.

تقع مدينة تَعز أسـفل جبل صَبر الخصب، وعليه، كما يقول العرب، تنمو كل أنواع النباتات والأشـجار الموجودة في العالم. ومع ذلك لم يسـمحوا للمسافرين بالصعود إليه أو الاقتراب منه. يحيط بالمدينة سـور، بارتفاع ستة عشر وثلاثين قدماً، وبمحاذاته حصـون. كان الولـي الرّاعـي لهذا المـكان ملكاً، الملك إسـماعيل، الـذي احترق في مسـجد يحمل اسـمه. لم يُسـمح لأحد بزيارة القبر منذ حدوث المعجزة، التي يرويها نيبور كالتالي: «طلب مسـتجديان صدقةً من أميـر مدينة تَعز، لكن أحدهما فقط حصل على المنحة. عندها ذهب الآخر إلى قبر الملك إسـماعيل ليناشـد عونه. وإذا بالولي، الذي كان في حياته كثير الصّدقة، يمدّ يده من القبر ويعطى السـائل رسـالة تحوي أمراً إلى الأمير ليدفع له مبلغ مئة كران. بعد التمحيص بالرسـالة بعناية فائقة تبيّن أن الملك

إسماعيل كتبها بيده ومهرها بخاتمه. ولم يتمكن الحاكم من رفض أمر الصرف؛ ولتجنب تعاقب المشاكل من هكذا كشوف حساب للصّرف، بنى جداراً لعزل القبر».

بعد عدة أيام، تغيّر أمير تَعز في معاملته للمسافرين، حيث أمرهم بالعودة إلى المُخا. وعندما وجدوا أن نقاشهم واعتراضهم بلا جدوى، وكانوا على وشك الامتثال للأمر عندها وصل رسول من المُخا، يحمل الإذن الصادر عن إمام اليمن ليتمّوا رحلتهم إلى صنعاء. فارتحلوا في 28 يونيو، وبعد عبورهم سلسلتي جبال محرّس Mharras وسمارة[1] Samara، عبر طريق مشقوق بشكل جيد ومتدرج، وصلوا بعد أسبوع إلى مدينة يَريم، قرب آثار مدينة ظفار الحِمْيَرية القديمة، والتي لم يتمكنوا من زيارتها بسبب مرض السيد فورسكال، عالم النبات في البعثة. وتوفي الرجل بعد عدّة أيام؛ فاضطرّوا لدفنه في الليل، متخذين أقصى الاحتياطات.

تبعد ذمار عن يَريم مسيرة يوم، وهي عاصمة الإقليم. والمدينة، التي تقع وسط سهل خصيب وليس لها سور، تحوي على خمسة آلاف بيت مبني بشكل جيد. وفيها جامعة شهيرة، ويوجد فيها عادة خمسمئة طالب. تضايق المسافرون هنا كثيراً بسبب فضول الناس الذين أخذوا يرمون نوافذهم بالحجارة ليرغموهم على الظهور. يوجد منجم كبريت محلّي في موقع قريب، وهناك أيضاً جبل حيث يوجد العقيق الذي يقدر عالياً في الشرق.

والبلاد خلف ذمار كلها هضاب، وكل قرية محاطة بحديقة وبستان فاكهة ومزارع عنب، تُسقى من مخازن مياه صناعية ضخمة مبنية في أسفل الهضاب. وعند وصول المسافرين إلى صنعاء، لم يُسمح لهم بالدخول، ولكن تم أخذهم إلى بيت غير مزوّد بفرش ودون جدران، وأُمروا أن يمكثوا في هذا البيت لمدة يومين وفي عزلة تامة، حتى أمكن أن يستقبلهم الإمام. و لم يُسمح لأحد بزيارتهم خلال هذا الوقت. يصف نيبور مقابلتهم التي تمّت في اليوم الثالث:

---

(1) يتبع جبل سمارة منطقة المخادر، وتبعد مدينة المخادر عن يريم أربعة أميال ونصف نحو جنوبها الغربي، وعن مدينة إب ميلين ونصف نحو الشمال.

«صالة الجمهور عبارة عن غرفة واسعة ومربعة، وسقفها محدّب. كان يوجد في الوسط حوض كبير، وفيه بعض النوافير التي تعلو بارتفاع أربعة عشر قدماً. كان يوجد مقعدان كبيران خلف الحوض وقرب العرش، ارتفاع كل منهما قدم ونصف؛ كان يغطي جزءاً من العرش قماشٌ حريري وُضع عليه، كما وُضع على جانبي العرش، وسائد كبيرة. وجلس الإمام بين الوسائد، ورجلاه متربّعتان كما يجلس الشرقيون؛ كانت عباءته ذات لون أخضر زاهٍ، ولها أكمام واسعة. وعلى طرفي صدره كانت هناك قطعة من تطريز الدّانتيل الذهبي الثمين، وعلى رأسه وضع عمامة بيضاء. جلس ولداه على يمينه، وأشقاؤه على يساره. ومقابلهم، جلس الوزير على المقعد الأعلى، ونحن جلسنا على الآخر المنخفض.

«تم اقتيادنا إلى الإمام حيث سُمح لنا أن نقبّل باطن كفّه وظاهرها، وطرف ثوبه أيضاً. إنه لمن الحظوة لأن يسمح الأمراء المنسوبون للرّسول[1] لأحدٍ أن يقبّل راحة يدهم. كان يعمّ القاعة هدوء وقور. كلما لمس أحدنا كف الإمام كان صوتٌ يردّد «الله يحفظ الإمام!» وكان الجميع يردّدون هذه الكلمات خلفه. كنت أفكر في تلك اللحظة كيف يمكنني أن أعبّر عن تحياتي بالعربية، وكانت هذه المراسم المفعمة بالضجة تشوّشني كثيراً.

«لم نعتقد أنه من اللائق أن نذكر للإمام السبب الحقيقي لبعثتنا هذه عبر جزيرة العرب؛ لكننا أخبرناه بأننا نرغب بالسفر عبر أقصر الطرق إلى المستعمرات الدنماركية في شرقيّ الهند، ولمّا سمعنا الكثير عن الوفرة والأمان في البلاد الخاضعة لحكمه، فقد عزنا على رؤية ذلك بأم أعيننا، ومن الممكن أن نصفها لسكان بلادنا. أخبرنا الإمام أننا موضع ترحيب في بلاده، وبإمكاننا المكوث بالقدر الذي نشاء. وبعد عودتنا إلى منزلنا أرسل لكل منا كيس دراهم يحوي على تسعة وتسعين خماسياً[2] komassis، كل اثنين

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.
(2) الخماسي من العملات المحليّة الفضيّة القديمة المستخدمة في اليمن، ومنها أيضاً الكبير والباولة والحرف. وكان الرّيال يساوي 64 خماسياً.

وثلاثين منها تعادل كراناً. هذا الجزء من الكياسة، من المحتمل، أنه لا يظهر المجاملة لمسافر. ولكن عند اعتبار أن غريباً، ليس على إطلاع على قيمة نقود البلاد، مرغم أن يدفع يومياً ليتزود بالمؤن، وهو في وارد أن يستغلّه الصّيارفة، فهذا الاهتمام على تزويدنا ببعض المال يبدو لطيفاً بشكل كاف».

يقول نيبور: «تقع مدينة صنعاء على سفح جبل نقم Nikkum، الذي لاتزال تُرى عليه بقايا قصر، يعتقد العرب أن الذي بناه سام[1]. وبالقرب من هذا الجبل يوجد قلعة؛ وينبع غدير على الجانب الآخر، وبالقرب منه يقع بستان المتوكل، وهو حديقة غناء، نسَّقها الإمام حامل ذاك الاسم، وتم تزيينها بشكل مدهش بأمر الإمام الحاكم. وأسوار المدينة، مبنية بالقرميد، باستثناء هذه الحديقة، حيث يحيطها سور خاص بها. وهذه المدينة المعنية ليست واسعة جداً؛ ومن الممكن أن يطوفها المرء خلال ساعة واحدة. وهناك عدد من المساجد، البعض منها بناه الپاشاوات الأتراك. ويوجد في صنعاء فقط أحد عشر حمّاماً عمومياً، والعديد من قصور النبلاء، وثلاثة من أجمل القصور تم بناؤها بأمر الإمام الحاكم. وهذه القصور بنيت بالآجرّ المشوي، وحتى في بعض الأحيان بالحجر المنقوش؛ ولكن بيوت العامة تبنى بالطوب المجفف بواسطة الشمس.

«وضواحي بير الأرسب Bir el-Arsab تقريباً تتاخم المدينة من الجهة الشرقية. وبيوت هذه المدينة مترامية في الحدائق، على ضفاف نهر صغير. وتتوافر الفاكهة بكثرة؛ ويوجد أكثر من عشرين صنفاً من الأعناب، وكونها لا تنضج جميعها في وقت واحد، فهي تستمر بإنتاج ثمار لذيذة لشهور عدة. ويخزن العرب أيضاً العنب بتعليقه في أقبيتهم، ويأكلونه تقريباً على مدار العام. على بعد فرسخين شمال صنعاء يقع سهل يسمى روضة Rodda، تغطيه الحدائق، وترويه عدة أنهار صغيرة. وهذا المكان يشبه كثيراً المناطق المجاورة لدمشق. لكن صنعاء، التي يشبّهها الكثير من الكتّاب ألقدماء بدمشق، تقع على مرتفع، ولا تزينها أشياء كالبساتين من حولها. بعد الأمطار الغزيرة،

(1) أحد أبناء النبي نوح، عليه السّلام.

بالطبـع تجـري أنهار صغيرة في المدينة؛ ولكن أرضها قاحلة في باقي أيام السـنة. لكن بفضل القنوات من جبل نقم، فإن مدينة وقلعة صنعاء دائماً تزود بماء عذب وفير».

* * *

طلب المسافرون الإذن بالرحيل بعد الإقامة لمدة أسبوع، خشية أن يسبّب لهم طول مكوثهم الشكوك والإرباكات. وبعد يومين أرسل الإمام لكل منهم مجموعة كاملة من الخلع (الثياب)، ورسـالة موجهة لأميـر المُخا، يأمره بموجبها أن يدفع لهم مئتي كران هديـة لوداعهـم. وزوّدهم أيضـاً بالجمال لرحلتهـم. وبدلاً من أن يعـودوا من الطريق نفسه الذي سلكوه، قرّروا النزول من البلاد التالية لمقرّهم القديم في بيت الفقيه، ومن هنالك عبور الأراضي المنخفضة وصولاً إلى المُخا.

سـافروا لمـدة يومين على جبـال صخرية عالية، من خلال أسـوأ طرق وجدوها في اليمـن. كانـت البلاد فقيرة ومأهولة بشـكل ضئيـل، وعندما اقتربوا من السـهول بدأت المنحدرات بالكاد تكتسـي بالأشـجار، وتظهر مصاطب زراعة البن. والمناطق الأفقر لا يعدّها العرب آمنة كلياً، إذ كثيراً ما يسـلب الناسُ المسافرين العزّل؛ لكن المجموعة عبرت هذه المنطقة بسلام، ووصلوا إلى بيت الفقيه بعد أسبوع سفر من صنعاء.

وصل (نيبور) ورفاقه إلى المُخا في أوائل شـهر أغسـطس، وفي آواخر ذلك الشهر أبحر على متن سـفينة إنكليزية إلى بومباي، بعد إقامتهم لمدة عشـرة أشـهر في اليمن. وبعد بضع شـهور توفي الفنان المرافق للبعثة والخادم السـويدي في المحيط الهندي، والطبيب في الهند، تاركين نيبور الوحيد الباقي على قيد الحياة من الأشـخاص السـتة الذين ارتحلوا من كوپنهاغن قبل ثلاث سنوات. وبعد إرساله يوميات ومقتنيات البعثة إلـى بلاده، تابع رحلاته عبـر الخليج العربي وبغداد وأرمينيا وآسـيا الصغرى حتى بلغ الدّنمـارك أخيراً في العام 1767. وعلى ذلك، فإنّ عهد البراعة والاستكشـاف العلمي الـذي فتح الآن وسـريعاً كل أجزاء العالـم إلى مداركنا، من الممكـن القول أنه كان قد دُشّن برحلاته.



صورة 3: التلاع المزروعة بالبنّ في اليَمَن

الفصل الرابع

رحلة بوركهارت إلى مكّة والمدينة

يعود أصل بوركهارت Burckhardt، الذي ندين له بأول وصف دقيق وشامل عن المدن المقدسة في جزيرة العرب، إلى لوزان في سويسرا. ذهب بعد دراسته في ألمانيا إلى لندن بهدف الالتحاق بالخدمة العسكرية الإنكليزية، لكن قام السيد جوزيف بانكس بإقناعه بالتقدّم إلى الاتحاد الأفريقي للحصول على تفويض باستكشاف الصّحارى، ومن ثم مملكة الزنوج المجهولة في أفريقيا الوسطى. وتمّ قبول طلبه، واتجه بعد الترتيبات إلى حلب، في سوريا، حيث بقي مدة عام أو عامين، عاكفاً على دراسة اللغة العربية والتعرّف إلى عادات الحياة الشرقية.

كان الهدف من رحلته الأولى إلى سوريا وفلسطين فقط التهيؤ لاستكشاف أفريقيا، التي قادته إلى أهم النتائج. فكان أول من زار منطقة حوران – وهي بلاد باشان المذكورة في الكتاب المقدّس – الواقعة جنوبي دمشق. ثم عبر مؤاب، شرق البحر الميت، وبالتظاهر بالقيام بالحج إلى قبر هارون على جبل حور Hor، اكتشف قصور البتراء[1] ومعابدها المنحوتة في الصخر، التي كانت مفقودة من العالم ولقرون عدة.

وصل بوركهارت إلى القاهرة بسلام، وبعد انتظاره عبثاً لعدّة أشهر الفرصة

---

(1) هذا تعريب خاطئ لتسمية العاصمة النبطيّة العظيمة بصيغتها اليونانيّة: پترا، والمفترض أن نطلق عليها اسمها الحقيقي باللغة النبطيّة: سلَع، التي تعني الصّخرة. أما البتراء فماذا تعني في العربيّة؟ إنها لا تعني سوى المقتطعة والمنقوصة، وهذا ليس معنى اسمها أبداً.

للالتحاق بقافلة متجهة إلى فزّان Fezzan، قرّر أن يستفيد من وقته بزيارة مصر العليا وصحراء النّوبة Nubia. فسافر وحيداً، برفقة دليل، ونجح في الوصول إلى حدود دُنقُلة Dongola، وكان من المستحيل المتابعة بعدها. لذلك عاد إلى أسوان، والتحق بقافلة صغيرة، عبرت صحراء النوبة إلى أثيوبيا، تقريباً على الطريق ذاته الذي سلكه بروس Bruce في عودته من الحبشة Abyssinia. وبقي بعض الوقت في شنداي، عاصمة أثيوبيا، ومن ثم، وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أشهر عبر بلاد تكّا Takka، التي لم يكن قد زارها أيّ أوروبي قط، وصل إلى ميناء سواكن Sowakin، على البحر الأحمر. وركب هناك على متن سفينة لتقلّه إلى جدّة، في جزيرة العرب، فوصل إليها في يوليو من عام 1814.

أثناء ذلك، كانت شخصيته الإسلامية[1] قد تبلورت بشكل كامل، وأضحى يشعر بذاته خالية من الرّيبة. وبناء على ذلك قرّر البقاء والمشاركة في الحجّ إلى مكّة والمدينة، الذي كان يصادف في تلك السنة في شهر نوفمبر. كانت ذخائره المالية قد استنفدت تقريباً، ورفض تجار جدّة تسديد اعتماد مالي قديم يعود إلى القاهرة، ولا يزال يحتفظ به معه. ونظراً لهذه الضرورة كتب إلى طبيب محمّد علي الأرمني، الذي كان في ذلك الوقت برفقة الپاشا في الطائف، والتي تبعد حوالي سبعين ميلاً جنوب شرقي مكّة. وحدث وأن سمع محمّد علي بذلك الطلب، فأرسل رسولاً في الحال مع اثنين من الجمال العربية، لدعوة بوركهارت لزيارته. و يبدو أن الپاشا شك أن يكون المسافر جاسوساً انكليزياً، ورغب في التأكد من ذلك شخصياً. وكان لدى الدليل أوامر باصطحاب الأخير إلى الطائف سالكاً طريقاً غير مباشر، بدلاً من الطريق المباشر المارّ بمكّة.

مضى بوركهارت دون أدنى تردّد، حريصاً على عدم إظهار أي ريبة من دوافع الپاشا، وعدم رغبة في رؤية المدينة المقدسة. لكن الدليل نفسه عرض المرور بمكّة لاختصار مدة السفر؛ كانت الرحلة سريعة، ولم يكن متاحاً سوى مشاهدة سريعة. بالاتجاه شرقاً،

---

(1) وأطلق على نفسه اسم الحاج إبراهيم بن عبد الله الألباني.

وصلوا في الليلة الثالثة إلى جبل كرا Kora، التي تقسم منطقة مكّة عن منطقة الطائف. اندهش بوركهارت من تغيّر المنظر المتمثل بالارتفاع الشاهق للمنطقة الداخلية في جزيرة العرب عن سطح البحر. كان وصفه مناقضاً تماماً لمنظر الطبيعة حول مكّة.

فهو يقول: «هذه أجمل رقعة في الحجاز، أجمل وأبهج من أي شيء شاهدته منذ مغادرتي لبنان، في سوريا. إنّ قمة جبل كرا مسطحة، وثمّة كتل كبيرة من صخور الصوّان تتبعثر عليه، وسطوحها مثل سطوح تلك الصخور القريبة من الشلال cataract الثاني لنهر النيل، قد اسودّت بفعل الشمس. وتنحدر عدة أنهار صغيرة من هذه القمّة وتروي السهل المغطى بالحقول الخضراء والأشجار الوارفة بجانب صخور الصوّان. ولهؤلاء الذين لا يعرفون إلا الرّمال المقفرة الحارقة في مناطق الحجاز المنخفضة، فهذا المنظر مدهش بقدر ما يكون الهواء الشديد الذي يهبّ هنا منعشاً. والكثير من الأشجار المثمرة الموجودة في أوروبا توجد هنا أيضاً مثل: التين والمشمش والخوخ والتفاح والجمّيز sycamore المصري واللوز والرمان؛ ولكن بشكل خاص الكروم، فإنتاجها منه هو الأفضل من حيث الجودة. وبعد المسير في هذه المنطقة الجميلة لمدة تقارب النصف ساعة، مع شروق الشمس، حيث كانت الأوراق جميعاً والأعشاب يغطيها الندى البَلسَمي balmy، وتنشر الأشجار والشجيرات كلها شذىً يبهج عبقه النفس كما تبهج العين صورة الطبيعة، توقفتُ عند أكبر تلك الأنهار الصغيرة، وعلى الرغم من كونه بعرض لا يزيد عن پيسين[1] two paces، فإن أعشاباً خضراء تكسو ضفتيه، مثلما لا يمكن أن ينمو في مصر على نهر النيل العظيم، وبكل خصبه».

قابل بوركهارت محمّد علي عشية وصوله إلى الطائف. وتأكدت شكوكه: حضر اللقاء كل من قاضي مكّة واثنين من علماء الدين الإسلامي، وعلى الرّغم من أن الپاشا تظاهر بقبوله لتأكيدات بوركهارت لشخصيته الإسلامية، فقد كان من الجليّ بالنسبة للأخير أنه كان يُمتحَن ببراعة أمام العلماء. ومع ذلك، عندما انتهى الامتحان، أُعلنوا أنه ليس مسلماً صادقا فحسب، وإنما شخص لديه معرفة وتقوى استثنائية. وأرغم

(1) الپيس: وحدة قياس تساوي 0,76 متر.

الباشا على أن يُذعن لهذا القرار، ولكن كان من الواضح عدم اقتناعه تماماً؛ لأنه أصدر الأوامر بأنّ على بوركهارت أن يحلّ ضيفاً على طبيبه، لكي تكون أقواله وأفعاله مراقبة عن كثب. فما كان من بوركهارت إلا أن اتخذ طريقة شرقية تامة ليحرّر نفسه من هذه المراقبة، فسبَّب للطبيب الكثير من المتاعب، الأمر الذي جعله يسرّ كثيراً في نهاية عشرة أيام لتمكنه من أن يتدبّر له إذناً من الباشا ليعود إلى مكّة، ليتخلص منه. وعندها سافر بوركهارت إلى المدينة المكرّمة بصحبة القاضي شخصياً!

عند وادي محرم Mohram، تقريباً على بعد مسير يوم من مكّة، بدَّل بوركهارت ثيابه ليرتدي ثياب الإحرام، أو الزيّ الذي يرتديه الحجّاج أثناء قيامهم بشعائرهم الدّينية. وهو مؤلف من قطعتين من الكتان أو القطن أو الصوف: واحدة تلفّ حول الخاصرة، والأخرى تُلقى على الكتف بحيث تبقى الذراع اليمنى عارية بشكل كامل. وعند بلوغ مكّة، اتّبع المشاعر الإسلامية بزيارة المسجد الكبير والقيام بالشعائر اللازمة قبل الشروع في أي أمر دنيوي. وعندما أنهى إنجاز ذلك قام برحلة إلى جدّة لتأمين المؤن الضرورية للحج إلى المدينة، ثم هيّأ لنفسه أسباب الراحة في أحد الأجزاء شبه المنعزلة في مكّة، بانتظار وصول قافلة الحجّاج القادمة من دمشق.

وصف بوركهارت مسجد مكّة الكبير، الذي يسمى بيت الله، بأنه «بناء رُباعي الشكل، في مركزه توجد الكعبة، وهي بناء ضخم ذو شكل مستطيل، طوله ثمانون پيساً، وعرضه أربعون، وارتفاعه حوالي خمسة وثلاثين أو أربعين قدماً. والكعبة مبنية بحجارة مكّة الرّمادية، بقطع كبيرة وأحجام مختلفة، متماسكة مع بعضها بشكل مضطرب، وبإسمنت بسيط. وفي الزاوية الشمالية الشرقية من الكعبة، قرب المدخل، يوجد الحجر الأسود الشهير، الذي يشكّل جزءاً من الزاوية الحادة للبناء على ارتفاع يصل إلى أربعة أو خمسة أقدام. وهو ذو شكل بيضوي غير منتظم قطره حوالي سبعة إنشات، وسطح متموج، مؤلف من حوالي حزمة من الحجارة الصغيرة وبأحجام وأشكال مختلفة، متراصّة مع بعضها بإحكام بواسطة كمية صغيرة من الإسمنت، ومصقولة بإتقان. ومن الصعب جداً تحديد نوعية هذا الحجر بدقة، الحجر الذي قد

صُقل سطحه حتى أصبح على هذا الشكل بسبب ملايين اللمسات والقبلات التي أتته. يبدو لي كأنه بركاني، ويحوي العديد من الجسيمات الصغيرة الغريبة. ولونه الآن بني محمرّ، ضارب إلى السواد. ويحيط به حاجز من كل الجهات، مكون من مادة وجدتها شبيهة جداً بمزيج من القار الإسمنتي والحصى؛ ويعمل هذا الحاجز على تدعيم قطعه المنفصلة. والحاجز والحجر كلاهما محاطان بإطار فضّي».

مع أواخر شهر نوفمبر وصلت القافلة القادمة من سوريا ومصر، وفي الوقت ذاته، مع بدء الحج، ظهر (محمّد علي) بشخصيّة تحفّ بها الأبّهة وموكب بهيّ. تألف إحرام الپاشا من قطعتي شال من أروع الكشمير؛ أمّا الخيول والجمال العائدة له ولحاشيته الكبيرة، إضافة لتلك العائدة لپاشا دمشق وغيره من أمراء المسلمين، فكانت كلها مزينة بأروع الأغطية المزركشة. وعند وصولهم، لم يتوقف الحجّاج في مكّة وإنما تابعوا مسيرهم إلى الجبل المقدّس عرفات، شرقي المدينة. أُنشئ المخيم، الذي يمتدّ لعدة أميال، على الأرض المنبسطة، عند سفح الجبل، وهنا انضمّ (بوركهارت) لهذا الحشد الهائل، ليشارك في شعائر اليوم التالي.

وفي الصباح صعد إلى قمّة عرفات، الذي كان عبارة عن كتلة متعرّجة ومنعزلة من الصوّان ويرتفع حوالي مئتي قدم عن السّهل. مشرفاً بهذا الشكل على المخيم، تمكن من عدّ أكثر من ثلاث آلاف خيمة، وقدّر أنه يوجد على الأقل خمسة وعشرون ألف جمل وسبعون ألفاً من البشر تم جمعهم معاً هناك. يقول: «كان أحد المناظر الاستثنائية التي تمنحها الأرض. كان كل حاج يغادر خيمته ليسير على السهل ويلقي نظرة على الحشود المنشغلة المجتمعة هناك. شوارع طويلة من الخيام، مجهّزة مثل الأسواق، ومزوّدة بكل أنواع المؤن. كان الفرسان السّوريون والمصريون يتدرّبون مع رؤسائهم منذ الصباح الباكر، بينما كانت الآلاف من الجمال تُرى وهي ترعى على الأحراج الجافة على السّهل حول المخيم. وُضع السّوريون في مخيمات على الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية من الجبل؛ والمصريون على الجهة الجنوبية الشرقية. كان لمحمّد علي وسليمان پاشا دمشق، والعديد من أتباعهم خيام أنيقة جداً؛ ولكن الأكثر

فخامة من الجميع كانت خيمة زوجة محمّد علي، والدة طوسـون باشا وإبراهيم باشا، التـي وصلت مؤخراً من القاهرة ببطانة ملكية حقاً، واسـتلزم لنقل الأمتعة من جدّة إلى مكّـة خمسـة آلاف جمل. كانت خيمتها فـي الواقع عبارة عن تخييـم، يتألف من اثنتي عشـرة خيمة بأحجام مختلفة، تقيم فيها نسـاؤها؛ محاطة كلها بسـتار من قماش الكتان بمحيط يبلغ ثمانمئة پيسـاً، والمدخل الوحيد لها كان يحرسـه الخصيان الذين يرتدون ثياباً رائعة. كان التطريز الجميل على السطح الخارجي لقماش الكتان، وبألوان مختلفة انتشـر على كل أجزائه، يعطي شـكلاً ذكّرني ببعض الوصف الوارد في الحكايا العربية في ألف ليلة وليلة».

كما قدّم بوركهارت وصفاً ممتعاً للخُطبة التي ألقيت على جبل عرفات، والاستماع لها جزء أساسي من الحجّ، وإلا فإن الشخص الذي لم يحضر على الأقل أثناء إلقائها، لـن يُطلق عليـه لقب «حجّي» أو حاج. تـم إزالة هذا التخييم الكبير عند السـاعة الثالثة مـن بعد الظهر، وامتلأ جبل عرفات من قمّته إلى أدناه للتوّ. «اتخذ الپاشـاوان، وجميع حاشـيتهما المنتظمة ضمن سـريتين خلفهـا، موقعهما في مؤخرة الرّتـل العميق للإبل والحجّاج التي انضم إليها أيضاً الناس من الحجاز؛ وهنا انتظروا بقداسة وصمت وقور نهايـة الخطبـة. كان شـريف مكّة الأكثـر بُعداً عـن الخطيب مع عدد قليل مـن الجنود، تميّزه عدّة رايات خضراء مرفوعة أمامه. وقام المحملان، بجمليهما الكريمين، اللذين يحمـلان علـى ظهريهما البناء المرتفع الذي يسـتخدم سـتاراً لقافلتهم الخاصة، بشـقّ طريقهما بصعوبة من بين صفوف الجمال التي طوّقت الجزء الجنوبي والشرقي للتلة، فـي الجهـة المقابلة للخطيـب، واتخذا موقعهما المحاطين بحراسـهما، مباشـرة على الرّصيـف أمامه. اعتلـى الخطيب، الذي يكون عادة قاضي مكّة، جمـلاً بحلة بهيّة كان قـد تـم اقتفاؤه: وهناك قول متواتـر أن محمّداً[1] كان دائماً يجلـس عندما كان يخاطب أتباعـه، وكان يقلّـده في هذا السـلوك كل الخلفاء الذين أتوا للحج، وكانوا بشـخصهم يخاطبـون رعاياهم من هذا المكان. ولكن السـيد التركي القادم من إسـطنبول لم يكن

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

معتاداً على ركوب الجمل، ولم يتمكن من المحافظة على مقعده بشكل جيد كما فعل النبي العربي شديد التحمّل، وأصبح الجمل جامحاً فلذلك اضطر لأن يترجّل عنه حالاً. قرأ خطبته من كتاب مكتوب باللغة العربية كان يحمله بين يديه. وبالفواصل كل أربع أو خمس دقائق، كان يتوقف ويمد ذراعيه ليلتمس المباركة من الأعلى، بينما كانت الجموع المحتشدة حوله وأمامه يلوّحون بأطراف لباس الإحرام فوق رؤوسهم وتتعالى صيحاتهم بـ «لبّيك اللهم لبّيك!». وخلال التلويح بثياب الإحرام، كان طرفا الجبل المزدحمان بكثافة بالناس المرتدين الثياب البيضاء، يبدوان وكأنهما شلالات مياه؛ أما المظلات الخضراء، التي كان عدّة آلاف من الحجّاج الجالسين على الجمال قد زُوّدوا بها، فكانت شبيهة بالسّهول الخضراء».

قام بوركهارت بكافة الشعائر المتبقية والمطلوبة من الحجّاج؛ لكنها قد وصفت مؤخراً وبتفاصيل أكثر لدى الكابتن بُرتون. ومكث في مكّة شهراً آخر، غير مشكوك فيه ولا متضايق، وتابع رصده للمكان الذي يعتقد العرب أنه قد أُحكم إغلاقه في وجه كل المسافرين المسيحيين.

وعند مغادرته لمكّة مع قافلة حجّاج صغيرة في 15 يناير 1815، وصل إلى المدينة بعد رحلة استغرقت ثلاثة عشر يوماً، تمكن خلالها بشق الأنفس من الإفلات من القتل على أيدي البدو.

أصيب بوركهارت بحمّى فور وصوله إلى المدينة، وبقي فيها مدة ثلاثة أشهر. ووصفه للشعائر التي يقوم بها الحجّاج في المدينة كان موجزاً وغير ذي أهمية؛ لكن وصف قبر محمّد[1] كان مفيداً بشكل كاف ليتم نقله. فهو يقول «يقف المسلمون عند الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد الرئيس، وهو محمي من اقتراب الزوار الشديد بواسطة سياج حديدي، مطلي بلون أخضر، يصل ارتفاعه إلى حوالي ثلثي طول الأعمدة المصطفة حول داخل مبنى المسجد. وهذا السياج مصنوع ببراعة، في محاكاة للنقوش المخرّمة، وتمازج بنقوش مخرّمة من البرونز الأصفر، الذي يعتقده

---

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

العوام ذهباً، وهو ذو بنية متداخلة بشدّة بحيث لا يمكن رؤية شيء من الداخل باستثناء عدة نوافذ صغيرة مربعة بقياس ستة إنشات، متوضّعة على الجهات الأربع للسياج، على ارتفاع خمسة أقدام من الأرض. وفي الجهة الجنوبية، حيث توجد النافذتان الرئيستان، يقف أمامها الأتقياء للصلاة، والسياج مكسو بالفضة والعبارة الشائعة: «لا إله إلا الله، الملك الحق المُبين» - كانت مكتوبة حول النوافذ. وكان القبر، كما كان قبرا أبي بكر وعمر المجاوران له، مخفياً عن نظر العامة بستارة من الحرير النفيس المطرّز بألوان مختلفة، ومزين بأزاهير فضية وأرابيسك، مع نقوش لحروف ذهبية في وسطها، كتلك التي تغطي الكعبة. وخلف هذه الستارة، التي حسب قول المؤرخين في المدينة كان يتم تبديلها سابقاً كل ستة أعوام، تجدّد الآن من لدن الباب العالي Porte كلما اهترأت القديمة، أو عندما يعتلي سلطان جديد العرش، كان يسمح بالدخول فقط لكبار الخصيان الموجودين في المسجد.

«وهذا الحرم المكرّم كان يعدُّ يوماً، كما هو حال معبد دلفي عند الإغريق، ثروة قومية للأمة. فهنا تودع الأموال والمجوهرات والأشياء الأخرى الثمينة الخاصة بأهل الحجاز في صناديق chests، أو تعلّق بحبال حريرية. ومن بينها يوجد نسخة قرآن بالحروف الكوفية، ونجمة لامعة مرصعة بالألماس واللؤلؤ كانت معلقة فوق قبر النبي مباشرة؛ ومن كل أنواع الآنية المملوءة بالمجوهرات، الأقراط والأساور والقلائد وغيرها من الحلي المرسلة من كل أرجاء الأمبراطورية. إن معظم هذه الأشياء قد أزالها أتباع الوهابيّة الذين احتجنوا المدن المقدسة».

وصل بوركهارت إلى ينبُع، (ميناء المدينة المنوّرة)، في نهاية شهر أبريل، وبعد أن خاض محنةً كبيرة بإصابته بالطاعون، نجح في شقّ طريقه إلى شبه جزيرة سيناء، ومنها سلك عائداً إلى القاهرة. وبقي هنا لعامين، كان عبثاً يأمل بمغادرة قافلة إلى أفريقيا الوسطى، وفي أثناء ذلك راح يساعد بِلتزوني Belzoni في استكشافاته في طيبة Thebes. وتوفي في أكتوبر من عام 1817، والناس الذين لم يعرفوه إلا باسم الشيخ عبد الله قاموا بدفنه في مقبرة المسلمين في الجهة الشرقية من القاهرة.



صورة 4: وادٍ في عُمان

الفصل الخامس

استكشافات ويلستِد في عُمان

إن الجانب الأحدث والأكمل والأكثر إرضاءً من مقاطعة عُمان - الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب، الواقع حالياً تحت سيطرة سلطان مسقط - قد قام بتغطيته الملازم ويلستِد J. Wellsted حينما كان مكلفاً من قبل البحرية الهندية لعدة سنوات بمسح السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية. ونظراً لإلمامه إلى حد ما بلغة الناس وعاداتهم، فقد استنبط فكرة القيام برحلة إلى الدّرعيّة في نجد، عاصمة الوهابيين، والتي لم يكن قد وصلها أيّ مسافر بعد. أعطاه حاكم بومباي الإجازة المطلوبة، ووصل إلى مسقط في نوفمبر 1835.

استقبل السلطان، السيّد سعيد، الشاب الإنكليزي بلطف كبير، ووعده بتقديم كل مساعدة ممكنة في مهمته، حتى إنه رتّب له الطريق الذي ليسلكه. كان عليه أن يبحر أولاً إلى ميناء صور، جنوبي مسقط، ومنه ينفذ إلى البلاد التي تقطنها قبيلة بني أبي علي، ثم يتجه شمالاً إلى الجبل الأخضر، الذي وصف له أنه شامخ وخصب وكثيف بالسكان. وكونه قد زار الأجزاء الأكثر متعة في عُمان، فقد أتيح أمامه عندها، في حال كون الطريق مفتوحاً، أن يسلك الطريق الشمالي عبر الصحراء باتجاه نجد. أهداه السلطان فرساً وسيفاً، إضافة إلى رسائل موجهة إلى حكام المقاطعات التي سيمرّ بها.

في صور، التي هي عبارة عن قرية صغيرة ومتواضعة، وفيها مرفأ جيد، كانت الجبال الداخلية تتاخم البحر، ولكنها منقسمة هنا بوادٍ يؤمن ممرّاً سهلاً إلى البلاد الواقعة

خلفهـا. وبعـد رحلة اسـتمرت أربعـة أيام وصل ويلسـتِد إلـى مضارب قبيلـة بني أبي علـي، في الموقع الذي قد اخترقته الجيوش الإنكليزية في 1821، لمعاقبة القبيلة على أعمـال القرصنة. وعلى الرغم من عدم زيـارة أيّ انكليزي لهم منذ ذلك الوقت، فإنهم اسـتقبلوه بكل مظاهر الصداقة. ذُبحت شـاة وأُعدت وليمة، وعُيّن حارس شرف حول الخيمـة، وفي المسـاء تجمّع كل رجال المعسـكر، البالغ عددهـم 250، لعرض رقصة الحرب الخاصة بهم. يصف ويلسـتِد المشـهد: «شـكلوا دائرة مؤلفة من خمسة منهم، وبعـد دورانهم ببـطء لبعض الوقت، تحدّى كل منهم مع أحد المشـاهدين بوكزه برفق بسـيفه. وكان خصمه يقفز مباشـرة إلى الأمـام ويتظاهر ببدء العـراك. ولديهم ضربتان فقط، واحدة مباشرة باتجاه الأسفل، على الرأس، والثانية أفقياً عبر الساقين. وكانوا لا يتفادون أياً منها لا بالسيف ولا بالترس، كانوا يتجنبون الضربة فقط بالوثب والقفز إلى الخلف. إن طول نصال سيوفهم ثلاثة أقدام والنّصل رقيق وذو حدين، وحاد كالشفرة. عندمـا يرفعونـه أمامهـم، وبحركة مميزة من المعصـم يجعلونه يهتز بشـكل رائع حقاً، وبمظهـر أخاذ على نحو فريد عندما يكونوا مجتمعيـن وبأيّ عدد لا بأس به. وكان من التسالي أن يطلقوا النار من بنادقهم ذوات القدّاحة تحت ساقي أحد المشاهدين، الذي يبدو مركّزاً جداً بمشـاهدة اللعبة لملاحظة عرضهم، وأيّة دلالات على مخاطرة بالكاد نجا منها الشخص، كانت تضيف الكثير لمرحهم».

وصـل في المسـاء مـن الصحـراء فريق مـن بـدو الجنبـة Geneba، وبرفقتهم أحد زعمائهـم. فوافق هذا بسـهولة على أن ويلسـتِد يجـب أن يرافقه في رحلـة قصيرة إلى بلـده، وانطلقوا فـي صباح اليوم التالي. كان شـهر يناير من السـنة، وكان هواء الصباح بارداً ونقياً؛ وعبر الجماعة بسـرعة الأراضي المنبسـطة الواسـعة والمقفرة، والهضاب المنخفضة، المرقطة بأشجار الأكاسيا، ومجاري الأنهار الحجرية التي تحمل فيضانات فصل الأمطار إلى البحر. وبعد مسيرة يوم لمسافة أربعة وأربعين ميلاً خيّموا عند بعض الآبـار الملحية. قال الزعيم لويلسـتِد: «رغبت في رؤية بـلاد البدو؛ فها هي ذي» وتابع قائـلاً ضاربـاً رمحه في الرّمال الصلبة: «ها هي ذي هي بلاد البدو». لم يرتدِ ولا أيّ من

أصحابه شيئاً سوى قطعة قماش ملفوفة على خواصرهم. أما شعرهم، فقد تُرك ليطول حتى الخصر، والذي يكون عادة مملّساً بالزيت وكان هو الغطاء الوحيد الذي يقي رؤوسهم من الشمس.

أوصل يوم السفر التالي ويلستِد إلى مخيّم صغير، حيث كانت تقيم زوجات الزعيم. تحدثن معه دون نقاب، وقدّمن له القهوة والحليب والتمر، واستضفنه بكل الضيافة التي سمحت إمكانياتهن الضئيلة بها. بلغ تعداد قبيلة بني جنبه Beni Geneba حوالي 3500 مقاتل كانوا ينتشرون على مساحة واسعة في جنوب جزيرة العرب، وكانوا ينقسمون إلى طبقتين واضحتين: هؤلاء الذين يعيشون على صيد السمك، وأولئك الذين يمتهنون الرعي. وتوجد سلالة صيادي السمك على كل سواحل جزيرة العرب، وفي بعض المقاطعات يُعدّون منفصلين ومنحطين، والبدو الأصيلون لا يأكلون معهم ولا يتواصلون بهم ولا يتزاوجون معهم؛ ولكن هذا التمييز لا يوجد عند بني جنبة.

لعل ويلستِد كان قد تغلغل أبعد من ذلك باتجاه الغرب تحت حماية هذه القبيلة، وأُغري على القيام بذلك؛ لكن بدا أنه أكثر أهمية الاتجاه نحو الشمال، ليتمكن من اقتفاء أثر إحدى القوافل المؤدية إلى أواسط جزيرة العرب. ولذلك عاد إلى مضارب (بني أبي علي)، حيث تألم القوم الودودون بشدة لرحيله، واعدين ببناء بيت له إن بقي معهم مدة شهر. سافر مدة يومين باتجاه الشمال، فوق منطقة رملية متموجة، تتخللها بقع من الأكاسيا القزمية، ووصل إلى منطقة تسمى بديعة Bediah، مؤلفة من سبع قرى، كل واحدة منها تقع على واحة النخيل الخاصة بها. والسّمة المدهشة لهذه القرى هي موقعها المنخفض. فهي مشيدة على تجاويف صناعية، كانت قد حُفرت على عمق يصل إلى ستة أو ثمانية أقدام. وبذلك يصل الماء إليهم عن طريق أنفاق تحت الأرض، من الآبار الموجودة في الهضاب المجاورة، والتربة خصبة جداً فالري يكفي لإنتاج أغنى المحاصيل من الفواكه والخضروات.

خطوة واحدة حملت المسافر من وهج ورمال الصحراء إلى بقعة زاخرة بأكثر النباتات وفرة، وغنية بالأشجار الباسقة، التي تقي أوراقها من أشعة الشمس. «هناك

فكـرة»، يقـول ويلسـتِد، «يمكن أن تشـكل كثافة هذا الظـل من التأثير الـذي تنتجه في تخفيف الإشـعاعات الأرضية. يسـتقر مقياس الحـرارة الفهرنهايت علـى الدرجة 55 داخل البيت، بينما على ارتفاع خمسـة إنشـات عن الأرض تنزل الحرارة إلى 45. لهذا السـبب، وبسبب وفرة المياه، هم دائماً مشـبعون بالرطوبة، وحتى في حرّ النهار لديهم برودة رطبة».

وبالاقتراب من عبرى Ibrah، ثاني أكبر قرية في الشمال، غدت البلاد تليّة، والوديان بين سلاسـل حجر الجير الحادة تزداد خصوبتها. بهذا يصف ويلسـتِد المكان: «يوجد بعـض البيوت الجميلة فـي عبرى؛ لكن نمط البناء مميز تماماً في هذا الجزء من جزيرة العرب. فلتجنّب الرطوبة والحصول على أشـعة مناسـبة من الشـمس فوق الأشـجار، تكون عادة عالية جداً. والحاجز سـقفي المحيط بالقسـم العلوي محصن، وفي بعض البيـوت الكبيرة تكون البنـادق منصوبة. يوجد على النوافذ والأبواب قناطر إسـلامية، وكل جـزء مـن البنـاء مزين بإسـراف بالحلي بنقـوش الجـصّ النافـرة in bas relief، وبعضهـا بذوق رفيع. والأبواب أيضاً مغطـاة بالنحاس، وعليها حلقات وحليّ ضخمة من المعدن ذاته.

«عِبرى Ibrah مشـهورة جداً بحسن وجمال نسـائها. وتلك اللواتي التقيت بهن في الشارع أظهرن بعض الخجل، وعند عودتي إلى الخيمة وجدتها تعج بهن. كن يشعرن بابتهاج شـديد لكل ما يرونـه؛ لقد قُلِب كل صندوق معي ليستكشـفنه، وكلما حاولت الاحتجـاج على تصرفاتهن كـن يغلقن فمي بأيديهن. مع هكذا آنسـات لم يكن أمامي إلا أن أضحك وأتفرّج».

وصل ويلسـتِد إلى قرية سمد Semmed، بعد سـفر استغرق يومين باتجاه الشمال، حيـث وجـد جدولاً عذباً مـن الماء الجاري. كان بيت الشـيخ عبارة عـن حصن كبير، وكانـت الغرف واسـعة ورحبة إلا أنها خالية من المفروشـات. وتدلّـت من الكلاليب المثبتـة علـى الجدران الأسـرجة والملابس وعـدّة الجياد والجمال. طليت الأسـقف برسـوم متنوعـة بينما كانت الأرض مـن الطين وغُطـت أجزاء منهـا بالحُصر. صُنعت

المصابيح من المحار، وهو نوع من الرّخويات، وكانت متدلية بحبال من الأسقف. وفي عودته إلى الخيمة، بعد هذه الزيارة، وجد المسافر، كالعادة، هناك حشداً كبيراً مجتمعاً، قد قام بتنظيمه صبي في الثانية عشرة من العمر. وهو قد قام بالاستيلاء على الخيمة، وحرّاسها، ولم يسمح لأحد بالدخول دون إذنه. حمل سيفاً أطول منه، كما حمل أيضاً عصا، كان أحياناً يضرب بها حوله. إنه جزء من نظام التربية عند العرب بالتوقف عن التعامل مع الصبيان وكأنهم أولاد في عمر مبكر، ولذلك يكتسبون رزانة وسلوك الرجال.

خلف هذا المكان كان يرافق ويلستِد حرّاسٌ عددهم سبعون رجلاً مسلحاً؛ لأن البلاد كانت تُعدّ غير آمنة. وفي يومين ونصف عبر الكثير من القرى الصغيرة، تفصلها عن بعضها بقع الصحراء، ثم وصل إلى بلدة «منح» Minnà، قرب سفح الجبال الخضراء. يقول: «تختلف مِنى عن باقي البلدات لأنه يوجد فيها زراعات في الحقول المكشوفة. بينما كنا نعبر، كانت أشجار اللوز الباسقة والليمون والبرتقال تنشر أريجاً شذياً على الجانبين، واندفعت منا عبارات التعجب من الدهشة والإعجاب. «هل هذه جزيرة العرب؟» كنا نتساءل: «هذه البلاد التي كنا نراها حتى الآن كصحراء؟».. كانت حقول الحنطة وقصب السكر الخضراء تمتد على مسافة أميال أمامنا؛ إن جداول المياه المتدفقة في كل اتجاه تقطع طريقنا؛ ومظهر الفلاحين السّعداء والقانعين ساعد بشكل جيد على إتمام اللوحة المؤنقة. كان الجو صافياً ونقياً بشكل مبهج؛ وبينما كنا نعدو مبتهجين، كنا نلقي أو نتلقى تحيّات السّلام والترحاب، خُيّل إليّ تقريباً أننا وصلنا أخيراً إلى تلك «العربيّة السعيدة» *Arabia Felix*، التي كنت قد اعتدت على أن أعدّها موجودة في كتابات شعرائنا فحسب.

«منح بلدة قديمة، يقال إنها قد شُيّدت في زمن غزو Narhirvan؛ ولكنها لا تحمل، مثل باقي البلدات، أيّة دلائل على القِدم؛ بيوتها مرتفعة، ولكنها لا تختلف عن بيوت عِبرىIbrah أو سمد Semmed. يوجد برجان مربعان، ارتفاعهما تقريباً حوالي مئة وسبعين قدماً، تقريباً في مركز البلد؛ عند أساسها لا يتجاوز عرض السّور القدمين، ولا

يتجاوز طول كل طرف الثماني يـاردات. لذلك من المدهش، آخذين بعين الحسبان خشونة المواد (فليس لديهم سوى الحجارة الكبيرة والإسمنت الخشن والمتين)، أنهم بقاماتهـم الضئيلـة قد تمكنوا من حملها إلى ارتفاعهـا الحالي. كان الحراس يصعدون باستمرار وبحذر بواسطة سلم بدائي، صنع بوضع قضبان خشبية بشكل مائل على إحدى الزوايا داخل البناء».

أمّا البلـدة المهمة نزوى، فتقع على السفح الغربي للجبل الأخضر، وتبعد مسيرةَ يوم عن منح. عند وصول (ويلستِد) هناك استقبله الحاكم بحفاوة، وحلّ، ولأول مرة منذ مغادرته مسقط، في بيت سخي سمح له بزيارة الحصن الذي يُعدّ في تلك المنطقة منيعاً. تـم إدخاله عبر بـاب معدني قوي جداً، وصعـوداً عبر ممر مقنطر، واجتاز ستة مداخل أخرى قبل وصوله إلى القمة. كان شكل الحصن دائرياً، قطره تقريباً مئة ياردة، وارتفاعه تسعون قدماً قد تـم ملؤها بكتلة صلبة مـن التراب والحجارة. لقد تم حفر سبعة أو ثمانيـة آبـار عبره، يحصلون مـن العديد منها علـى الكثير من المـاء، أما تلك الآبار الجافة فتستخدم مخازن للطلقات والذخائر. يحيط بالقمة سور بارتفاع أربعين قدماً، ليصبح الارتفاع الكامل للحصن مئة وخمسين قدماً. إنه صنع عمّال استثنائيين، ومظهره يمكن أن يـدلّ على القدم؛ ولكن لا يوجد نبأ مؤكد يمكن الحصول عليه فيما يخصّ هذه النقطة.

غادر ويلستِد في يوم عيد الميلاد نزوى في رحلة إلى الجبل الأخضر الشهير. حاول شيخ تنـوف Tanuf، أول قرية حلّ بها، وبكل الطرق الممكنـة أن يثنيه عن القيام بهذه الرحلـة؛ ولكـن تصميمه وبعـض الهدايا تغلبت علـى الصعوبة. بعـد أن امتطوا حميراً قويـة، بدأ الفريق بصعود سلسلة الجبال شـديدة الانحدار عبر طريـق ضيقة جداً حتى إنهم بدوا أحياناً معلقين على أجراف على عمق مجهول. وفي اليوم التالي وصلوا إلى قرية سياق Seyak. يقول: «نزلنا بواسطة درج الجانب شـديد الانحـدار لوادٍ صغير، علـى عمق أربعمئة قدم تقريبـاً، واجتزنا في تقدمنا عدة بيـوت متوضعة على الجروف أو علـى المرتفعـات الأخرى، جدرانها مشـيّدة في بعـض أجزائها وتبـدو وكأنها تتمة

للجـرف. هذه المنازل الصغيرة والدافئة والمتراصة قد تمّ بناؤها بأيدي السـكان منزلاً فوق الآخر، لذا فإن منظرها من أسفل الجرف، وكأنها معلّقة في الهواء، تمنح المشاهد صورة غريبة وممتعة جداً. وجدنا هنا، من بين الفواكه والأشـجار كثيرة التنوع، الرُّمّان والليمون واللوز وجوز الطيب والجوز وشجيرات البُنّ والكرمة. في الصيف، لا بدّ أن تصـدر كلهـا مجتمعة أريجاً طيباً؛ لكن كان الفصل شـتاء الآن، وكانت عارية الأوراق. يجري الماء في أماكن عديدة من أعلى التلال، وتتلقاه في الأسفل مستودعات صغيرة، حيث يتم توزيعه بكل أنحاء البلاد. ونظراً لضيق هذا الوادي وشدّة انحدار جانبيه، فإن الأجـزاء المنخفضة منه فقط تصلها أشـعة الشـمس الدافئة لفترة قصيـرة خلال النهار؛ حتى إننا عندما وصلنا هناك وجدناه بارداً جداً، لذلك، بعد استراحة قصيرة، كنا سعداء جداً لمتابعة رحلتنا».

توقفـوا لقضـاء الليـل في قريـة تسـمى شـيرازي Shirazi، في قلب الجبـال، يصل ارتفـاع أعلـى قمة فيها إلى سـتة آلاف قدماً عن سـطح البحر. ينتمي سـكانها إلى قبيلة بنـي ريـام Beni Ryam، والذين يُعدّون جهّالاً من قبل سـكان نـزوى Neswah لأنهم يزرعـون الكرمة بهدف صناعة الخمور. وقام العرب الموافقون لويلسـتِد بمغادرته في اليـوم التالـي، وواجه صعوبـة بالغة بالعودة إلى نزوى سـالكاً طريقـاً أخرى. ومن هذه النقطة أراد الانطلاق إلى وسط جزيرة العرب، لكن التمويل الذي كان يتوقعه لم يصله من مسـقط، بسـبب رفض العمـلاء الإنكليز هناك دفع السّـلف الماليّـة اللازمة مقدماً. وعليـه قام ويلسـتِد بالتقدم مباشـرة إلى السـلطان، السـيّد سـعيد، طالباً قرضـاً، وأثناء انتظاره للجواب، قام برحلة إلى الصحراء، خمسة أميال غربي نزوى. وبهدف الاطلاع على سـلوك البـدو وحياتهم المحلية، خالطهم أثناء رحلته هـذه، يقيم وينام بأكواخهم وخيامهم. وكان دائماً يُعامَل بلطف، وغالباً بدرجة من الضيافة تفوق بدل أن تكون أقل من إمكانيات هؤلاء الذين يقدمونها.

علـى الرّغـم من أن سـلطان مسـقط كان راغباً بتزويد المـوارد اللازمـة، وتم القيام بالترتيبات التي شـعر ويلسـتِد أنها سـتمكنه من التغلغل إلى الداخل، فإنّ حمى شديدة

منعته من المضي، بقي جرّاءها فاقداً للوعي خمسة أيام. وبعد أن تماثل للشفاء بشكل جيد ليرحل، كان طريقه الوحيد هو العودة إلى الشاطئ، وفي 22 يناير من عام 1836، غادر نزوى متجهاً إلى ميناء السّيب Sib الصغير، حيث بلغه بعد رحلة بطيئة استغرقت ثماني أيام. يروي الأحداث التالية التي وقعت في سمايل Semayel، المحطة التي في منتصف الطريق: «لمّا كنتُ مرهقاً وضعيفاً من الإجهاد أثناء رحلة النهار، ولأستمتع بعذوبة نسيم المساء، فقد فرشتُ بساطي تحت شجرة. توقف عربي عابر ليلقي نظرة عليّ، ومتأثراً بحالتي وبالحزن الذي ارتسم على محيّاي، رمى علي السلام، أشار إلى الجدول الرقراق الذي كان يلتمع عند قدمي، وقال: «انظر يا صاحبي إلى الماء المتدفق إنه لينعش الفؤاد!» وكانت يداه مبسوطتين على صدره، لكن هذا الصّمت أكثر تحيات الشرق لباقة، انحنى وتابع سيره. كنت في حالة أقدّر معها التعاطف؛ وظهر الكثير من ذلك الشعور في سلوك ابن الصحراء هذا، إلى درجة أنني منذ ذيّاك الحين لم تعاودني ذكرى تلك الحادثة، على بساطتها، إلا واعتراني شعور غامر».

دامت الاستراحة أربعة أسابيع في السّيب Sib، فاستجمع المسافر قواه وصمّم على القيام بمحاولة ثانية للوصول إلى وسط الجزيرة. ولذلك تقدم إلى السلطان يطلب مرافقة إلى البريمى Bireimah، أول بلدة للوهابيين[1]، خلف الحدود الشمالية لعُمان. أرسل السلطان دليلاً، لكنه اعترض على الموضوع؛ لأن معلومة قد وصلت للتو أن الوهابيين يستعدّون لغزو بلاده. إلا أن ويلستِد لم يرغب في التخلي عن خطته حتى دون أن يقوم بمحاولة على الأقل. فسار مع الساحل، شمال مسقط، حتى ميناء السّويق Suweik، حيث استقبلته بحفاوة بالغة زوجة الحاكم، السيّد هلال، الذي لم يكن موجوداً. «أُعدّت في مطبخه وجبة كبيرة، تتألف من أطباق متنوعة جداً، تكفي لثلاثين شخصاً أو أربعين، وحُملت إلينا على أطباق نحاسيّة كبيرة، مرتين يومياً طوال مدة مكوثنا هناك. في هذه المناسبات يكون هناك الكثير من الأواني الصينية الزرقاء والمذهبة، وأطباق زجاجية مزخرفة، وآنية تحوي شراباً بدلاً من الخمر».

---

(1) كذا في الأصل، والمراد: الدّولة السّعودية الثانية.

يتابع ويلستِد: «بعد عودة الشيخ كان غالباً ما يمضي المساء معنا. وكان برفقته مرة قاصّ حكايات معروف، ويبدو أنه مفضل عنده». وكان يقول: «كلما شعرت بالحزن أو الاضطراب أرسلت في طلب هذا الرجل، الذي سرعان ما يعيدني إلى مزاجيتي المعتادة». من نغمة الصوت التي كانت تُنشد بها القصة، لم أتمكن من متابعة سير الحكاية، وبعد أن ذكرت له ذلك، أرسل الشيخ لي مخطوطاً كان الراوي يستمدّ منه حكاياه. وباستثناء فروقات طفيفة وجدتها مطابقة لقصة سندباد البحار، المعروفة جداً لقراء ألف ليلة وليلة. فكرت قليلاً، أوّل مرة قرأت فيها هذه الحكايا الساحرة كانت بلغتي الأم، فكان قدري أن أستمع إلى الأصل في بقعة ملائمة جداً وبعيدة جداً».

عند مغادرة ويلستِد السّويق في الرابع من مارس، تركه رعاة الهجن في نهاية اليوم الأول للمسير، ولكنه نجح في استئجار غيرهم من قرية مجاورة. كان الطريق الذي في بدايته يمرّ عبر تلال منخفضة، قد دخل للتو إلى أعماق نفق جبلي، توصده جبال صخرية خطيرة، يصل ارتفاعها إلى عدة آلاف قدم.

سلكت المجموعة هذا الممرّ الضيق المنعطف لمدّة يومين، حيث ارتفعت الجُروف بشكل متكرّر من ثلاثة إلى أربعة آلاف قدم فوق رؤوسهم. وبعد عبورهم السلسلة الرئيسة، أصبحت البلاد مفتوحة بشكل أكبر، ووصلوا قرية مسكين Muskin، في أرض عرب بني كلبان Kalban. ثم كان تقدّمهم ما وراء هذه المنطقة بطيئاً ومتعباً، لأن البلاد قد قسمت إلى مناطق منفصلة، وهي شبه مستقلة عن بعضها. في البلدة التالية، مقينيات Makiniyat، ألحّ الشيخ عليهم ألا يمضوا أبعد من ذلك، بسبب المجازفة الكبيرة، لكنه وافق أخيراً على تأمين مرافق إلى عبري Obri، آخر بلدة باتجاه الشمال تعترف بسيطرة مسقط. كانت المسافة هذه مسيرة يومين، الأولى عبر وادٍ عريض بين تلال هرمية، والثانية على منبسطات رملية، دلّت على اقترابهم من الصحراء.

إن عبري Obri واحدة من أكبر البلدات في عُمان وأكثرها كثافةً سكانية. يكرس سكانها أنفسهم بشكل أساسي لمزاولة الزراعة حصراً، ويصدّرون كميات كبيرة من النيلة indigo والسكّر والتمر. عند الوصول إليها اتجه ويلستِد مباشرة إلى بيت الشيخ،

الـذي وجده شـخصية مختلفة جـداً عن المسـؤولين الذين التقاهم حتـى الآن. يقول: «عندما قدّمت له رسالة الإمام قام بقراءتها، وغادر دون أن يعطي أي جواب.

«أرسـل رسـالة شـفهية بعد سـاعة تقريباً يطلب فيها ألا أتلكّأ أبداً في مغادرة بلدته، وهـو ما يأسـف أن يبلغني إياه، لأن الـذي افترضه لم أكن مدركاً لـه، إذ كانت في ذلك الوقت حاشـدة بحوالي المئتي وهابي. كانت تلك أخبار جديدة علينا بالتأكيد؛ وكانت نوعـاً ما أكبر من توقعاتنـا بحدوث ذلك، لكننا واجهنا الموقف جيـداً، وتصرفنا ببرود قدر ما استطعنا».

عاد الشـيخ في اليوم التالي برفض قاطع للسّـماح لهم بالتقدم أكثر من ذلك. طلب ويلسـتِد رفضاً خطياً، دليلاً ليتمكن من تقديمه إلى السـلطان، وهذا ما وعد الشيخ للتوّ بأن يعطيه. كان جلياً أن هدفه إجبار المسـافر على مغادرة المكان، وهكذا كان التهديد ظاهـر الأشـياء، عندها لم يعد له الرغبة فـي البقاء. تجمّع الوهابيـون حول المجموعة بأعـداد كبيـرة، وبدا وكأنهـم ينتظرون ذريعة ما لبدء شـجار. «عندما جاء الشـيخ وقدّم لي الرسـالة إلى السلطان» يقول ويلسـتِد: «علمت أنه من العبث القيام بأي مسعى آخر لمناقشة قراره، لذلك لم أحاول ذلك. أثناء ذلك كانت الأنباء قد انتشرت طولاً وعرضاً أن رجليـن انكليزيين، معهما صنـدوق من «الدّولارات»، لكنه فـي الواقع لم يحتوِ إلا علـى بعـض الملابس التي حملناهـا معنا، قد نزلا فـي البلدة. قام الوهابيـون والقبائل الأخـرى بالتعامـل مـع الموضوع بتـروٍ، إلا أن الطبقـات الدنيا من سـكان البلدة كانوا يحدثون ضوضاء وفوضى. فإما أن الشـيخ لـم يكن لديه أدنى تأثر، أو أنه قد خشـي من إظهاره، وكان من الواضح أن أتباعه رغبوا في اقتسام الغنيمة. ينبغي التحرّك الآن.

«ناديـتُ علياً على انفـراد، وأخبرته ودون أن يصدر أي ضجيـج أو فوضى أن يقوم بجمـع الجمـال للتـوّ. وفي أثناء ذلـك قمنا بحزم الخيـام، وكان الحشـد يتزايد في كل دقيقـة؛ غـدت الجمال جاهزة، واعتليناها. كانت إشـارة من القائـد، أو أيّ حدث تافه، تكفي لإعطائهم الذريعة لشـّن هجوم. تبعونا مصحوبين بأصوات هسهسـة وضوضاء أخـرى، إلـى أن أصبحنا جاهزين بشـكل كافٍ لنغذّ السـير قدماً؛ وخلـف عدة أحجار

رُميت، وصلنا أطراف البلدة دون مضايقات أخرى. كثيراً ما كنت قد سمعتُ مسبقاً عن سوء الضيافة لدى سكان هذا المكان. كان العرب المجاورون يعلقون على الدّخول إلى عبري، بأنّ على المرء أن يدخلها إما مجرّداً حتى أسنانه، أو كمستجدٍّ عليه قطعة قماش تحيط بخصره، ليست بذات قيمة. وهكذا، تبخّرت آمالي ببلوغ الدِّرعيّة Derreyeh من هذه الجهة للمرة الثانية».

أُرغم ويلستِد على العودة إلى السّويق، ناجياً بشق الأنفس من كمين بدو على الطريق. وكمحاولة أخيرة، سار مع الساحل حتى شناص Schinas، قرب مضيق هُرمز، ومن هناك بعث رسولاً إلى الوهابيين في بئر سماح Birsimah. وهذه الخطة باءت بالفشل أيضاً، ثم عاد إلى الهند. لقد أعطانا الوصف الحقيقي الوحيد للمشهد وللسكان في عُمان الداخلية، وبذلك فإن رحلاته تعدّ مساهمة مهمّة في معرفتنا بجزيرة العرب.

* * *



صورة 5: خرائب نَقب الحَجَر في حضرموت

الفصل السادس

اكتشاف ويلستِد مدينة قديمة في حضرموت

فيما عُيّن لمسح السّاحل الجنوبي لجزيرة العرب في ربيع عام 1835، انشغل الملازم ويلستِد بعض الوقت قرب الرأس المسمى رأس العصيدة Ras el-Aseida في حضرموت، الوقع على بُعد مئة ميل تقريباً شرقي عدن. وعلى هذا الرأس يوجد برج مراقبة وحارس، هو ضابط يدعى حامد، تعرّف إليه الرّحّالة الإنكليزي؛ وعند سماع ويلستِد من البدو عن الآثار الواسعة في الجوار، التي يصفونها بأنها قد بناها الكفار، وأنها قديمة جداً، وكانت توجد على مسافة قصيرة نحو الداخل، قام بالضغط على الضابط ليؤمن له جمالاً وأدلاّء.

في أحد الأيام، بعد أن رسى مع ضابط صف بحري ليقوم بتفقد بعض النقوش الواقعة على مسافة بضع ساعات، رفض البدو الذين أحضروا الجمال الذهاب إلى ذلك المكان، ولكنهم أبدوا استعدادهم لنقل الأوروبيين الاثنين إلى مدينة الآثار. امتنع حامد عن مرافقتهم بدعوى المرض، وكانوا غير مزوّدين بالمؤن والهدايا لشيوخ القرى الواقعة على طريقهم. لكن الفرصة كانت لا تزال مغرية ولا يمكن تفويتها. فقرّر ويلستِد أن يحمل نفسه على الثقة من حماية البدو غير الأكيدة، فأرسل قاربه إلى سفينة المسح ومعه رسالة لضرورة أن تلتقي به في نقطة أبعد باتجاه الغرب، بعد ثلاثة أيام، وانطلق باتجاه الآثار في وقت متأخر بعد الظهر.

بعد مغادرتهم للشاطئ عند الغروب، اتجهوا شمالاً نحو الداخل، وواصلوا المسير

حتـى مـا بعد منتصف الليل، واجتازوا عدة قرى لبدو الدّيابي Diyabi، وهي قبيلة قوية وكبيـرة جـداً، ومرهوبة الجانب. بعد أن افترشـوا رمال الصحراء، اسـتمروا في نومهم حتـى الفجـر دون أيّة إزعاجات. بعد ذلك صـار الطريق صعوداً على سلسـلة صخرية يصل ارتفاعها إلى أربعمئة قدم تقريباً، ومن أعلى قمتها ظفروا بمنظر شـامل وموحش للبـلاد المحيطـة. امتدّ طريقهم على طـول وادٍ عريض، يحيط به على جانبيه سلاسـل جبال عالية. كانت الشمس في الساعة الثامنة قد احتدّت بشدة مما جعل البدو يعرّجون إلى ظل أشـجار طرفاء قزمة. يقول ويلسـتِد «في هذه التجاويف الحارقة، تتركز أشـعة الشـمس وتنعكس وكأنها صادرة عن مرآة: تحولت الأعشاب حولها إلى هشيم أسود؛ لا توجد أيّة سـحابة تعزل الأفق، والنسيم الذي مرّ بنا كان كحرارة الوهج، مثل الوهج الصـادر عـن فرن. قام أدلاّؤنـا بحفر تجاويف فـي الرّمل، وغرزوا أقدامهـم المتقرّحة فيهـا. وعلـى الرّغم من أننا لم نتأخر في إفادة أنفسـنا من الـدّرس العملي الذي علّمونا إياه، غدوت أكثر من مسرور لسلوكهم البدائي هذا».

سافروا خلال النهار على جبال رملية وصخرية، وفي وقت متأخر بعد الظهيرة دخلوا وادي ميفَـع Wady Meifah، حيث عثروا على آبار مياه عذبة وبعض النباتات. «بدأت البـلاد الآن تتخذ طابعاً مختلفاً. قرى صغيرة عديدة، تتبعثر وسـط واحات نخل كثيفة، حقول خضراء للحبوب وقطعان ماشـية تبدو عليها أمارات العافية، بدت ماثلة في كل مكان، وأصبحنا الآن بين مجموعات من السـكان لأول مرة مُذ غادرنا السـاحل. بدت الدهشـة على وجوههـم، وكوننا لم نتوقف، لـم يكن لديهم الفرصة لإشباع فضولهم بالتحديق بنا حتى لبضع الوقت».

لكن أحد البدو، وعلى الرّغم من احتجاجات ويلسـتِد، أخبر الناس أن المسـافرين كانـوا يبحثون عن كنز مدفون. وعندما أرادوا التخييم بقرب قرية، طلب سـكانها إليهم الرحيـل؛ وثبـت أن الأدلاّء كانوا جاهلين بالطرقات أثناء الليـل، وكانوا يواجهون عناء التجـوال دون ملاذ لولا لطف سـيدة عجوز قادتهم إلى منزلهـا، الذي ظهر وكأنه خان للمسافرين، وكان مزدحماً سلفاً مما أجبر المسافرين على النوم في الفناء.

لم يكونوا مستعدين تماماً للمشهد الذي سيكشفه نور الصباح لهم. «امتدت حقول الدُّخن والذرة sorghum والتبغ وغيرها بلونها الأخضر الحالك على مد البصر. امتزجت معها الأكاسيا الرقيقة وأشجار النخيل الفخمة ولكن الكئيبة؛ بين صرير النواعير الكثيرة التي تروي الأراضي، وفي البعيد عدة محاريث بدائية تجرّها الثيران، إنّ مظهر الناس النشيط والمتورّد، الذين احتشدوا الآن باتجاهنا من كل الجهات، وبرودة هواء الصباح المبهجة والمنعشة، قد اجتمعت لتشكل منظراً يجعل المرء الذي ينظر إلى مظاهر القحط على الشاطئ لا يمكن أن يتوقعه».

بعد ثلاث ساعات من السفر عبر هذه المنطقة المشرقة والمزدحمة، وصلوا إلى رؤية الآثار، التي يطلق عليه السكان اسم «نَقب الحَجَر». وحسب تقدير ويلستِد، تبعد حوالي خمسين ميلاً عن الساحل.

فيما يلي وصف ويلستِد للمكان: «تقف التلة التي تقع عليها هذه الآثار في وسط الوادي، وتقسم الجدول، الذي يجري في موسم الفيضان، ليمرّ على جانبيها. طوله حوالي 800 ياردة، و350 ياردة في أقصى عرض له، ويوجد جدار ضخم حوالي ثلث طوله بدءاً من أساسه، يبلغ ارتفاعه من ثلاثين إلى أربعين قدماً، يحيط بشكل كامل بالرّبوة، وهو محاط بأبراج مربعة، مشيدة على مسافات متساوية. يوجد مدخلان فقط، شمالي وجنوبي؛ وثمّة تجويف، برج مربع، قياسه أربعة عشر قدماً، يقف على الجانبين كليهما. أساساتها تمتد حتى السهل في الأسفل، وتستمرّ لمسافة خلف بقية البناء. وبين الأبراج، على ارتفاع عشرين قدماً عن السهل، يوجد رصيف مستطيل الشكل ينتأ حوالي ثمانية عشرة قدماً خارج وضمن السّور. وهناك سلّم درج معلق بشكل ظاهر على طرفي البناء.

«في باطن المدخل، على ارتفاع عشرة أقدام من الرّصيف، وجدنا نقوشاً حُفرت بعناية فائقة، في خطين أفقيين على الوجه المصقول للحجر، كانت الحروف بطول حوالي الثمانية إنشات. جرت محاولات، على الرّغم من فشلها، لإزالتها. على اعتبار الموضع البارز الذي تحتله، يمكن أن يوجد شك ضئيل أنه عندما تُحلّ الشيفرة،

سيتبيّن أنها تحوي اسم مؤسس البناء، وتاريخه ومضمون إنشائه[1]. بنيت الأسوار والأبراج، وبعض الصّروح داخلها، جميعها برخام ذي لون ضارب للرمادي، ونحتت بالشكل المطلوب بدقة متناهية. كانت أبعاد الألواح عند القاعدة بين خمسة وسبعة أقدام بالطول، وبين اثنين وثلاثة بالارتفاع، وعرضها من ثلاثة إلى أربعة أقدام.

«دعونا نتفقد الداخل، وأجمل ما فيه البناء ذو الشكل المستطيل، تقابل جدرانه النقاط الأساسية: أبعاده سبع وعشرون بسبعة عشرة ياردة. يكسو الجدران ضرب من الحجارة المقطعة freestone، وجميع الألواح مقسّمة بمقاسات واحدة، وجميعها متراصّة مع بعضها بشكل جميل جداً، وحاولت عبثاً أن أحشر نصل مديتي الصغيرة بينها. السطح الخارجي غير مصقول وتغطيه نقوش إزميل صغيرة، التي قد كان البدو يعتقدون خطأً أنها كتابة. من خلال العناية الفائقة الواضحة في إنشاء هذا البناء، لم يكن لديّ أي شك بأنه معبد، وكانت خيبة أملي عظيمة عندما وجدت أن الداخل قد ملأته بقايا السقف المتهدّم. لو أنه بقي كاملاً، لكنا قد تمكنا من استخلاص بعض الدلائل لترشدنا في أبحاثنا حول نمط الديانة التي كان العرب القدماء يدينون بها. هذا ويوجد العديد من الصّروح الأخرى فوق هذا البناء وتحته، ولا يوجد شيء مميز في شكلها أو مظهرها.

«لم ننجح باقتفاء أيّة بقايا لأقواس أو أعمدة من كل الآثار، ولم نتمكن من اكتشاف أيّ من الأواني الفخارية من سطوحها، سواء من الزّجاج أو المعادن الملونة، التي لا تزال توجد دائماً في المدن المصرية القديمة، والتي رأيتها أيضاً في الأشياء التي اكتشفناها في السّاحل الشمالي الغربي للجزيرة. وعدا عن المحاولات لتشويه الكتابات المنقوشة، لم يظهر شيء آخر يدلّ على أن الأبينة قد خضعت لأي تخريب ما خلا عوامل الزمن؛ وبسبب المناخ الجاف، وصلابة المواد أيضاً، فإن كل حجر،

---

(1) كتب محرّر كتاب تايلور: النقش المنسوخ في عمل الملازم ويلستِد، ظهر بالحروف الحميرية himyaritic. وفيما إذا كانت قد تمت أي ترجمة لها، فالمترجم غير قادر على تحديد أين ممكن أن توجد.

حتى تلك المنقوشة بالإزميل، لا تزال بحالة ممتازة كاليوم الذي نحتت فيه. كنا تواقين للتحقق ما إذا كان العرب قد حافظوا على أي تقليد في مسألة البناء، أو أنهم يرجعون، كحال كل العرب، إلى أسلافهم الوثنيين. «هل تصدق»، هذا ما قاله لي أحد البدو عندما أخبرته أن أسلافه كانوا قادرين إذن على القيام بأعمال أعظم مما هم عليه، «أتظن هذه الحجارة قد رفعت بأيدي الكافرين دون عون؟ لا! لا! كان لديهم شياطين، جيوش من الشياطين، (أعوذ بالله منهم!) لتساعدهم».

عومل السكان المحليون ويلستِد بلطف أثناء عودته إلى الشاطئ التي استغرقت يوماً ونصف،، ولم يُعانِ إلا من الحرارة الشديدة. كانت الباخرة لحسن الحظ تنتظر في المكان المحدد. ومنذ بدأت الرحلة، (في عام 1836)، نجح البارون فون ڤريدِه Baron von Wrede، الرحالة الألماني، في استكشاف جزء من حضرموت، الممتد حتى وادي دَوعَن Doan، وهو وادٍ كبير ومأهول بكثافة، أكثر من مئة ميل من السّاحل. لكن الاكتشاف الشامل لكل من اليمن وحضرموت كان لا يزال لابثاً قيد الانتظار، وعندما يحدث، فإنه بلا شك سيؤدي إلى اكتشافات مهمّة كثيرة.

* * *



صورة 6: مشهد للمدينة المنوّرة من جهة الغرب

الفصل السابع

حج بُرتون إلى المدينة ومكّة

غدا الكابتن ريتشارد ف. بُرتون، مكتشف بحيرة تنغانايقا Tanganyiaka العظيمة في أفريقيا الوسطى، في البداية معروفاً للعالم بزيارته الجريئة والناجحة تماماً إلى المدينة ومكّة، في عام 1853، متنكراً بصفة حاج مسلم. وعلى الرّغم من أن رحلته كانت كتلك التي قام بها بوركهارت، معكوسة، وأنه وصف الشعائر ذاتها، فإنّ رصيده يعوّض الكثير من النقص الوارد في وصف سابقه، ولديه مزيّة الأسلوب الأكثر حيوية وتصويراً.

كانت خطة بُرتون الأساسية هي عبور شبه جزيرة العرب من الغرب إلى الشرق، كما كان فعل پالغريڤ Palgrave قبله، والذي جرى أن الجمعيّة الجغرافية الملكية وافقت على خدماته. لكنه أخفق في الحصول على الإجازة المناسبة من شركة الهند الشرقيّة East India Company، التي منحته إجازة لمدة عام واحد فقط، مدة غير كافية أبداً للمشروع. لذلك قرر أن يثبت كفاءته للمهمة، بالقيام بالحج إلى المدن المقدسة. لقد كان ملماً مسبقاً باللغتين العربية والفارسية، كما كانت لديه مزيّة امتلاك بعض من الملامح الشرقية.

وعلى غرار بوركهارت، انتحل شخصية شرقية في البداية، وفي أثناء رحلته من ساوثَمبتون إلى الإسكندرية تظاهر بأنه أمير فارسي. انكبّ بجد على الدراسات الدينية اللازمة مدة شهرين أو ثلاثة، وانضمّ إلى جمعية الدراويش، باسم الشيخ عبد الله،

وحافظ على الصيام العسير في رمضان، وتعرف إلى كل تقاليد الوضوء والصلاة والسجود. وعرّف عن نفسه أنه أفغاني المولد، ولكنه بعيد عن وطنه من زمن بعيد، شخصية أدّاها بشكل جيد لتحميه من أن ينكشف. خلال فترة إقامته في القاهرة تعرَّف إلى شخص يدعى محمّد البسيوني، أصله من مكّة، أصبح رفيقه في السفر، وبدا أنه لم يشك بشخصيته حتى انتهى الحج.

بعد شرائه خيمة والتزود بكمية وافرة من المؤون، بحوالي 400 دولار، اتجه إلى السويس في الأول من يوليو تقريباً، بهدف معلن هو الوصول إلى مكّة عن طريق جدّة، ولكن نيته الضمنية كانت زيارة المدينة في طريقه. هنا تعرّف إلى مجموعة من الحجيج، الذين ضَمِن حسن نيّتهم ببعض إقراضات من المال، وانضمّ إليهم في شق طريقهم بواسطة مركب عربي كبير، متجه إلى ينبُع. كان القارب يسمّى «سلك الذهب». يقول بُرتون: «كانت الفوضى هائلة في يوم مغادرتنا الزاخر بالأحداث. يفترض أننا كنا نقف على الشاطئ، في صباح يوم محموم في يوليو، نراقب عن كثب أمتعتنا المحزّمة بصخب والعبيد المحاطين بحشود من الكسالى الذين يترفعون عن التقاط المتاع والتائهين، بينما يندفع الحجّاج باهتياج ظاهر، والأصدقاء يبكون، والمعارف يصيحون بالوداع، يطالب صاحب القارب بالأجرة، ويطالب أصحاب الدكاكين بالديون، بدأت النساء يصحن ويتحدثن بطلاقة لا يمكن تصوّرها، وأخذ الأطفال يبكون.. باختصار، كنا لمدة ساعة أو ما يقارب في عاصفة إنسانية ثقيلة. لدحض الفوضى، قام البحارة بربط قواربهم على بعد نصف درزن من الياردات من الشاطئ، لئلا يتمكن الحمالون من أخذ أجرتهم مضاعفة من الحجّاج».

أبحروا في السادس من يوليو، وما هي إلا خمسة أيام حتى وصلوا إلى مدخل خليج العَقَبة. وبينما كانوا يعبرون الساحل العربي، كان الحجّاج قد اعتادوا على ترديد الدّعاء التالي الذي يُعدّ مثالاً جيداً على الابتهالات الإسلامية[1]:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، اللهم يا الله يا علي يا عظيم، يا حليم يا عليم.. أنت ربّي،

(1) هذا مقطع من دُعاء حزب البحر للإمام أبي الحسن الشّاذلي.

وعِلمُك حَسبي، فنعمَ الرّب ربّي، ونعم الحسب حسبي، تنصُر من تشاء وأنت العزيز الرّحيم؛ نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات.. من الشكوك والظنون، والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب، فثبّتنا، وانصرنا، وسخّر لنا هذا البحر كما سخّرت البحر لموسى، وسخّرت النار لإبراهيم، وسخّرت الجبال والحديد لداوود، وسخّرت الرّيح والشياطين والجنّ لسليمان، وسخّرت القمر والبُراق لمحمّد، وسخّر لنا كلّ بحر هو لك في الأرض والسماء، والملك والملكوت، وبحر الدنيا وبحر الآخرة؛ وسخّر لنا كل شيء.. يا مَن بيده ملكوتُ كل شيء، Khyar! Khyar!».

ثم تمّت رحلة ثانية لأسبوع آخر، كانت غير مريحة وخالية من الأحداث، أوصلت القارب إلى ينبُع. وبما أن الحجّاج كانوا تواقين لدخول المدينة، فقد استُئجرت الجمال في يوم الوصول، وابتيعت المؤن لأسبوع، وسارت القافلة الصغيرة في عصر اليوم التالي. ارتدى بُرتون، بناء على نصيحة صاحبه، رداءً عربياً، لكنه سافر في شقدوف، والسبب في ذلك إصابة في قدمه ولأنه أيضاً يستطيع بهذه الطريقة تسجيل ملاحظات أثناء الطريق دون أن يلاحظه أحد. ونظراً لشدة الحرّ كانت القافلة تسافر غالباً أثناء الليل؛ ولذلك كانت البلاد تُشاهد بشكل معتم، وكانت منخفضة وقاحلة في اليومين الأولين، ولكن في اليوم الثالث وصلوا إلى بقعة موحشة أكثر، ويصفها بُرتون كما يلي:

«سافرنا عبر بلاد غريبة بإقفارها - كتلة من التلال الضخمة، سهول مقفرة، وأودية صحراوية. حتى الأكاسيا القوية ضعفت هنا، وفي بعض البقاع لم تجد أعشاب النوق الأرض الملائمة لتشقّ جذورها. امتد الطريق عبر الجبال والصخور وهضاب الغرانيت، فوق أراضٍ وعرة، محاطة بكتل ضخمة وجلاميد الصخور، تكدست وكأن فن الإنسان قد ساعد الطبيعة على تشويه نفسها. بدت الأودية المتصدعة كندبات على وجه الأرض المرعب؛ وهنا اتسعت إلى كهوف مظلمة، هناك علقوا بالرّمال المتلألئة المنزلقة. لم يُر أو يسمع أي طائر أو حيوان؛ ولكان حضورها بيّن المناطق المجاورة للماء، وعلى الرغم من أن أصحابي اعتقدوا أن البدو يختبئون في الصخور، فقد

قـرّرت أن هؤلاء البـدو كانوا مخلوقات مخاوفهم. كانت السـماء فـي الأعلى كفولاذ أزرق مصقول، مع لهب هائل لضوء أصفر يسـطع فوقنا، دون أدنى سـاتر من ضباب أو سحاب. كان المشهد البعيد أكثر سحراً من المنظر القريب؛ لأنه اكتسب لوناً لازوردياً مشرقاً من الجو المتداخل؛ لكن القمم المتثلمة وخطوط الظلال المتعامدة في الأسفل على جانبي الخلفية الجبلية أظهرت أنه لا يوجد أمامنا أيّ تغيير نحو الأفضل».

استراحت القافلة في البلدات الصغيرة التابعة للحمرا وبير عبّاس مدة يوم، وعانوا كثيراً من شدة القيظ، ومن الشجار الدائم بين الحجّاج والعرب أصحاب الجمال. وحلّ بهـم الذّعر فـي المكان المذكور بسـبب احتجازهم عدة أيام، لكن تـم تجاوز المحنة، وانطلقـوا في الجزء الأخطر من الطريق. يقول بُرتون: «سـافرنا فـي تلك الليلة صعوداً فـي مجرىً نهريٍّ جاف يأخذ اتجاهاً شـرقياً، ووجدنا أنفسـنا في مطلـع الفجر في ممرّ غير معروف، يسـمى «شُعب الحاج» *Shuab el-hadj*. إن أكثر محبّي الكلام قد لزموا الصّمت عند اقترابنا منه، وأظهرت وجوههم خشـيةً ارتسمت بحروف واضحة. الآن، من الأعلى، جُرُفٌ شـديد الانحدار على يسارنا، وتموّجاتٌ زرقاء رقيقة من الدّخان - بشـكل أو بآخر تأسـر العين - ولون زهري في الجو، وبعد ذلك مباشـرة دوّى صوت قرقعة حادة من بنادق الرّجال على الهضاب، وتردّد صدى الصخور من الجهة اليمنى.

وكان الشقدوف الذي أركبه قد انكسر بسبب وقوع الجمل أثناء الليل، لذلك أخبرت منصوراً أنه يجدر بنا أن نربط الإطار بحبل؛ نظر إلى الأعلى، فوجدني أضحك، واختفى مـع إصداره لفظة اشـمئزاز. كان من الممكن رؤية عدد من البدو محتشـدين كالذّبابير علـى قمـم الصخـور، كان الأولاد كمـا الكبـار يحملون أسـلحة ضخمة، ويتسـلقون برشـاقة الهررة. اتخذوا لأنفسـهم مواقـع مريحة في الرُّبى الموحشـة، وبدؤوا بإطلاق النار علينا دون أي عناء على الإطلاق. إن ارتفاع الهضاب وسـطوع الشـمس المشرقة قد منعت نظري من رؤية الأشـياء بوضوح، لكن أصحابي أرشـدوني إلى الأماكن التي كانت قد تحطمت فيها الصخور، وضرب من السـاتر المؤلف من الحجارة القاسـية - علـى غـرار جلاميد أفغانسـتان the Sangah of Afghanistan، مكدّسـة فوق بعضها

للحمايـة، والباقي على طول برميل من فتيل البنادق. كان من المسـتحيل تحدّي البدو لينزلوا ويحاربونا على الأرض المستوية كرجال؛ وعلى حد سواء لم يكن إطلاق النار لمرافقينا على عدو اختبأ خلف الصخور أمراً مجدياً. لذلك لم يكن بوسعنا القيام بأي شـيء سـوى أن نشـعل باروداً لنحجب أنفسـنا بأكبر قدر من الدخـان الممكن؛ كانت نتيجة المسألة أننا فقدنا اثني عشر رجلاً، إضافة إلى الجمال والحيوانات الأخرى التي تحمـل المتاع. وعلى الرغم من أن اللصوص لم يظهروا شـيئاً من الشـجاعة، وقصروا أنفسـهم علـى قتل العدو من أعلـى هضابهم، فإن أصحابي بدؤوا ليعـدّوا هذه الحادثة المشكوك فيها مأثرة لمنتهى الشجاعة».

أبصـر الحجّـاج المدينة المنورة بعد يومين آخرين من المسـير، وعند طلوع الفجر. هكـذا يصف بُرتـون الاقتراب، والمنظر مـن القمة الغربية: «بعد مغـادرة وادي العقيق بنصـف سـاعة، أو «الـوادي المبـارك»، وصلنـا إلـى درج كبيـر، ذي درجـات منحوتة بخشـونة، صف عريض أسـود اللون، من البازلت البركاني. وهذا يسـمى المدرّج، أو الدرج الموجود فوق القمة الغربية المسـماة الحارتين؛ إنها أرض مقدسة، لأن النبي[1] ذكرهـا بالخير. عند بلوغنا أعلـى القمة، عبرنا ممراً من الحجارة البركانية السـوداء، ذا حوافٍ شديدة الانحدار على الطرفين، وبعد عدة دقائق، ظهر فجأة أمامنا مشهد المدينة بكاملهـا. أوقفنـا حيواناتنا كأنـه بكلمة أمر. ترجلنـا جميعنا، بمحاكاة لورع المسـنّين، وجلسـنا منهكين وجائعين كحالنا الذي كنا عليه، لنمتّع أعيننا بمنظر المدينة المقدسة. كان الدعاء كالتالي: «اللهم! هذا هو حرم قبر النبي؛ أجرنا به من نار جهنم، وكن ملاذاً لنا من عذاب النّار! وافتح لنا أبواب الرحمة، وأبلغنا إلى جنان الخُلد!» ».

«عندما كنا ننظر باتجاه الشـرق ارتفعت الشـمس في الأفق فوق التلال المنخفضة، ملطخة ومرقطة بتجمعات الأشـجار الصغيرة، التي لاحت بحجم كبير بسـبب غشاوة الصباح، وتلوّنت الأرض بلون ذهبي وأرجواني. امتدّ أمامنا سـهل واسـع، حدّدته في المقدمة أرض نجد المتموجة؛ وثمّة على اليسـار نشـز صخري متجهّم، هو جبل أُحُد

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الشـهير، بغطـاء أخضر وقبة بيضــاء أو فرخين من الطيور في أسـفله. وباتجـاه اليمين، خطوط عريضة من الضباب الرّقيق بلون ليلكي قد أثقله الندى المتجمع الذي اخترقته أشعة الصباح وجعلته رقيقاً، ويمتدّ فوق واحات النخيل وحدائق قباء التي تألقت بلون أخضر زمرّدي عن سـطح الأرض المنبسـطة ذات اللون الأسـمر المصفر الكئيب. في الأسفل وعلى بعد حوالي الميلين، تقع المدينة؛ التي للوهلة الأولى تبدو مكاناً واسعاً، ولكن التمحيص عن كثب يثبت أن هذا الانطباع خاطئ».

عنـد الوصـول إلى المدينة، غدا بُرتون ضيفاً على أحـد الأصدقاء وكان قد قابله في السـويس، وخلال إقامته مدة شـهر فيها، قام بكل الشـعائر والزيارات الدينية التي وُجّه الحجّاج للقيام بها. ووصف مسجد النبي[1] بالتالي: «بعد عبور شوارع موحلة - كانت قد تمّت سـقايتها بشـكل منعش قبل حلول المساء - فجأة بلغت المسجد. وعلى غرار مكّة، كان الممرّ مسدوداً بأبنية وضيعة، بعضها يلامس فعلاً السّور enceinte المقدّس، والبعـض مفصـول بممرّ يشـبه الطريـق المحيـط بكاتدرائيّة القديس بولس في سـاحة الڤاتيكان. لا يوجد واجهة خارجية، وليست هناك مظاهر عامة لمسجد النبي؛ وبالتالي فهذا البناء لا يمتاز بالفخامة ولا الأبّهة. ولدى الدّخول من باب الرّحمة بواسـطة درج صغير جداً، دهشت من بساطة وعفويّة هذا المكان المبجّل في سائر العالم الإسلامي. إنه ليس كالمسـجد المكّي، الكبير والبسـيط - للتعبير عن فكرة واحدة سامية؛ بل كلما أطلت النظر فيه تراه يوحي بالشـبه مع متحف فنون، أو قاعة تحف نادرة، تملؤه الحلي التي لا تعدّ أشياء كماليّة، وتشوبه مسحة فخامة تغلب عليها البساطة».

وعلينا أيضاً أن نستشـهد برواية المسـافر فيما يتعلق بكيف كان يمضي أيامه، خلال فترة إقامته في المدينة: «كنا نسـتيقظ مع الفجر، نغتسل ونصلّي ثم نتناول فطورنا الذي كان عبـارة عن كسـرة خبز قديم، قبل تدخين الغليون واحتسـاء فنجـان من القهوة. ثم يحيـن موعد ارتـداء اللباس والانطلاق لزيارة الحرم في أحد المواقع المقدسـة خارج المدينة. وبعد عودتنا قبل أن تشتد حرارة الشمس، نجلس سوية، ونتجاذب الأحاديث،

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وندخّن النرجيلة (الشّيشة) Shishas وغليون الشُّبُق Chibougue، ونشرب القهوة والماء البارد المعطرين بأريج المصطكاء mastic-smoke، وننتظر الوقت حتى يحين وقت وجبة الضُّحى ariston، وهو غداء مبكر يكون عند الساعة الحادية عشرة صباحاً. كانت هذه الوجبة تقدّم في المجلس على طبق نحاسي كبير، يُرسل من الشقق العلوية. ومع الهتاف بـ«بسم الله» - وهي عبارة التشريف عند المسلمين - نجلس حولها، ونغمس أيدينا سوية بالأطباق الموضوعة أمامنا. كنا نحصل عادة على خبز غير مخمّر، وأنواع من اللحوم والخضراوات المطهوة بطرق مختلفة، وفي نهاية الوجبة الأولى أرز مسلوق بمفرده، يُؤكل بالملاعق؛ ثم تأتي الفاكهة والتّمر الطازج والأعناب والرُّمّان.

بعد الغداء اعتدت دائماً على تقديم عذر - مثل عادة الحصول على «قيلولة» (النوم قليلاً في منتصف النهار)، أو بسبب كوني «سوداوياً» بمزاج سيء، وذلك لأتمكن من افتراش بطانية في الممرّ المظلم، حيث أستلقي وأقرأ، وأغفو قليلاً أدخن أو أكتب، خلال كل الفترة السيئة من النهار، من الظهيرة وحتى غروب الشمس. وبعدها يحين وقت الاستقبال والقيام بالزيارات. يلي ذلك صلاة العشاء، إما في البيت أو في الحَرَم، يليها العشاء، وهي وجبة أساسية أخرى كالغداء، لكنها عامرة أكثر بالخبز واللحم والخضار والأرز والفاكهة. وفي المساء، كنا أحياناً نرتدي ملابسَ عادية، ونذهب إلى المقهى؛ وكنا أحياناً أخرى في المناسبات الاحتفالية ننعم بعشاء متأخر من الحلويات والرُّمّان والفواكه المجففة. كنا عادة نجلس على مراتب مفروشة على الأرض في الهواء الطلق عند باب الشيخ، ونستقبل الزيارات المسائية، ونتحدّث، ونروي القصص، ونمرح، حتى يغالب كلاً منا سلطانُ النعاس ليغوص في مكانه المناسب وينام».

افتتن بُرتون بالحديقة وواحات النخيل حول المدينة، واستمتع بالنزهات، التي كانت تُفرض عليه كونه حاجاً، إلى جبل أُحُد ومسجد قباء وأماكن أخرى مجاورة للمدينة. وصلت قافلة الحجّاج القادمة من دمشق في 28 أغسطس، وتحت وطأة خطر البدو، قرّروا المغادرة في اليوم الرابع، متخذين الطريق الصحراوي إلى مكّة، الذي

سافر عبره الخليفة هارون الرشيد وزوجه زبيدة، بدلاً من الطريق الأطول الممتدّ على الساحل، الذي كان قد سلكه بوركهارت. عندما أُعلن هذا المخطط، كان أمام بُرتون ورفاقه أربع وعشرون ساعة ليقوموا بالتحضيرات اللازمة؛ وكانوا جاهزين بسبب عملهم بجد. وعند مغادرتهم المدينة أسرعوا قدماً ليضمنوا حصولهم على أماكن جيدة بالقافلة، التي كانت مؤلفة من حوالي 7000 حاج، والممتدة على عدة أميال من الطريق.

في الأيام الأربعة الأولى سافروا جنوباً عبر بلاد مقفرة ومهجورة، خاليةً تقريباً من الماء والكلأ. بسبب الحرّ، وأيضاً للحماية بشكل أفضل، كانت الرحلة تنطلق بشكل أساسي ليلاً، على الرغم من كون المسير الاضطراري بين الآبار قد أجبرهم أحياناً على تحمل قيظ النهار. يقول بُرتون: - «أكاد لا أجد الكلمات المعبرة عن الرّعب المرهق للمسير الليلي الطويل، والتي تجعل المسافر المتعثر الحظ يستشيط غضباً، إذا كان أوروبياً، لخيبة أمله في «مشاهد البلاد»، حيث أُجبر على الجلوس فوق ظهر الجمل الزاحف. ونوم النهاركان أيضاً ضرباً من النُوام، وكان من المستحيل تماماً الاحتفاظ بالشهوة للطعام خلال ساعات القيظ».

بعد المسير مسافة تسعة وتسعين ميلاً من المدينة، وصلوا إلى قرية السّويرقية Swuayrkiyah، التي تقع ضمن إقليم مكّة. وهذه البلدة، المؤلفة من مئة بيت، مبنية على سفح وجانب كتلة بازلتية، ترتفع بشكل مفاجئ وسط سهل طيني. تحوّلت القمة إلى حصنٍ غشيم بسبب الساتر المؤلف من حجارة غير مشذّبة، مكومة فوق بعضها لتشكل متراساً. والجزء المنخفض من البلدة محمي بواسطة سور طيني مع الأبراج المألوفة نصف الدائرية.

يوجد في الداخل سوق، مزوّد بشكلٍ جيدٍ باللحم (لحم الغنم بشكل أساسي) من قبل البدو المجاورين، والحنطة والشّعير والتّمر تنمو قرب البلدة. هناك وصف مقتضب عن الشوارع الضيقة والبيوت الطينية، التي هي أساساً عربية. إن الحقول المحيطة مقسمة إلى قطع أراضٍ مربعة صغيرة بفواصل ترابية وأسوار حجرية؛ كما

نمت بعض أشجار النخيل على نحو ممتاز، وتبدو الآبار وافرة. الماء قريب من السطح ووفير، لكن طعمه كريه، وغدا غير مقبول مطلقاً بعد الاستعمال لعدة أيام، وكانت النتيجة ارتكاس الطعم الحديدي.

تقع قرية صفينة Sufaynah الصغيرة على بعد سبعة عشر ميلاً خلف السّوارقية[1]، وخلفها تعود البلاد مقفرة وخاوية. هكذا يصف بُرتون المشهد، اليوم التالي لمغادرته صفينة Sufaynah: «كان يوم المسير هذا عربياً بامتياز. كانت الصحراء مأهولة بالأصداء - مكان الموت لأنه من أيسر الأمور هناك أن تموت فيها - برّية، كما يقول أصحابي، لا يوجد بها شيء إلا روح (الله). إنها طبيعة، مسلوخة، مسلوبة، تكشف عن بنيتها لعين الناظر. كان الأفق بحراً من السّراب؛ وآكاماً رملية ضخمة تموج فوق الأرض المنبسطة؛ وعلى جانبي طريقنا كليهما توضعت أكوام من الصخور الضخمة الجرداء، تقف منفصلة عن وجه الرّمل والطين. بدت هنا على هيئة قطع بيضوية، تتجه نحو الأعلى بمظهر شبه منتظم؛ فهناك جلمود واحد واقف، وقد ارتكز أساسه الضيق على قاعدة منخفضة، صخرة لها شكل قبة. وكلها من حجر الصوّان الوردي الخشن، وتنفصل عنها قشور كبيرة تحت تأثير الجو».

وصلت القافلة بعد أربعة أيام أخرى من المسير الطويل، إلى محطة تسمى الزّريبة Zaribah، حيث توقف الحجّاج لمدة يوم ليباشروا بالإحرام، أو الزيّ الذي يلبسونه عند الاقتراب من مكّة. كانوا الآن في بلاد بدو عتيبة، وهي القبيلة الأكثر عنفاً وعدائية بين جميع القبائل على الطريق. وعلى الرغم من أن مدّة الرّحلة يومان فقط، أو خمسون ميلاً، تبعد عن مكّة، كان الحجّاج بالتأكيد غير آمنين، كما أثبتت الليلة التالية لمغادرتهم الزّريبة. فبينما كانوا يشقون بحذر طريقاً ضيقاً بين الصخور، عند الشفق، حدث إطلاق نار فجائي وسقطت بعض الجمال ميتة. لقد أمطر بدو عتيبة، المختبئون خلف الصخور التي تعتلي الطريق، الحجّاج برصاص متقطع، فأصيبوا بالذعر ووقعوا في اضطراب كبير. لكن الوهابيين بدؤوا بتسلق الصخور، وللتوّ أجلوا الغزاة من

(1) هكذا اللفظ الصحيح لاسمها، ولو أن اسمها العامي الشائع بالتصغير هو: السويرقيّة.

مكامنهـم. وأسـرعت القافلة إلى الأمام باضطـراب كبير، مخلفةً الأمـوات والجرحى بحالة سيئة ممدّدين على الأرض.

يقول بُرتون: «عندما بدأت المناوشـات لقّمت مسدسـي، وجلسـت معهم مستعداً لاسـتخدامه. وللتـو رأينا أنه لا يوجد شـيء يمكن فعله، وأملاً بتـرك بصمة - لا يوجد أي مكان ليهوي فيه بوعبديل[1] Bobadil الآن سوى الشرق - صحتُ أطلب عشائي. لبـث الشـيخ نور في مكانـه جامداً من الخوف، لـم يتمكن من الحـراك. هتف الصبي محمّد قائلاً فقط «سـيدي!» والناس من حولنا تعجبوا باشـمئزاز: «يـا الله! إنه يأكل!» أمّا الشيخ عبد الله، المكي، فكونه رجلاً صاحب معنويات عالية، أمتعه المشهد. «هل هذه عادة أفغانية، أفندم؟» استفسر من الشقدوف shugduf الذي خلفه. فأجبتُه بصوت عـالٍ: «نعـم، في بلادي نحن دائمـاً نتغدّى قبـل مهاجمة اللصوص، لأن ذاك الشـرف يكمن في عادة إرسال الرجال إلى النوم دون عشاء». ضحك الشيخ بصوت عالٍ، لكن هؤلاء المحيطين به بدوا منزعجين».

فـي صباح اليـوم التالي لهذه المغامرة، بلغ الحجّـاج وادي ليمون، إنها بقعة جميلة مـن الحدائـق وبسـاتين الفاكهة، تبعد عن مكّـة 24 ميلاً فقط. توقفوا هنا أربع سـاعات ليرتاحوا، وليسـتمتعوا بالفاكهة والماء العذب؛ ثم تابعوا خط مسـيرهم باتجاه المدينة الشـريفة. بعـد الظهر، أصبحت سلاسـل جبال القـرى، الواقعة في الجنوب الشـرقي، واضحـةً للعيان، ونظراً لاقتراب المسـاء كانـت العيون كلها مترقبـةً لرؤية مكّة، ولكن عبثاً. هبط الليل، وتقدم المسافرون ببطء في الظلام. عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليـل، صيحة عامة من القافلة أيقظت بُرتون. «مكّة! مكّة!» صاحت بعض الأصوات؛ «الحَـرَم، إنه الحَـرَم!» هتف آخـرون، ولكن الجميـع انفجروا بصيحة عاليـة «لبّيك!» متقطعـة تتخللهـا تنهـدات. عندمـا نظر خـارج مَحْمَلـه، رأى المسـافر بضـوء النجوم الجنوبيـة الحدودَ المعتمـة للمدينة الكبيـرة. كانوا يعبرون فوق آخر سلسـلة صخرية،

(1) هكذا تسمية شاعت على علي بن الحسن، أبي عبد الله الصغير، آخر ملوك الطوائف في الأندلس وحاكم غرناطة التي سقطت عام 1492 على يدي ملكي قشتالة وأراغون فرناندو وإيزابيلا.

المقطوعة صناعياً. أمّا الطريق المنعطف فقد أحيط على جانبيه بأبراج مراقبة عالية؛ وعلى بعد مسافة قصيرة، دخلوا الضاحية الشمالية.

بادر الفتى المكي محمّد، الذي كان يرافق بُرتون خلال الحج، إلى أخذه إلى منزل والدته، حيث بقي طوال إقامته. أُعدّت عند وصولهما ليلاً وجبة من الشعيرية والسكر، وبعد نومهم ساعة أو ساعتين نهضوا عند الفجر، ليقوموا بشعائر الوصول. وبعد أن اغتسلوا ساروا بثياب الحج إلى بيت الله.

«هناك»، يقول بُرتون، «هناك أخيراً حيث يقع، عناء رحلتي الطويلة والمرهقة للحج، تحققت أهداف وآمال سنوات طويلة جداً. طوّق وهم السّراب النعش الكبير وظلمته الكئيبة بسحر خاص. ليس هناك بقايا لأبنية قديمة كما في مصر، ولا يوجد بقايا لأشياء جميلة ومتناغمة كما في اليونان وإيطاليا، وليس هناك إسراف في التجميل كما في أبنية الهند؛ لكن المنظر كان غريباً وفريداً وكم هي قلّة التي قد نظرت إلى المقام الشهير! ولعلي أصدق القول، إن كل العبّاد الذين تعلقوا بالستارة، أو الذين ضغطوا بالحجارة على قلوبهم النابضة، إن أياً منهم لم يشعر للحظة بعواطف أعمق من ذلك الحاجّ القادم من أقصى الشمال. وكأنّ الملاحم الشعرية العربية قالت الحقيقة، وأن أجنحة الملائكة المرفرفة، وليس نسائم الصباح العذبة، هي التي أثارت وحركت الغطاء الأسود للمقام. لكن، لأعترف بالحقيقة الوضيعة، فقد كان تأثرهم نابعاً من شعور عالٍ بالعاطفة الدينية، بينما كانت نشوتي أنا نابعة من إشباع الغرور».

إن وصف بُرتون لبيت الله والكعبة كان أكثر تفصيلاً ودقة من بوركهارت، لكنه لا يختلف عنه في الحيثيات المهمة. كما ليس من الضروري اقتباس وصفه للشعائر التي قام بها كلّ حاج على حدة، مع كل آلية السّجود والتكرار. ولكن وصفه لزيارة الحجر الأسود كان دقيقاً وممتعاً: «وقفت لوقت طويل أنظر بيأس إلى الجماهير المحتشدة من البدو وغيرهم من الحجّاج الذين يحاصرونه. لكن الصبي محمّداً كان أهلاً للمناسبة. فكان قد أظهر طوال طوافنا حماساً محموماً ضد البدع والانشقاق، بالإيذاء القاسي لكل فارسي يقع في طريقه؛ والمقدمات التي في غير محلها من الكلمات المتطرفة في

صلواتهـم التي جعلت من الأخيـر خليطاً patchwork غريباً. فمثـلاً، يمكن أن يكرّر: «أسـتعيذ بك من الخزي في هذا العالـم»، ويمكن أن توجه الشتائم لبعض الخراسانيين ذوي اللحى الطويلة[1].

وكان يتابع على هذا النّحو لدرجة إنني دهشـت أنه لم يعمد إلى الالتفات وتمزيقه. وبعد مخاطبة الحجّاج عبثاً، الذين لا يُرى منهم سوى موزاييك من مؤخرات روؤسهم ومناكبهـم، جمـع الصبي محمّد نصف دسـتة من أشـدّاء مكّـة، وتمكّنا بمسـاعدتهم، بمحض القوة، من أن نحشـرَ أنفسنا ونشـقَ طريقنا عبر الحشود ذوي الأرجل النّحيلة. التفـت إلينـا البـدو مثل الهـررة البريـة wildcats، لكن لـم يكن لديهـم خناجر. ولأن الفصـلَ كان خريفـاً، فإنهم لم يكونوا متخمين بالحليب سـتة أشـهر؛ وقـد غدوا كنوع مـن المومياوات الحيّـة، حتى إنني أسـتطيع أن أعادل يداً واحدة بنصـف حزمة منهم. وهكـذا وصلنـا إلى الحجر، وعلى الرّغـم من النقمة العامة، المجسـدة بصيحات نفاد الصبر، فإننا احتكرناه مدة عشر دقائق على الأقل. في حين تقبيله وفرك اليدين والجباه به لاحظته بدقة، وابتعدت مقتنعاً أنه حجر أروليت aerolite كبير».

خرج الحجّاج إلى جبل عرفات في الثاني عشـر من شـهر سـبتمبر. وعلى بعد ثلاثة أميال من مكّة تقع قرية كبيرة تسـمى مِنى، تشـتهر بمعجزات ثلاث: فالحصيّات، الذي تُرمـى هنـاك علـى إبليس، تعـود بقوة ملائكيـة من حيث أتـت؛ وخلال ثلاثـة أيام من تجفيف اللحوم لا تسـتطيع الطيور المفترسة والحيوانات الافتراس هناك، والذباب لا يقف على أنواع الأطعمة المعروضة في الأسـواق. وخلف هذا المكان يوجد مسـجد يسـمى الخيف el khayf، حيث، وحسب بعض المعتقدات، دُفن آدم، رأسُه عند نهاية جدار طويل وقدماه عند الآخر، بينما بنيت القبة فوق سرته.

«عرفـات» يقـول بُرتون، «يقع على مسير سـت سـاعات أو اثني عشـر ميـلاً، على طريـق الطائف، شـرقي مكّـة. وصلنا هناك بزمن قصيـر، لكن جمالنـا المنهكة، خلال الثلـث الأخير من الطريق، كانت تلقي بأنفسـها مراراً على الأرض. والبشـر عانوا أكثر

(1) يذكر بُرتون هنا بعض الشتائم الفادحة، التي حذفناها لعدم ملاءمتها.

مـن ذلـك. وبين مِنى وعرفات رأيت ما لا يقل عن خمسـة رجال يقعون ويموتون على الطريق؛ مرهقين ومتهالكين، ماطلوا أنفسـهم ليسـلموا الروح حيث تغادر إلى سـعادة فورية. يظهر المشـهد كيف من السهل الموت في هذه البقاع؛ كل شخص يترنح فجأة، ويسـقط وكأنمـا أطلقت عليه النّار، وبعد تشـنّج مختصر، يتمدّد سـاكناً كتمثال. كانت الجثث تُرفع بحذر، وتُدفن بلا مبالاة في ذاك المسـاء ذاته، في مكان خاوٍ بين الحشـود المعسكرة على سفح عرفات.

لاشيء يشبه روعة المشهد أكثر من منظر الجبل والقمم الزرقاء خلفه، والمعسكرات الواسـعة المتبعثرة على السـفح الأصفر القاحل في الأسفل. يقع في الشمال المعسكر المـوزع بانتظام، وهـو خاص بالحـراس الذين يقومـون بالدفاع عن الحجّـاج العُزّل. باتجـاه الشـرق كان معسـكر الشـريف ذو المحامل السـاطعة والعقد اللامعـة للخيمة الكبيـرة؛ بينمـا، وفي الجهة الجنوبية والغربية، احتشـدت خيام العامة، المرتبة بشـكل دائـرة لحصر الماشـية. بعد حسـابات كثيرة، قدّرتُ العدد بأنـه لا يقل عن 50,000 من جميع الأعمار والأجناس».

بعد الخطبة على عرفات، التي وصفها بُرتون كما ورد عند بوركهارت، لكن السابق أولى أهمية للشـعيرة التالية والتي هي «رجم إبليس» قرب قرية مِنى: «الشيطان الكبير» وهو نتوء قزم لنحت حجري بدائي، ارتفاعه حوالي ثمانية أقدام وعرضه قدمان ونصف، موضـوع مقابل سـور حجري خشـن، عنـد المدخل المكـي إلى منى. وبما أن شـعائر «الرَّجم» من الواجب أن تنفذ في اليوم الأول من الحج بين شـروق الشـمس وغروبها، ولأن الشـيطان لـه من المكر مـا جعله يظهر في الطريـق الوعر، فقد جعل الحشـد من المكان موضعاً خطيراً. وعلى أحد جانبي الطريق، الذي لا يبلغ عرضه الأربعين قدماً، يوجـد صف مـن المحلات العائدة بشـكل أساسـي للحلاقين. وعلـى الجانب الآخر يوجـد السّـور المتين للنصـب التـذكاري pillar، مع فارس بدوي وطفـل عارٍ. عجَّت المسـافة الضيقـة بالحجّاج، وأخذ الجميـع يقاومون كالغرقى للاقتـراب قدر الإمكان إلـى إبليـس - ولعله كان من السـهل الجري فـوق رؤوس الجماهير المحتشـدة. كان

بينهم فرسـان على جياد مرتفعة. كان البدو على الإبـل، والنبلاء على البغال والحمير، والمتخطون، كانوا يقتحمون الطريق بالتدافع والضرب.

كنت قد قرأت التهنئة الذاتية لعلي باي[1] عند نجاته من هذا المكان «بجرحين فقط في سـاقه اليسـرى»، وكنت قد زوَّدت نفسـي وقتها بخنجر مخبأ. لم تكن الاحتياطات عديمة الجدوى، ونادراً ما حشرت حماري بين الحشود إلا عندما كانت تطيح به الإبل، وكنت أجد نفسـي تحت سـحق وهدير معدات الدواب. تجنّبت أن أُداس بالاستعمال الحكيـم للمديـة،، ولـم أضيع وقتاً فـي الهروب من مـكان خطير جداً. وأخيـراً عندما وجـدت مخرجاً، اقتربنا إلى داخل حوالي خمسـة مكعبات مـن المكان، وحاملين كل حجر بين الإبهام والسبابة من اليد اليسرى، وأخذنا نرميه على النصب، مردّدين: «بسم الله، الله أكبر، نويت أن أرمي إبليس وأغضبه». وبعد إلقاء الحجر السابع، كنا نتراجع، وندخـل إلى أماكـن الحلاقة، ونأخـذ أماكننا على مقاعد شـرقية حولهـا. حان الوقت للتحلـل من الإحرام أو زيّ الحج، والعودة إلى الإحلال، الحالة العادية في الإسـلام. قام الحلاق بحلاقة رؤوسنا وبعد تشذيب لحانا وقص أظافرنا طلب إلينا ترديد العبارة: «نويت التحلل من إحرامي حسـب سـنّة الرسـول، صلوات الله وسـلامه عليه، يا الله، اجعل لي بكل شـعر نوراً وطهراً وثواباً عظيماً! بسـم الله، والله أكبر!» عند انتهاء عمله كان الحلاق يخاطبنا قائلاً: «نعيماً» وكنا نردّ على ذلك: «الله ينعم عليك!».

وسنستخلص هذه المقاطع من وصف بُرتون للخطبة في مسجد مكّة الكبير:

«بعد العودة إلى المدينة من تقديم الأضاحي في وادي مِنى اغتسلنا، وعندما اقترب الظهـر عدنا إلـى الحرم لسـماع الخطبة. بالنزول إلـى الحجرات التي هـي تحت باب الزيـادة Bab el-Ziyadah، وقفـت مذهـولاً بالمشـهد الماثـل أمامي. كانت السـاحة

(1) يقصد الرّحالة الإسباني الملقب باسم: علي باي العبّاسي Ali Bey، واسمه الحقيقي: دومينغو باديا إي ليبليخ (1767-1818) Domingo Badía y Leblich وأصله قطلاني من برثلونة (هكذا تسمى، أما برشلونة فنطقها بالإيطاليّة)، قام برحلة شهيرة إلى المشرق زار فيها العديد من البلدان العربيّة بين 1803-1817. وكانت وفاته مقتولاً بدمشق لا كتشاف أمره، وكان يتنكّر بصفة شريف من آل العبّاس.

الرباعية الواسعة مزدحمةً بالعباد المصطفين بصفوف طويلة، وجميع الجهات تواجه البرج الأسود في الوسط: الألوان المدهشة لملابسهم كانت تتفوق على حديقة بأبهى الزهور، وهذا التنوع في التفاصيل لا يمكن يرى مجتمعاً مع بعضه في أي بناء آخر على وجه الأرض. جلست النساء مجموعة كئيبة ومظلمة، في مكان خاص بهن، بينما وقف الپاشا على قمة زمزم، محاطاً بالحراس في زي النظام. عندما اتخذ العلماء ulema أماكنهم كان الحشد أكثرَ كثافة؛ وفي البقاع الميمونة أكثر لا شيء يرى سوى رصيف من الرؤوس والأكتاف. ليس هناك شيء يتحرّك باستثناء بعض الدراويش الذين يحملون المباخر في أيديهم ويمشون بمحاذاة الصفوف ويأخذون الصدقات الطوعية من المؤمنين. وفي الوسط بشكل جلي، وقد ارتفع فوق الجموع على منبر طويل وواضح وقد التمعت ذروته تحت الشمس، جلس الخطيب وهو رجل مسنّ ذو لحية بيضاء كالثلج، وثمّة غطاء للرأس يسمى «طيلسان» taylasan يغطّي عمامته، وكان بلون أبيض كلون ثوبه، فيما كانت تستند يده اليسرى إلى عصا قصيرة. نهض الآن، وأمسك بعصاه في يده اليمنى، ولفظ بعض كلمات غير مسموعة، وجلس مرة أخرى على درجة أخفض، بينما كان المؤذّن، في أسفل المنبر، يردّد النداء للخطبة. ثم وقف الرجل المسنّ وبدأ بالخطبة. وعندما بدأت مظاهر الخشوع تفرض نفسها خيَّم صمت مطبق. وبعد قليل سُمعت كلمة «آمين» تُنغّم من قبل الجموع في نهاية جملة طويلة. وأخيراً، في نهاية الخطبة، كل ثلاث أو أربع كلمات كانت تتبع بآلاف الأصوات المتزامنة ارتفاعاً وانخفاضاً.

«لقد رأيت الشعائر الدينية في بلاد كثيرة، لكن لم تكن في أي مكان بهذا الخشوع قط، وهي غير مؤثرة بقدر هذا المشهد».

وحينما وجد أنه من المستحيل بالنسبة له متابعة الرحلة إلى وسط جزيرة العرب، نظراً لضيق الوقت وأيضاً للسلوك الخطر لقبائل الصحراء، غادر بُرتون مكّة متجهاً إلى جدّة في أواخر سبتمبر. انطلق بعد الظهر، ووصلت قافلة الحجّاج العائدة، حوالي منتصف الليل، إلى تجمع لأكواخ يسمّى الهَدى El Hadda، التي تكون عادة موقعاً

للتوقف في منتصف الطريق. وهي مخصصة تحديداً لتزويد المسافرين بالقهوة والماء. وهنا تنحدر الأراضي تدريجياً باتجاه البحر، وتتراجع الهضاب، وتدل كل المظاهر على مغادرة أرض مكّة الهضبية. بعد الوصول إلى هنا، وفي بعض المقاهي المنعزلة بعيداً عن الطريق، وصل الحجّاج إلى جدّة بأمان عند الساعة الثامنة صباحاً.

ومن هذا المكان شق بُرتون طريقه على متن باخرة إلى السويس، وعاد إلى القاهرة، لكن دون الصبي المكي، محمّد، الذي بدأ تساوره الشكوك حول حقيقة شخصيته، بعد أن رآه بصحبة بعض الضباط الإنكليز، والذي غادره قبل أن يبحر.

* * *



صورة 7: مخيّم الحجيج عند جبل عرفات

الفصل الثامن

رحلات پالغريف في أواسط جزيرة العرب
من فلسطين إلى الجوف

قام السيد وليَم غيفورد پالغريف، ابن السيد فرانسيس پالغريف، خلال الفترة ما بين عامي 1862-1863، برحلة إلى جزيرة العرب، ورحلته هذه قد قدّمت لنا أول وصف واضح وكامل لداخل البلاد، بما فيها دولة الوهابيين الكبيرة في نجد، الموطن الأصلي للشعر العربي وأيضاً الخيول العربية الشهيرة. إن مؤهلات السيد پالغريف في تحمّل المسؤولية كانت في بعض جوانبها تتفوق على تلك التي يملكها بوركهارت وبُرتون. وإضافة إلى الثقافة العامة الرفيعة المستوى والأسلوب القوي والتصويري للكاتب، فقد أضاف المعرفة باللغة العربية والأدب العربي لدرجة توازي معرفة أيّ عالم من الموطن الأصلي: كان يتكلم اللغة كما يتكلم لغته الأم؛ وكانت ملامحه شرقية بما فيه الكفاية لتمنع عنه الشبهات، وإن السنوات التي أمضاها في الشرق قد جعلته يألف تماماً عادات الناس، حتى آداب التعامل الصغيرة التي نادراً ما يكتسبها الأجانب. لذلك فإن سرده مدهش ومرضٍ إذ أنه جاب ميادين جديدة وساحرة. بالتأكيد إنه يلقي الضوء وبشكل غير مباشر على تجارب سابقيه جميعهم، كما أنه أغنى بكثير من حيث الشرح عن حياة العرب وصفاتهم، لدرجة أنه لا يمكن لتلخيص موجز لمحتواه أن يُنصف أهميته.

في المرحلة الأولى من الرحلة، من غزّة على البحر المتوسط إلى بلدة معان الصغيرة،

الواقعة على طريق القوافل من دمشق إلى مكّة، تبعد قليلاً باتجاه الشمال الشرقي من البتراء، وهكذا فهي تقع تقريباً على حدود مؤاب وأدوم، لم يقدّم لنا پالغريف وصفاً حولها. لكن، على الرغم من أن المسافة التي تم عبورها قصيرة نسبياً، فلا بدّ أنها كانت مُجهدة وخطيرة. يبدأ وصفه بالتالي، عند مغادرته معان:

«دعونا بادئ ذي بدء نحاول أن نحصل على معرفة صحيحة كلية وشاملة عن شبه جزيرة العرب. تعرفنا مسبقاً بشكل جيد على سواحلها؛ والعديد من أقاليمها البحرية، وإن لم يكن بشكل كامل، قد تم اكتشافها على الأقل بشكل كافٍ؛ واليمن والحجاز، ومكّة والمدينة، لم تعد مجهولة بالنسبة لنا، ونحن لا نملك معلوماتٍ عن مناطق حضرموت وعمان. ولكن المنطقة الداخلية الواسعة، بسهولها وجبالها، بقبائلها ومدنها، بحكوماتها وقوانينها، بسكانها، عاداتهم وأعرافهم، وأحوالهم الاجتماعية، مدى تطورهم وتحضرهم أو غرقهم في الهمجية، ماذا نعرف عن كل ذلك حتى الآن، باستثناء بعض الشرح الضروري الذي تنقصه الكلية والدقة؟ لقد حان الوقت لسدّ هذه الفجوة على خارطة آسيا، وهذا، مهما كلّف الأمر، ما سنحاول القيام به الآن؛ إما ستكون الأرض التي أمامنا قبوراً لنا، أوسنقوم باجتيازها بعرضها الكامل، ونعرف ما تضمه من الشاطئ إلى الشاطئ *Vestigia nulla retrorsum*».

«هذا ما فكرت به، وهذا، بشكل أو بآخر ما اعتقدت، أنه كان يساور أصحابي، عندما وجدنا أنفسنا وقد هبط الليل دون البوابة الشرقية لمعان، بينما كان العرب، مرشدونا وصحبتنا في السفر، ملؤوا قِرَب الماء من جدول ماء شحيح قرب سور البلدة، وقوّموا أسرجة وحمولات إبلهم، تحضيراً لرحلتهم الطويلة القابعة أمامنا وأمامهم. كان ذلك مساء السادس عشر من يونيو 1862؛ كانت النجوم الأكبر واضحةً في أعماق السماء الزرقاء الصافية، بينما كان الهلال، في أعلى الغرب، واضحاً يتألق في السماء، ويعدنا بتقديم المساعدة بضع ساعات خلال مسيرنا الليلي. امتطينا صهوات حيواناتنا الضئيلة طويلة الأعناق للتو، «وكأننا»، حسب تعبير شاعر عربي، «كنا ورجالنا على رأس صارية» we and our men were at mast-heads، والآن غدت وجهتنا نحو الشرق.

وخلفنـا، فـي كتلة من الظلام، تقع أسـوار قلعة معـان، وبيوتها وحدائقهـا، وأبعد منها سلاسـل جبال الشراة العالية المقفرة، المتاخمة لسلسلة الحجاز الساحلية. امتد أمامنا وحولنا سهل عريض ومستوٍ، جعلت حجارة البازلت والصوان من سطحه مسودّاً وقد انتشـرت فوقـه بأعداد هائلة، باسـتثناء البقع التي تخللها وميض إشـعاع القمر الأبيض المنعكـس علـى الرّمال الصافية، أو على الخيوط المصفرّة للعشـب الذابل، الذي كان الناتـج الهزيل لأمطار الشـتاء، والذي جف ليتحول إلى قـش الآن. خيّم صمت مطبق بشـكل كامل، حتى إن أصدقاءنا العرب بدوا خائفين من كسـره؛ عندما كانوا يتكلمون كان حديثهـم شـبه همـسٍ وكان مقتضباً، بينما أسـرعت خطوات إبلنا الصامتة خلسـة ومسرعة في الظلام، دونَ أن تقلق سكونه.

«لم تكن بعض الاحتياطات خارج الحسبان بالتأكيد، لأن تلك المرحلة من رحلتنا التـي كنـا ندخلها الآن يمكن أن تكون أي شـيء آخـر عدا عن أنها آمنـة. كنا نتجه نحو الجـوف، أقرب منطقة مأهولة في وسـط الجزيرة، أو لنقل مركزهـا البعيد. الآن البقعة المعترضـة في معظم أجزائهـا تضاعف مخاطر اللصوص والعطش، بسـبب عصابات النهب وفصل الصيف. كانت المسـافة الواجـب اجتيازها تقارب مئتي ميل في الطريق المستقيم، والظروف المحتومة كان من المحتمل أن تجعل المسافة أطول من ذلك».

كان صديق پالغريڤ سورياً أصلياً، اسمه بركات - رجل كان من الممكن الاعتماد عليه كلياً. كان جريئاً وفتياً ومقداماً، وهو ينتمي إلى منطقة اعتاد سكانها على المخاطر. لكـن البـدو الذيـن قاموا بسـرج الإبل، وعملوا مرشـدين لنـا، كانوا ينتمـون إلى طبقة أخرى. وكان عددهم ثلاثة: سـليم، قائدهم وفرد من أسـرة كبيرة من قبيلة الحويطات Howeytat، لكنه محروم من حماية القانون بسـبب السـلب والقتل، ورجلان آخران، علـي وجـردي، همجيـان تماماً فـي المظهر كما في الشـخصية. حتى إن سـليماً نصح المسافرين بتجنّب رفع الكلفة معهما.

يقـول پالغريـڤ: «كنـت وصديقي نرتـدي الملابس الاعتيادية في سـوريا؛ وسـيلة بواسـطتها كنا قد عبرنا من غزة على السـاحل حتى معان دون أي شـكوك أو أسئلة غير

ملائمـة مـن أولئك الذين كنا نلتقي بهـم، بينما عبرنا البلاد التي وصفها مسـبقاً كل من بوكوك Pococke، ولابورد Laborde، نزولاً، المسماة بترا *Petraea*، التي كان إعطاء أي وصف عنها خارجاً عن مهمتي الحالية. فكان لباسنا يتألف جزئياً من قميص عريض وطويـل من القنّب المصري، وتحته، خلافاً للبدو أصدقاؤنا في السـفر، حظينا برفاهية ارتداء ملابس قطنية داخلية فضفاضة شائعة في الشرق، بينما كانت أغطية رؤوسنا، على الرغم من بسـاطتها، مطوقـة بالعقال أو حزام الرأس من باب بعـض الأناقة؛ والأحذية الحمراء الجلدية العريضة الخاصة بتلك البلاد أكملت هندامنا.

«ولكـن فـي أمتعتنا الموجـودة على طرفي الجمـال كانت توجد بـزّات ذات مظهر أكثـر أناقة، أخفيت بعنايـة عن أنظار البدو، وكان من المفتـرض إخراجها عند وصولنا إلى مناطق مأهولة بشـكل أفضل وأكثر تحضراً. كان اللباس البديل يتألف من الأشـياء التاليـة: أثواب خارجية ملونة، الزي السّـوري (قنباز)، أغطيـة رأس ذات أقلام حريرية تتخلـل القطن الشـائع، وأحزمـة مصنوعة من مواد جيـدة ذات ألوان تدل على حسـن الذوق؛ تلك الثياب ضرورية جداً للمحافظة على شخصيتنا المزعومة. إنني كنت ذلك الطبيب المحلي المسـافر، الدجال إن أردتم؛ وبناء على ذلك كان اللباس المقبول أمراً لا مفر منه لسـمعتي كممارس لمهنة الطب. أمّا صديقي، الذي كان وبشـكل عام يُقدّم على أنه أخو زوجتي، فقد ظهر أحياناً على أنه تاجر تجزئة، وهكذا فإنه كان يتردّد على هذه البلاد بشكل نظامي، وأحياناً أخرى على أنه طالـب أو مرافق لمهنتي المزعومة.

«كانت مجموعة الأدوية اتي معنا تتألف من القليل ولكن المنتقى بعناية من العقاقير الفعالـة، كانت مغلفة ضمـن علب معدنية ملائمة، رُتبت في الوقـت الحاضر بعيداً في مكان واسـع في أعماق أمتعة السـفر الخاصة بنا؛ حوالي نصف هذه العلب كافية لقتل أو شـفاء نصف عـدد المرضى في جزيـرة العرب. والأدوية السـائلة تـم أهمالها بقدر المسـتطاع، ليس من ناحية صعوبة ضمان نقلها بأمان وسـط وعورة ترحالنا فحسـب، إنما أيضاً بسبب حتمية تبخرها السريع في هذا المناخ الجاف والحارق. في الواقع ثمّة قارورتان أو ثلاثاً صغيرة، وجدت أن محتوياتها ضرورية جداً، لم يبق منها شيء سوى

لصاقة محتوياتها لتدلّ على ما كان يوجد بداخلها، على الرغم من سداداتها المحكمة وتغليفها الثنائي. أذكر هذا، لأن هذه الملاحظة يمكن أن تكون ذات فائدة لأي شخص يرغب أن يباشر المظهر مماثلاً في مغامرات مشابهة.

«أشياء ضرورية أخرى في مهنة الطب، كتابان أو ثلاثة أوروبية لاستعمالي الشخصي، خُبّئت بعناية وسرّية بعيداً عن فضول العرب، وبعض الأبحاث الطبيّة esculapian بلغة عربية جيدة، كان الغرض منها التفاخر المهني، لإتمام تجهيزاتنا. إضافة إلى هذا، الكثير من المناديل، والقلادات الزجاجية، والغلايين، وماشابه ذلك، وذلك لبيعها في المناطق التي يمكن ألا تقدم التسهيلات المناسبة لفن المداواة، ملأت خروج الأسرجة تقريباً لحد الانفجار. وأخيراً، وليس آخراً، هناك كيسان كبيران من البنّ، التي كانت طوق نجاتنا والأمل الرئيس لتجارتنا، شكّلت وحدها حملاً ثقيلاً لبعير هزيل».

كانت الأيام الأولى للسفر رتيبة من الحرارة والإقفار. وكانت البحيرات المخادعة تغطّي بفعل السّراب الأراضي الصفراء، وكل كتلة بازلتية سوداء، مترامية هنا وهناك غطت بعشوائية، تضخمت لتبدو كجبل تحت تأثير الجو الحار.

«أرض كئيبة كالموت، حتى إن وجه العدو فيها يشكل راحةً إلى حد ما وسط هذه العزلة التامة. لكن ولخمسة أيام كاملة كانت المخلوقات الحية التي تؤنس نظرنا فقط، السحلية المتجففة على الأراضي المنبسطة، التي تبدو وكأنها لا تملك ولا نقطة من الرطوبة في جسدها الكريه، والجربوع، أو جرذ الحقول.

«خلال ذاك المسير يمكن أن نكون قد ندمنا تقريباً على مشروعنا هذا، ومثل هذا الشعور لم يعد الآن ممكناً أو مجدياً. وجدنا أنفسنا يوماً بعد يوم نحث جمالنا على السير بأقصى سرعتها مدة خمس عشرة أو ست عشرة ساعة على نحو متواصل خلال الأربع وعشرين ساعة، تحت الشمس الأفقية القريبة جداً، التي كان من المعقول أن يُعذر أثيوبيو هيرودوتس للعنها، ولم يوجد أي شيء لا في المنظر المحيط بنا ولا في رفاق دربنا ليرتاح البصر أو اللب عنده للحظة. ثم محطة غير مناسبة لا للراحة ولا

للنوم، لأكثر من ساعتين أو ثلاثة، للتو قاطعنا التحذير المتكرّر دوماً: «إذا تلكأنا هنا فسنموت عطشاً»، المسموع في آذاننا؛ ثم لنعود ونمتطي أباعرنا المنهكة وندفعها للسير في ظلمات الليل، وسط الاحتمال الثابت للهجوم والنهب من اللصوص المتجولين. بالنسبة لي، لأصلح الحال، كنت تحت التأثير المحبط لحمى الترّتان **tertian fever** التي التقطتها من معان، وبين الضجر وانخفاض الروح، بدأت أتخيّل بجدية أنه لا يوجد لدينا ماء إلا ماء الموت والماء الذي نسيه أصدقاؤنا. انقضت الأيام كحلم هذياني، حتى إننا غالباً ما كنا شبه فاقدي الشعور بالأرض التي نطؤها وبالرحلة التي تورطنا بها. في أحد الأيام بدا عشب عند أقدامنا مبشّراً بتنوّع وحياة؛ كان نبات الحنظل الصحراوي الأكثر مراراً وسُمّاً.

«كان نظامنا على الطريق كالتالي: قبل الفجر بوقت طويل كنا ننطلق بطريقنا، ونتقدّم حتى تكون الشمس، وقد بلغت منتصف المسافة بين الأفق والذروة، أعلنت لحظة الترجل لتناول وجبة الصباح. وكان البدو معنا يحرصون دوماً على أن تكون هذه الوجبة في وطاءة أو أرض منخفضة، بهدف التخفي؛ في النواحي الأخرى كان لدينا خيار واسع في حرية الاختيار، من حيث بقعة من الحصى البازلتية وفيها القليل من الرّمل والعشب الذابل بينها كانت مثل بعضها؛ الظل أو الملجأ، أو أي شيء يشبهها، كان الأمر محسوماً تماماً في «أرض جرداء». ثم ترجلنا، وقمنا أنا وصديقي بتكديس أمتعتنا على شكل سور، لنشكل حاجزاً نصفياً من أشعة الشمس الحارقة، وهنا استلقينا لبعض الوقت. ثم بدأنا الإعدادات للطهي، بما يتلائم تماماً مع مؤننا، التي كانت بسيطة جداً؛ تحديداً هي كيس من الطحين الخشن المملح، وبضع تمرات جافة؛ لم يكن هناك نوع ثالث في قائمة الطعام. وللتو أخذنا بضع حفنات من الطحين، وعجنها أحد البدو بيديه غير المغسولتين أو بقطعة جلد متسخة، كان يصب عليها القليل من الماء القذر الموجود في أوعية الماء، ثم يربت على هذه العجينة المتقنة لتصبح كعكة كبيرة مدورة، بسماكة إنش تقريباً، وعرضها حوالي خمسة أو ستة إنشات. وفي أثناء ذلك كان آخر قد قام بإضرام النار من العشب الجاف، وجذور الحنظل، وروث الإبل

الجاف، حتى يحضر سـريراً من الجمر المتقد؛ وبين هذا أُلقيت الكعكة للتو، وغُطِّيت مباشرةً بالرّماد الساخن، وتُركت كذلك عدة دقائق، ثم أُخرجت منها، وقُلِّبت، وغُطيت مـرة أخرى، وأخيـراً أُخرجت الكعكة نصـف معجونة، ونصف نيئة، ونصف مشـوية، ومحروقة على مدارها، لتُقسـم بيـن العصبة الجائعة، وأُكلت سـاخنة وحارقة، قبل أن تبرد لتصبح مادةً جلديةً لا يمكن وصفها، قادرة على تحدّي الشـهية الأكثر تحمسـاً. و كان المتمّم الوحيد لها شربة ماء كدرٍ.

«انتهـت الوجبـة، كان علينـا دون مضيعـة للوقـت أن نتابـع طريقنا من سـراب إلى سـراب، حتى «تحت اللهيب الذي خيَّم على كل شـيء رويداً رويداً، من حرّ إلى حرّ، تناقـص اليوم»، وقبـل الغروب بحوالي السـاعة ترجّلنا عن إبلنا بأفضل شـكل يمكن، لنقوم بتحضير وليمة العشاء تماماً مثل تلك التي كانت في صدر النهار، وغالباً، وخشية أن تلفت نيراننا انتباه بعض المتجولين في البعيد، كنا نقنع أنفسنا ببعض التمر الجاف، واسـتراحة مـدة نصف سـاعة على الرّمـال. أخيراً، مثـل كيس خبز إيسـوپ Aesop's bread-sack، أو بَيهَـس Beyhas بنموذجـه العربـي الأصيـل، نفد التمـر الذي معنا؛ وعندها أصبح عشـاؤنا مثل عشـاء الجنود؛ المعروف تماماً من أصدقائي الجنود؛ لكن باسـتثناء الرّمـل والحصى، لم نكن نملك الأسـرّة بعـد، لنمتطي رواحلنـا كرّة أخرى، ونتابع سفرنا تحت ضوء القمر أو النجوم، حتى قبيل منتصف الليل استطعنا أن نترجّل فقط لنحصل على النوم الكافي للتعذيب، وليس للراحة».

«اليـوم 22 من يونيو، وهـو اليوم الخامس على مغادرتنا آبـار الوقبة Wokba. الماء في القِرَب لم يبقَ منه ليقدّم للعطشى سوى القليل من الثفل الطيني، ولا توجد أيّة دلالة بعـد على منهل عذب. أخيراً حوالي الظهيرة بلغنا علـى يميننا تقريباً بعض الروابي من الحصى الرّخو والحجارة الرّملية؛ تحدّث أصدقاؤنا البدو مع بعضهم قليلاً، ثم حوَّلوا طريقهم وطريقنا بذلك الاتجاه. «تشـبثوا بجمالكم، لأنها سـتجفل وتقفز»، هذا ماقاله سليم لنا. لماذا يجب أن تجفل الجمال هذا ما لم أفهمه؛ عند عبور الروابي المذكورة، فجأة وجدنا خمس أو سـت خيام سـوداء، فقيرة أكثر مما يمكن وصفه، استقرّت قرب

بعض الآبار المحفورة في التجويف الحجري في الأسفل. غدا السبب وراء تحذير سليم الوقائي جلياً الآن؛ لأن بعيرنا الساذجة عند رؤية الخيام، وكأنها لم تر مثلها من قبل، بدأت بالعدو حولها، تثب بصخب هنا وهناك، حتى إننا بين ارتجاجها (وذلك لأن الجمال تشبه الأبقار في جريها) وضحكاتنا، تدبّرنا البقاء على ظهورها بصعوبة. لكن العطش انتصر على الجبن، وكفّت عن تواثبها لتقترب من حافة البئر، وراحت تتنشق رائحة الماء في الأسفل».

أظهر قاطنو الخيام لنا الفضول الاعتيادي، لكنهم لم يكونوا غير ودودين، واستراحت القافلة الصغيرة هناك خلال الباقي من اليوم. رحلة أخرى مدة يومين فوق منطقة كثبان رملية، مع وجود بئر أحياناً، مازالت تعترض وصولهم إلى وادي السّرحان - وهو وادٍ طويل، يجري مباشرة باتجاه منطقة الجوف المأهولة. وبينما كانوا يعبرون هذه المنطقة المتوسطة، وقع حدث كان على وشك أن يضع نهايةً سريعة للرحلات والرحالة سوية. يقول پالغريف «قرائي الأعزاء، مثلي أنا تماماً، قد سمعتم أو قرأتم الكثير من القصص عن السّموم، أو رياح الصحراء المميتة، لكن بالنسبة لي لم أكن قد رأيتها قط بكامل قوتها؛ وبشكلها المعدّل، أو الشّلوق *shelook*، لاستخدام العبارة العربية، وهي، الرّياح الشرقية القادمة من البادية السّورية، على الرغم من كونها كريهة بما فيه الكفاية، فإنه يصعب تسميتها بالخطيرة. من هنا قد كنت ميالاً تقريباً لأن أدوّن القصص التي رويت عن الظاهرة الغريبة والآثار المميتة لهذه «النوبة المسمومة»، ضمن التصنيف ذاته للأعمدة الرّملية المتحركة، المسجلة في الكثير من الأعمال ذات الادّعاءات التاريخيّة الأكبر من[1] "Thalaba". حول هذه الأعمدة الدّرّاجة واختناق قوافل البدو، كانوا يضحكون للتوّ كلما استجوبتهم عن هذا الموضوع، وكانوا يصرّحون أنه بعد عاصفة رملية عرضية، مشابهة لتلك التي نادراً ما ينجو من اختبارها أيما شخص قد أمضى صيفاً في السِّند Scinde، لا شيء يتمتع بالرومانسية إلا ويحدث في جزيرة العرب.

(1) ترد دوماً لدى پالغريف تعابير غريبة غير مفهومة، يزيد من إبهامها سوء كتابته للكلمات العربية بحروف لاتينية.

لكنهم عندما يُسألون عن السّموم، فإنهم يتعاملون مع الموضوع بجدية أكبر، وهذا ما وجدناه حقيقياً.

«كان الوقت قرابة الظهر، الظهر في الصيف عند انقلاب الشمس في سماء الجزيرة الصافية فوق الصحراء اللاذعة، عندما بدأت عواصف رياح مفاجئة وحارقة بالهبوب متلاحقة من الجنوب، وكانت وطأة الريح تشتد في كل لحظة، حتى تساءلت وأصحابي فيما بيننا كل يسأل الآخر ماذا يمكن أن يعني هذا، وماذا ستكون نتائجه. التفتنا لنسأل سليماً، لكنه قد لثّم وجهه مسبقاً بغطاء، وانحنى مربتاً على جِيد ناقته، ولم ينبس ببنت شفة. كان صاحباه من بدو الشّرارات قد اتخذا الموقف ذاته، وكانا صامتين مثله. وأخيراً، بعد تكرار الاستجواب، وبدلاً من الإجابة المباشرة على تساؤلاتنا، أشار سليم إلى خيمة سوداء صغيرة، بعناية إلهية لم تكن بعيدة جداً نحو الأمام، وقال: «حاولوا الوصول إليها، إذا تمكنا من الوصول هناك نجونا». وأضاف: «احرصوا ألا تتوقف جمالكم ولا تجثو»؛ وعقب ذلك، بعد أن أعطى بضع صيحات مفعمة بالقوة، عاد إلى صمته الملثم.

«نظرنا بقلق نحو الخيمة؛ كانت لا تزال تبعد عنا مئة ياردة أو أكثر. في أثناء ذلك أصبحت العواصف أشدّ حرارة وعنفاً، وبجهود متواصلة فقط تمكنا من حثّ أباعرنا على التقدّم. وبسرعة أظلم الأفق حتى غدا بلون بنفسجي قاتم، وبدا وكأنه يهبط مثل ستارة تخيّم من كل جانب، وفي الوقت ذاته فُتحت للتوّ في طريقنا هبّة هوائية خانقة، وكأنها قادمة من فرن ضخم كانت تهبّ باستمرار تحت الظلام؛ وعلى الرغم من كل ما أمكننا فعله، فإن إبلنا أيضاً كانت تدور وتدور وتلوي ركبها، استعداداً لتستقر. كانت السّموم فوقنا تماماً.

«بالطبع قد تبعنا قدوتنا من العرب وقمنا بتلثيم وجوهنا، وأرغمنا الحيوانات المتمايلة للتو بالضرب والرفس للسير قدماً حتى الملجأ الوحيد الذي في متناولنا. كان الجو مظلماً، وكانت الحرارة حارقة، وبدت وكأن جهنم انبثقت من الأرض أو هبطت من السماء. ولكن ما زال لدينا بعض الوقت، وفي اللحظة التي بدأت فيها أسوأ

موجـة سُـمّية مركزة بالهبـوب، كنا قد انبطحنـا، كلنا جميعاً، داخل الخيمة، ورؤوسـنا ملفوفـة جيداً، تقريباً لحد الاختناق، ولكن في الواقع بشـكل آمـن؛ بينما كانت جمالنا مستلقية بلا حراك كالأموات، امتدت رقابها الطويلة خارجاً على الرّمال، بانتظار انتهاء العاصفة.

«عندمـا وصلنـا إلى الخيمـة أول مرة كانت فيهـا امرأة بدوية منفـردة، وكان زوجها بعيداً مع جماله في وادي السّـرحان. عندما رأت خمسـة رجال وسيمين مثلنا، هرعت فجأة إلى مسـكنها دون أي كلمة اسـتئذان أو ترحيب، وأطلقت صرخةً تعبر عن أربعة من قمم الدعاوي والجرائم والحرائق والسـرقات، ولا أعرف ماذا أيضاً. أسـرع سـليم ليطمئنها صارخاً، «أصدقاء»، ودون أي إضافات ألقى نفسه منبطحاً على الأرض. وقام الآخرون بالفعل عينه بصمت.

«بقينا كذلك عشـر دقائق تقريباً، خلالها كانت حرارة سـاكنة مثل تلك الصادرة عن حديـد محمّى تمرّ فوقنا هو كل ما أمكننا الشـعور به. ثم بـدأت جدران الخيمة ترفرف ثانية مع عودة العواصف، وأُعلن أن أسـوأ مرحلة في السّـموم قد انتهت. نهضنا نصف أمـوات من الإرهاق، وكشـفنا عن وجوهنا. بدا أصحابي أشـبه بجثـث أكثر من كونهم أحيـاء، وعلى ما أعتقد، كذلك كنت أنا. ولكـن نفذ صبري، وعلى الرغم من التحذير، خرجـتُ وألقيـت نظرة علـى الجمـال؛ كانت لا تـزال منبطحةً كمـا لو أنها قـد رُميت بالرّصاص. كان الجو لا يزال مسـوداً، ومضى وقت طويل قبل أن يعود ويشـرق بشكل مبهـر كالعادة. طوال الوقت الذي دامت فيه السّـموم، كان الجو خالياً تماماً من الرّمال والغبار، لذلك فمن الصعب علي أن أعرف كيف أحدّد ماهيّة غموضه الفريد».

«تابعنا طريقنا وفي وقت متأخر من المساء، ودخلنا وادي السّرحان في صباح اليوم التالي، حيث طرأ على نمط رحلتنا تعديل ملحوظ. فالصحراء الشمالية للجزيرة العربية، التـي نعبرها الآن، تقـدّم على الرغم من جفافهـا بعض البقع ذات مظهر أفضل نسـبياً، حيث الماء أقلّ اتسـاخاً والنباتات أقل شـحاً. هذه البقع هي أحبّ المنتجعات بالنسـبة للبـدو، وهـي تعمل أيضاً على تحديد وجهة الطرق العادية لجميع المسـافرين، سـواء

للتجـارة أو لأسـباب أخرى، من الممكـن المغامرة بها في هذه البرّيـة. هذه الواحات، إذا كانت فعلاً تسـتحق هذه التسـمية، قد تشـكلت جرّاء انخفاضات طفيفة في سـطح الصحـراء المحيطـة، واتخذت مع الوقت شـكل وادٍ طويل، أو رقعة مسـتطيلة، حيث توفر الصخور والحجارة مكاناً لتربة خفيفة نوعاً ما متمازجة مع الرّمال، وتخفي تحت سطحها مصدراً مقبولاً للرطوبة على مسافة ليست ببعيدة عن وجه الأرض. هنا ونتيجة لذلك، ظهرت الشـجيرات والأعشـاب، والعشب، إذا لـم يكن دائم الخضرة، فهو على الأقـل يبقى مخضراً لفترة أطول من الأماكن الأخـرى؛ أنواع من النباتات المثمرة التي تكفـي لبقاء البـدو النحيلين، تنمو هنا تلقائيـاً؛ باختصار، لا يمكـن للإنسـان والحيوان على حد سـواء أن يجدا أسـباب راحتهما، بـل يمكن أن يجدا فقط الأشـياء الضرورية جداً. هذه المنطقة من وادي السّرحان تماماً «وادي الذئاب» ».

كان دخولهم وادي السّرحان في 21 يونيو. «مررنا بخيمة تلو أخرى، تاركين وراءنا بدواً رثين وإبلاً ترعى، وأخيراً دلّنا سليم على مجموعة من المساكن، بدا اثنان أو ثلاثة منها إلى حدّ ما أكثر رحابة من الباقي، وأخبرنا أن عشاءنا في تلك الليلة (وذلك لأن فترة بعد الظهر كانت قد انقضت) سـيكون بضيافة هؤلاء السـكان. وألحق قائلاً «أجاويد»، أي: كرمـاء، ليشـجعنا بتوقع اسـتقبال كريم. ولم يكـن أمامنا بالطبـع إلا الإذعان لرأيه الأفضـل؛ وماهـي إلا بضـع دقائـق حتى كنـا جنباً إلى جنـب مع أغطية صـوف الماعز السوداء حيث يقطن مضيفونا المقصودون.

«خـرج الزعيـم أو chieflet، فقد كان كذلك، وتبادل مع سـليم بضعة عبارات ذات رنيم ماسوني. وبعدها قدم سليم إلينا، حيث كنا نقف مترقبين، فاقتاد جمالنا إلى مسافة قريبة من الخيام، وجعلها تنوخ، وساعدنا على إنزال أحمالنا عنها، وعلى الرغم من أننا وقفنا لنسـتقرعلى منحدر رملي يواجه أماكن إقامة القبيلة، فقد نصحنا أن نراقب متاعنا بحـرص، إذ ربما يكون هناك بعض السـلاّبة بين مضيفينا، رغـم أنهم جميعاً «أجاويد» كما هو الحال. المؤسف في الأمر؛ أن «أجاويد» على لسان العرب تقابل كلمة «نبلاء» بلغتنـا الانكليزيـة. هنـا، إذا كان بين النبلاء سـلاّبة، فماذا يكون إذن بيـن الرُّعاع؟ قبلنا

بمحنتنا، وجلسنا برزانة جليلة على الرّمل ننتظر النتائج التالية لمباحثات دليلنا.

«بقينا لبعض الوقت دون إزعاجات، والرغم من كوننا ملحوظين؛ كان مجموعة من العرب كانوا قد احتشدوا حول أصحابنا عند مدخل الخيمة، وبدؤوا يأخذون منهم كل المعلومـات الممكنة، خصوصاً فيما يخصّنا ويخص متاعنا، التي كانت موضع فضول شـديد، ولا أقول جشع. ثم جاء دورنا. خرج الزعيم، وعائلته (باستثناء النساء)، أتباعه المقربون، وعشـرون آخرون، شـباباً وشـيباً، صبيانـاً ورجالاً، وبعـد ترحيب مختصر، وعلى طريقة البدو، جلسوا أمامنا على شكل نصف دائرة. حمل كل رجل في يده عصا قصيرة معقوفة تستخدم في حثّ الجمال على المسير، ليومئ بها عندما يتكلم، أو ليلهو بها خلال الفواصل بين الأحاديث، بينما كان الأفراد الأصغر سـناً من الجماعة، الأقل عجلـة في الحديث، وظفوا فراغهم بتهذيب فـي التحديق بنا، أو بالتقاط كرات الرّوث الجافة من التراب وتقاذفوها فيما بينهم».

« «مـا أنت؟ ماعملـك؟» هكذا يبدأ النقاش العـادي ودون مقدمات. ونجيب عليه: «طبيب من دمشق، وعملنا هو كل ما يقدّره الله في طريقنا». والسؤال الثاني يكون عن الأمتعة؛ أحدهم وكزها بعصا، ليلفت الأنظار إليها، ويقول، «ما هذا؟ هل لديكم أشياء صغيرة لتبيعوها لنا؟» ».

«قاومنا البيع بخجل: لننشر سلعنا وأشياءنا في الهواء الطلق، ونضعها على التراب، ووسـط حشد كان مظهره وظروفه يعطي ضماناً ضعيفاً للتطبيق الدقيق للوصية الثامنة، كان ذلك بالكاد لصالحنا أو مناسـباً لنا. بعد محاولات عديدة فاشـلة كفوا عن طلبهم. وآخر، مصاب بمرض جسـدي، تعجز كل جامعات لندن وپاريس عن وصف دواء له، هو ذواء اليدين withered hand، على سبيل المثال، أو تحجّر وعمى في عين، يطلب دواء، وهـو يظنّ أنه حالما يستعمله، حسـب اعتقاده، سـيعود فجأة إلـى كامل صحته وسلامة جسده. ولكنني كنت قد حذرت مسبقاً...

«إذن أنتـم تضحكون علينا، أنتم يا سـكان المدن. نحن بـدو، ولا نعرف عاداتكم»، أجاب بلهجة طنانة؛ بينما كشّر الصبيان بابتسامة عفوية على هزيمة رجال قبيلتهم.

« «يا ولد» (لأنهم كذلك يلقبون كل الذكور من سن الثامنة إلى الثامنة عشرة دون تمييز) «ألن تملأ غليوني؟» قال أحدهم، الذي لاحظ أن غليوني كان مشرعاً، والذي، وعلى الرغم من امتلاكه لكمية لا بأس بها من التبغ الجاف مربوطة ضمن خرقة بحزامه الكدر، اعتقد أن اللحظة مواتية لبعض المكسب، لصعوبة الحصول على الدّواء أو البضاعة.

«لكن سليماً الجالس في وسط الحلقة، أومأ إلي بإشارة لئلا أستجيب. ولذلك تهرّبت من الطلب. لكن المتوسل إليَّ استمر في الطلب، وقلّده اثنان أو ثلاثة آخرون، فكان كل منهم يدفع إلى الأمام (لمحة إيرلندية بحتة) قطعة من العظم مثقوبة من طرفها لتكون على هيئة الغليون، أو حجراً ذا مسامات، شائعاً في الصّحراء، تم تشكيله على نحو رديء ليصبح أداة للتدخين، كضرب من غليون بدائي.

«وعندما ظهروا غير مهذبين، تظاهرتُ بالغضب، هذا لإنهاء الموضوع بجفاء: «إننا ضيوفكم، أيها القوم؛ ألا تشعرون بالخزي في الطلب منا؟».. «لا عليكم، اعذرونا؛ هؤلاء أشخاص جهلة، أفظاظ من أصل رديء» إلخ، اعترض شخص جالس قرب الزعيم؛ وكانت ثيابه نوعاً ما أفضل من نصف أو ثلاثة أرباع الأشخاص المجرّدين الموجودين في المجلس.

« «ألن تقوموا يا قوم بالغليون لأخيكم الصغير!» ألحق الزعيم بنفسه، مقدماً واحداً فارغاً بسلوك متواضع. إنّ لغة البدو، كحال معظم الشرقيين، تعج بالمجازات غير المنمقة، وبالتالي فإن كلمة «يا قوم» هنا تعني «إملأ». أومأ إلي سليم بغمزة تفيد بالمطاوعة؛ فأخذت حفنة من التبغ، ووضعتها على كم قميصه الطويل، وقام بعمل عقدة فوقها، وبدا مبتهجاً بشكل غير اعتيادي. إن هؤلاء القوم يقنعون بسهولة بأي شيء.

«يعني نسيم الليل في هذه البراري الحياة والصحّة بحد ذاتها. رقدنا بعمق، دونما إزعاجات بتوقع استدعاء باكر للمسير في الصباح التالي، فالرجال والحيوانات على حد سواء بحاجة إلى استرخاء ليوم كامل. عندما أشرقت الشمس دُعينا للدخول إلى

خيمة الشيخ ولإحضار أمتعتنا لإيوائها تحتها. إن الهدف الأساسي لمضيفنا، لعرض هذا الانتقال، وكان يعمل ما بوسعه ليجعل من زيارتنا هذه ذات فائدة له بشكل ما، بهدية أو بشراء. بُذلت كل الكياسة التي يستطيع أن يبذلها، ووعاء كبير من لبن النوق الطازج، وهو شراب فاخر، ظهر الآن على الساحة. أترك التحليل الكيميائي ليقرّر لماذا لا ينتج هذا اللبن الزبدة، إذ أن هذه حقيقة، وأكتفي بأن أقنع نفسي بتقديم شهادة عن خواصه المقبولة والمغذية جداً.

«يواصل اليوم تقدمه. حوالي الظهيرة اعتقد مضيفنا فطرياً حوالي الظهيرة أننا جياع، ولذلك أحضر طبقاً جديداً: أكثر ما يشبه وعاءً تملؤه عجينة خشنة حمراء، أو نخالة ممزوجة مع المَغرة[1] ochre. هذا هو السِّمح، وهي مادة أساسية كمورد رزق للبدو في شمال جزيرة العرب. تنمو أعشاب صغيرة ونباتات متشابكة على طول هذا الجزء من الصحراء، إنها ذات سوق غضة وأوراق صغيرة بيضوية لونها أصفر؛ الأزهار ذات لون أصفر فاقع، فيها الكثير من الأسدية والمدقات. عندما تسقط الأزهار، يبقى في مكانها كيس من أربع أوراق بحجم حبة البازلاء العادية، وعندما تنضج هذه، تتفتح لتظهر كتلة من البذور الحمراء الدقيقة، تشبه البرغل في الملمس والشكل، لكن قوامها ذروي. إن فصل النضوج في يوليو، عندما يخرج الكبار والصغار، الرجال والنساء، كلهم لجمع غير المتناثر منها ويجدّون في حصدها.

«في اليوم 27 من الشهر عبرنا بصعوبة سلسلة تلال رملية خطيرة بمحاذاة الطريق المباشر لوداي السّرحان. هنا، وللمرة الأولى، رأينا الغَضا Ghada، وهي شجيرة تميّز تقريباً شبه جزيرة العرب، نظراً لوجودها المتكرّر جداً، وللتلميح الدائم باسمها من شعرائها. إنه من جنس الفربيون، وهو ذو ساق خشبي، غالباً بطول خمسة أو ستة أقدام، وغصينات خضراء دائرية لا يمكن عدّها، رقيقة جداً ومرنة، تشكل أجمة كبيرة لطيفة، ذات منظر جميل للعيان، بالإضافة لتقديمها ملاذاً للمسافرين وطعاماً لإبلهم.

---

(1) المَغرة هي أوكسيد الحديديك المائي الطبيعي، وتكون في العادة صفراء أو حمراء. وبها يسمّى التراب الأحمر المصفرّ أو الصباغ ذو اللون المميّز ذاته.

والإبـل هـذه مولعة جداً بالغَضـا، وتقوم، على الرغـم من الضرب والرفـس، بالتلفت باسـتمرار في طريقها لتحصد قضمة منها، ثـم تدلي أعناقها الطويلة عائدة إلى اتجاهها الأول، مستعدة لتقوم بالمناورة نفسها عند الشجيرة التالية، وكأنها لـم تتلقَّ ضرباً نتيجة نهمها السابق.

«عندما كنت في إنكلترا، سمعت وقرأت غير مرة عن «الإبل الخاضعة». وإذا كانت «خاضعـة» تعني غبية وحسـنة وجيدة؛ ففي هذه الحالة فإن الجمـل هو نموذج حقيقي للخضـوع. ولكـن إذا كان القصد من اللقـب أن يدل على أنّ الحيوان يهتم بالشـخص الذي يركبه لدرجة أن حيواناً يمكنه، بطريقة ما أن يفهم هدفه أو أن يتعاطى معه بشـكل الخضوع، وأن يطيع من باب الخضوع أو الشـعور جزئياً بسـيده، مثل الحصان والفيل، عندئذ أقول إن الجمل ليس خاضعاً بتاتاً، وعكس ذلك تماماً؛ فهو لا يبالي براكبه، ولا يهتم فيما إذا كان على ظهره أم لا، ينطلق مسـتقيماً في طريقه حالماً، بدأ مسـيره، فقط كونه أخرق جداً ليلتفت جانباً؛ ثم تغريه بعض الأشواك المغرية أو الأغصان الخضراء ليخرج عن طريقه، ويتابع سـيره في هذا الاتجاه الجديد ببسـاطة لأنه أخرق جداً ليعود ويسير بالاتجاه الصحيح.

«إن اهتمامـه الوحيـد هو أن يعبر مراعياً بالقدر الذي يسـتطيع وبراحته بينما يمشـي متقدماً وبشكل آلي؛ ولتحقيق ذلك فإن عنقه الطويل، ورقبته المرنة ذات فائدة عظيمة، وإن الضـرب العنيف والرّفس المحض فقط هما اللذان يؤثران عليه سـواء في التوجيه والتسيير. لن يحاول إطلاقاً أن يرمي بك عن ظهره، فمثل هذه الحيلة بعيدة عن مداركه المحـدودة؛ ولكـن إن سـقطت، فلن يحلم أبداً بـأن يتوقف لأجلك، ويتابع سـيره كما كان، يرعـى أثناء سـيره، دون أن يعلـم أو يهتم بمقدار ذرة لما قـد حدث لك. وإذا فقد اتجاهـه، فإنه بنسـبة ألف بالواحد لن يجد أبـداً طريقه مرة أخرى إلـى موطنه أو مرعاه المعتاد، وأول قادم سـيلتقطه لن يبدي أدنى تخوف من أن يمتطيه؛ جاك أو طوم سـواء عنده، وفقدان سيده القديم، وأقربائه وعشيرته الأساسية، لا تعني له شيئاً، ولا يقوم بأي محاولة ليجدهم ثانية».

عندما تراءت جبال الجوف، أُرغم المسافرون على التوقف ليومين في مخيم عرب الشرارات، لأن سليماً لم يتمكن من دخول الجوف معهم، بسبب جريمة كانت قد اقتُرفت هناك. لذلك أجبر على أن يسلمهم لدليل آخر قادر على أن يقودهم بأمان إلى ما تبقى من رحلتهم. بعد بحث ونقاش طويل، انتهى سليم بأن وجد شخصاً طيباً، ولكنه كان محدود الفكر نوعاً ما، وتعهّد بإرشادهم إلى الجوف.

شاهدوا قطعاناً كبيرة من النعام أثناء سفرهم ليوم كامل وليلة خلال هضبة مفتوحة. وامتطوا ثانية في 30 من الشهر، تحت ضوء نجم الصباح، متلهفين لدخول الجوف قبل أن تبدأ حرارة الظهيرة الشديدة؛ «لكن كان أمامنا طريق طويل لنسيره، ودليلنا يسلك منعطفات غير منتهية بين الهضاب المنخفضة والسلاسل الحجرية، دونما أيّة علامة تدل على الاقتراب من مناطق متحضّرة. أخيراً بدت المنحدرات أكثر خضرة، ومجموعة من البيوت، وغدت آثار الحراثة أقرب. كانت تلك قرية الجوف الصغيرة، الواقعة في أقصى غرب منطقة الجوف نفسها. أحصيت بين العشرين والثلاثين منزلاً. ثم دخلنا في طريق ضيق وطويل، وقد كانت جوانبه شديدة التحدر تحجب الرؤيا من الجانبين. وفجأة ظهر عدد من الفرسان على الجرف المقابل، وكان أحدهم شاباً وسيماً له شعر طويل أجعد، مسلحاً بشكل جيد ويمتطي مطية جيدة، (سنورد المزيد من التفاصيل عنه في الفصل التالي) صاح على دليلنا ليتوقف، واستجاب من جانبه وجانبنا. هذا ما قام به سليمان، وكانت دلالات الخوف تلك بادية في نبرة صوته وعلى ملامحه التي نادراً ما يخفق البدوي في إظهارها عند اقترابه من المدن، لأنه عند وجوده هناك يكون ميالاً إلى التسلل أشبه بابن آوى قد تلقى للتو ضربة لذنب اقترفه. بعد أن قدّم جوابه، الذي خرج بنبرة فيها الكثير من الإذعان، عقد الفرسان تشاورات مقتضبة، وبعدها رأينا اثنين منهم ثنوا رؤوس جيادهم، وأسرعوا بالعدو باتجاه الجوف، بينما خاطب محدثنا الأصلي سليمان قائلاً: «زين، تابعوا، ولا تخشوا شيئاً»، ثم اختفى وراء بقية عصبته خلف حافة النجد.

«من الواجب علينا أن نتقدم لساعة في مسير مضجر؛ أما جملي فانهار تماماً، وتهالك

شيئاً فشيئاً؛ وحاله السيء هذا تتابع بالحيوانات التي كانت تحمل البنّ؛ كان الحرّ فظيعاً فـي هذه الممـرّات، وكان وقت الظهيرة يقترب. وانتهينا أخيـراً من هذا الطريق، ولكن وجدنا أنه لا يزال هناك عائق يحيل دون إمكانية التقدم بسبب وجود كتلة من الصخور المعترضـة. كان المـاء الموجـود في قِرَبنا قد نفد، ولم نكن قد تناولنا شـيئاً في صبيحة ذلـك اليوم. متى سـنتمكن من رؤيـة الجوف؟ أم أنها قد تبدّدت مـن أمامنا؟ وبينما كنا نكـدح في طريقنـا على هذا المنوال اجتزنا كومةً من الجروف، وهنا برز على المشـهد منظر جديد ومدهش.

« إنه وادٍ عميق وعريض، يتحدّر سلسلة تليها سلسلة حتى إن أعماقه الأبعد محجوبة عن الناظر وسط رفوف صخرية حمراء بعيدة المنال، وفي الأسفل كان المكان بكامله مرصعـاً بواحـات من أيائـك النخيل ومجموعات أشـجار الفاكهة، رقـاع بلون أخضر داكن، في أبعد نهاية نحو أسفل منعطفاتها؛ كتلة كبير بنية اللون من الأبنية غير المنتظمة تتوّج التلة الوسطى؛ خلفها برج عالٍ ومنعزل يطلّ على الضفة المقابلة للتجويف، وفي الأسـفل أبعد من ذلك توجد أبراج صغيرة دائرية الشـكل وبيوت ذات سطوح مستوية، نصـف مدفونـة وسـط أوراق نباتـات الحدائق، كلها مغمـورة في طوفـان عمودي من الضوء والحرّ؛ كان هذا المظهر الأولي للجوف حيث كنا للتوّ نقترب من جهة الغرب. كان منظـراً جميـلاً، حتـى إنه بدا أجمـل من ذلك لناظرنـا المرهق من الإقفـار الطويل الذي مررنا به، باسـتثناءات نادرة أثناء سـفرنا يوماً بعد يوم، منذ ألقينا نظرة الوداع على غزة وفلسـطين، حتـى أول ما بلغنا منطقة مأهولة في جزيـرة العرب. «مثل جنّة الخلد، لا يمكـن لأحـد أن يدخلها حتى يكون قد عبر أولاً فوق جسـر الجحيم»، كما قال أحد الشعراء العرب، واصفاً موقعاً مشابهاً في البلاد الجزائرية.

«جعلنـا هذا المنظر مفعميـن بالحيوية، وحملنا على دوابنـا المنهكة، وبعد أن نزلنا أول منحدر صخري من الوادي ظهر لنا فارسان، حسنا الهندام ومسلحان بشكل كامل حسـب الزيّ السـائد في هـذه الأجزاء، واقتربا منـا قادمين من المدينـة، وللتو رحّبا بنا قائليـن «مرحبا» بصوت عـالٍ ومتحمس؛ ودون أي مقدمات أضافا: «ترجّلوا لتأكلوا»،

وقاما بذلك أولاً لنتبعهما فترجلا برشـاقة من على جواديهما اللذين لهما قوائم نحيلة، وفكّا حقيبة جلدية كبيرة، مليئة بالتمر الممتاز، ومطرة ماء، معبأة من نبع دافق؛ وفرشـا هذه الوجبة الخفيفة التي جاءت في وقتها على الصخور، قائلين: «إننا واثقان من أنكم ينبغـي أن تكونوا جائعين وعطشـين، لذلك قد أتينا مسـتعدين ومزوّدين»، ودعونا مرة أخرى لنجلس ونبدأ».

* * *



صورة 8: شكلّ زيّ الحجّاج إلى مكّة

الفصل التاسع

رحلات پالغريف - الإقامة في الجوف

كان الشخص الأكبر سناً من الفارسين اللذين قدما للترحيب بالمسافرين غافل الحبوب، كبير أهم عائلة في الجوف، والحاكم السابق لهذا المكان، ولكنه الآن خاضع لحْمُود، الوصي على طلال، أمير جبل شمَّر، الذي تعرف إليه پالغريف لاحقاً. بادر غافل، ومرافقه ضافي Dafee أيضاً، إلى دعوة المسافرين ليحلوا ضيوفاً عليه، والأول منهما، كما تبيّن فيما بعد، كان عازماً على أن يقيموا في منزله، أملاً في أن يتسنّى له الحصول على بعض الفائدة من البضائع المحتمل وجودها بحوزتهم. وقد شعروا أنهم مقيّدون، على الأقل عليهم أن يرافقوه إلى منزله لتناول القهوة، قبل أن يتوجهوا إلى أي مكان آخر. ويعرض پالغريف أسلوب استقبالهم بهذا الوصف:

«كانت القهوة k'hawah كبيرة، عبارة عن قاعة مستطيلة ارتفاعها حوالي عشرين قدماً وطولها خمسين وعرضها ستين أو ما يقارب ذلك؛ كانت الجدران ملونة - على نحو رديء - بلون بني وأبيض، وتتخللها هنا وهناك تجاويف مثلثية صغيرة، مخصّصة لاحتواء الكتب - وعلى الرغم منها فإن غافلاً على الأقل لم يكن لديه الكثير من المصابيح، وأشياء من هذا القبيل. كان السقف من الخشب، ومسطحاً؛ والأرضية مفروشة برمل ناعم نظيف، ومزخرفة من كل جوانبها بمحاذاة الجدران بسجادات ضيقة وطويلة، عليها وسائد من حرير باهت، مرتبة على مسافات مناسبة. في البيوت الأفقر كانت تحلّ بسط اللباد محل السجاد. في أحد الزوايا، تحديداً، تلك الأكثر بعداً

عن الباب، يوجد موقد صغير، أو لنقل بدقة أكثر، فرن مصنوع من كتلة كبيرة مربعة من الصوان، أو نوع آخر من الحجارة القاسية، أبعاده عشرون إنشاً تقريباً؛ وهو مجوّف من الداخل على شكل قمع عميق، ومفتوح من الأعلى، ويتصل مع الداخل بواسطة أنبوب أفقي صغير، أو ثقب في الأنبوب، ومنه يمرّ الهواء، بمنفاخ، إلى كومة الفحم المشتعلة المكدسة فوق الحاجز الموجود تقريباً في وسط المخروط. بهذه الطريقة فإن الوقود سرعان ما يتحوّل إلى لهب أبيض، والماء في قدر القهوة الموضوع في مدخل القمع يبدأ بالغليان بسرعة. إنّ النظام المستخدم في أفران القهوة شائع في الجوف وجبل شمَّر، ولكن في نجد نفسها، وبالتأكيد، وفي المناطق الأخرى الأبعد في الجزيرة التي زرتها والواقعة إلى الجنوب والشرق، فإن المواقد المفتوحة تحلّ محل الأفران، وهي عبارة عن تجويف في الأرض، يحيط بها حاجز مرتفع من الحجارة، وتستخدم العوارض الأفقيّة dog–iron كوقود، كذلك، مثل الذي لا يزال يشاهد في إسپانيا».

«دخلنا. وعند اجتياز المدخل ينبغي قول «بسم الله»؛ وإذا لم تقل ذلك فهو نذير شؤم، للشخص الذي يدخل والأشخاص في الداخل على حد سواء. ثم يتقدّم الضيف بسكون، حتى يصل تقريباً إلى منتصف طريق الغرفة، عندها يقول لجميع الحاضرين التحية المعتادة «السّلام عليكم»، ولكن يخصّ بنظره سيد البيت، هذا كله بينما يحافظ الجميع في الغرفة على أماكنهم، بلا حراك، دون أن يتفوّهوا بكلمة. ولكن عند إلقاء السلام، فإن سيد البيت ينهض، وإذا كان وهابياً[1] متشدداً، أو تواقاً بشكل ما ليبدو كذلك، فإنه يجيب بالصيغة الكاملة الطويلة التقليدية: «وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته». وإذا كان غير ميّال للدّعوة الوهابية، فإنه يخالفهم ويجيب: «مرحباً» أو «أهلاً وسهلاً» أو ما شابه؛ إذ أنه لا حدود لمثل هذه العبارات وبتنوّع أنيق. يقوم جميع الحاضرين بالفعل ذاته بالنهوض والترحيب. ثم يتجه الضيف إلى سيد المنزل، الذي يقوم بالتقدّم خطوة أو خطوتين، ويضع كفه في راحة مضيفه، ولكن دون أن يقبضها أو يصافحها، وهذا بالكاد ما يفي بالواجب، وفي الوقت ذاته، وكلٌ يكرر تحيته مرة

(1) ذكرنا غير مرة أن الغربيين يستخدمون هذا اللفظ مراراً، والصحيح فيه: دعوة الإصلاح السّلفيّة.

أخـرى، ويلحقهـا بمجموعة عبارات لأسـئلة مهذبة: «كيف حالـك؟»، «ما أخبارك؟» وهكـذا، وكلها تُطرح بنبرة تدل على اهتمام كبيـر، وتطرح لثلاث مرات أو أربع، حتى يكون للشـخص أو الآخر حرّية الإجابة «الحمد للـه»، أو بعبارة مماثلة: «جيد»، وهذه دلالة للتحول بشكل ملائم للاستجواب الرسمي.

«أصبحنا أثناء ذلك مشـغولين فـي حديث فعلي مع مضيفنـا وأصدقائه. لكن دليلنا من عرب الشّـرارات، سـليمان، كبدوي حقيقي، شـعر بارتباك شـديد عند وجوده بين قـوم من المدينة، ليتخـذ مكاناً أعلى، على الرغم من أنه دُعي إلـى ذلك مراراً، وبذلك فقـد جلـس القرفصاء علـى الرّمل بالقرب مـن المدخـل. كان الكثير مـن أقرباء غافل حاضريـن؛ وكانت سـيوفهم المفضضة المزخرفة تنبئ عن أهميـة العائلة. والأخرون، الذيـن قدمـوا أيضـاً لاسـتقبالنا، عنـد وصولنـا، أعلن مسـبقاً من هـؤلاء الذيـن التقينا بهـم عنـد مدخل الطريق، بشـكل ما إنـه حدث فـي المدينة؛ ولباس البعـض يدل على الفقر، وآخرون يكتسـون بشـكل أفضل، ولكن الجميع يتحلّون بأسـلوب مهذب جداً ومحتشـم. طرحت الكثير من الأسـئلة حول بلدنا الأصلي ومدينتنا، والتي هي سـوريا ودمشـق، بما يتفق مع تنكرنا الذي كنا اتخذناه، والذي من المهم جداً المحافظة عليه؛ ثم تتابعت التسـاؤلات حول رحلتنا، وعملنا، وما الذي جلبناه معنا، وعن أدويتنا، عن بضائعنا وسـلعنا وإلخ إلخ. منذ البداية كان من السهل علينا منذ البداية أن ندرك أنه من الأرجـح أن يكثر المرضى والمشـترون. فقلة قليلة جداً من التجـار، إن وجدوا، يأتون إلى الجوف في هذا الوقت من السنة، إذ أنه من الواجب أن يكون الشخص مجنوناً، أو من المحيط القريب، حتى يندفع إلى الصّحارى الواسعة في حر يونيو ويوليو؛ وبالنسبة لـي فمن المؤكد أنه ليسـت لـدي أيّة نية في القيام بذلك مرة أخـرى. ولذلك كان خطر المنافسة ضئيلاً، ووجدنا السّوق تحت تصرفنا الكامل.

«وقبل أن تمضي ربع سـاعة، وبينما كان الأسمر blacky ما يزال يحمّص أو يطحن البـن، ظهر رجل طويل ونحيل، هو ابن غافل الأكبر، حاملاً طبقاً كبيراً مدوراً، مزخرفاً مثـل البقيـة، ورماه بحركة لبقة بالقرب منا. ثم قدَّم وعاء خشـبياً مملـوءاً بالتمر، وعليه

في وسـط الكومة كوب مليء بالسَّـمن السـائل؛ وضع هذا كله على الحصيرة الدائرية، وقال: «سـمّوا» والمعنى الحرفي لذلك «اذكروا اسم الله»؛ وهذا يعني «باشروا». وهنا غادر سيد البيت مكانه بالقرب من النار، وجلس على التراب مقابلنا؛ اقتربنا من الطبق، مع أربعة أو خمسة آخرين، بعد بعض حياء الاحترام، انضموا إلى الحلقة. كل شخص تناول حبة أو حبتين من التمر الرّطب، من الكومة نصف المتراصة، وغمَّسها في الزبدة، وتناولها هكذا حتى اكتفى، ثم نهض وغسل يديه».

قُدّمـت القهـوة ثـلاث مـرات أو أربـع خـلال الحديـث بفناجيـن صغيـرة، نصف ممتلئـة، وتناول الشـخص الـذي قام بإعـداد القهوة أحدهـا أولاً، ليختبـره. ألحّ غافل على المسـافرين ليقيموا متجراً لقهوتهم وأدويتهم في بيته؛ لكن ﭙالغريف لم يكن لديه الفرصة ليكتب مُذ غادر معان، كما رغب في الحصول على فرص دائمة للتشاور على انفـراد مـع أصحابه. لم يكن من السـهل رفـض العرض، لكن معرفتـه بصفات العرب زوّدتـه بالعديد مـن الذرائع المقنعة، التـي توجّب على غافل قبولهـا، ولكنه أصرَّ على أن يقوم هو شـخصياً بانتقاء مسـكن مناسب لهم في اليوم التالي. يقول ﭙالغريف: «كان باقـي الظهيـرة مخصصاً للاسـتلقاء، ودعانـا مضيفنا قبيـل الغروب لزيـارة حدائقه في برودة المساء. وسأغتنم الفرصة لآخذ قرّائي إلى جولة للجوف بكاملها، فالنظرة العامة ستساعد بشكل أفضل على فهم ما سيرد في السّرد لاحقاً، إضافة إلى أنه سيقدّم الكثير الذي سيكون جديداً نوعاً ما، حسب تصوري، بالنسبة للأغلبية.

«هذه المقاطعة عبارة عن واحات، وهي منخفض بيضوي كبير يصل طوله ستين أو سـبعين ميلاً، وعرضه عشـرة أو اثنا عشـر ميلاً، يقع بين الصحراء الشمالية التي تفصل الجزيرة عن سوريا والفُرات، والنفود الجنوبية، أواليباب الرّملي، وتقع في الوسط بينها وبيـن أقرب جبال مـن النجد العربي الأوسـط. ولكن، بالمقارنـة التقريبية مع الأخير، ليسـت أقل منهـا في مواصفات مناخهـا ومنتوجاتها، إنها تنتمي إلى المنطقة الشـمالية كما إلى وسط جزيرة العرب، وبذلك فهي بمثابة رواق أو ردهة. إذا أردنا أن نرسم مثلثاً متساوي الأضلاع، قاعدته في دمشق وبغداد، فإن قمته ستكون تماماً في الجوف، الذي

يقع على مسافة متساوية تقريباً، من الجنوب الشرقي والجنوب الغربي، من المنطقتين المذكورتين، بينما سيشكل الخطان المتقاطعان نفساهما، في حال تابعنا، المساحة ذاتها في الجهة المقابلة، وستكون المدينة في جهة، وزلفي، البوابة التجارية الكبيرة لنجد الشرقي، في الجهة المقابلة. ويقع جبل شمَّر في الجنوب تماماً، وأقرب من أي مكان آخر ذُكر آنفاً. وجزئياً كون المنطقة تقع في هذا الموضع المتوسط، ولكونها محفورة على شكل يميّزها، فقد أخذت المنطقة اسمها المناسب الجوف أو الباطن.

«هذا والمدينة الرئيسة، أو بالأحرى الوحيدة في المنطقة، حيث إن جميع البقية عبارة عن قرى صغيرة، تحمل اسم المنطقة الداخلية. وتتألف من ثماني قرى، كانت فيما مضى منفصلة، لكن ومع مرور الزمن التأمت لتصبح واحدة، وتبادلت مواردها المختلفة ولذلك أطلق عليها اسم سوق، أو «حيّ» quarter، ذي حكم مشترك. وفي هذه الأسواق، والسوق الرئيس فيها الذي تعود ملكيته لآل حبوب، قد أُنزلنا للتو. وتضمّ القلعة المركزية التي ذكرت مسبقاً، وحوالي أربعمئة بيت. والأحياء الأخرى، البعض منها أكبر، وبعضها أصغر، تمتدّ على الوادي صعوداً وهبوطاً، ويربطها ببعضها حدائقها الواسعة. هكذا تشكلت المنطقة الداخلية الطولانية للبلدة، وتليها مباشرة الأراضي المحروثة على مدى أربعة أميال، ولكن معدّل الامتداد العرضي لا يتجاوز النصف ميل، وأحياناً أقل من ذلك.

«مساحة المنازل تتفاوت حسب الأرض التي تشغلها، فالفقراء قابعون بمنازل ضيقة، على الرّغم من أنها منفصلة دائماً؛ وإنني أشك أن تكون عائلتان في جزيرة العرب بكاملها، حتى لو كانوا فقراء، تقطنان في منزل واحد. ومقر إقامة غافل، الذي تقدّم وصفه، يعطي فكرة مناسبة عن الوضع الأفضل؛ وفي مثل هذه البيوت يوجد فسحة خارجية، لإنزال الجمال وما شابه، وفسحة داخلية، وقاعة استقبال كبيرة، وعدد من الشقق الصغيرة، التي يُدخل إليها عبر أبوابها الخاصة، وحيث تقيم العائلة.

«ولكن هناك شيء آخر، وهو الصفة المميزة للمباني المحلية والتي هي الإضافات المتكرّرة لبرج دائري، في منطقة الجوف بكاملها، والذي يبلغ ارتفاعه ثلاثين إلى

أربعيـن قدمـاً وعرضه اثني عشـر قدماً أو أكثر، وهـو ذو مدخل ضيـق وفتحات دائرية فـي الأعلى. هـذا المبنى يكون أحيانـاً مجاوراً للأحياء السـكنية، وأحيانـاً معزولاً في حديقـة مجـاورة يملكها الشـخص ذاته. وهذه الأبـراج اسـتخدمت ذات مرة للغرض نفسـه من الأبراج torri المعروفة جداً بالنسـبة لهؤلاء المسـافرين في الكثير من المدن الإيطاليـة، مثـل بولونيا وسـيينا وروما وأماكن أخـرى، والتي دلّت على بعض التشـابه مـع حالـة المجتمع الذي كان سـائداً هناك فيما مضـى. إلى هنا، في زمان اشـتدت فيه المنازعات بين الزعماء المتنافسـين والأحزاب، كان القـادة والموالون لهم يتراجعون التماسـاً للّجـوء والتحصّن، ومن هنا كانوا يشـنّون هجماتهم للحـرق والتدمير. وهذه الأبـراج، مثـل كل الصّروح الموجودة فـي الجوف، مبنية بالطوب غير المشـوي؛ وإن سـماكتها الكبيرة وصلابة صنعها، إضافة إلى تماسك التربة الفائق، مجتمعة مع المناخ الجـاف جـداً، كل ذلك منح المواد خاصيـة تنافس الحجارة فـي الصّلابة والاحتمال. وإلـى أن حـان دور التملك النهائي لطلال لهذه المنطقـة، بقيت كل هذه الأبراج ودون أي اسـتثناء غير ملائمة للدفاع، حتى إن بعضها قد أصبح نصف متهدّم. وهنا أيضاً فإن الظاهرة الأوروبية قد تكرّرت في البلاد العربية.

«وليسـت كل البيـوت منفصلة عن بعضها بانتظام بوجـود الحدائق والمزارع؛ فهذه الصفـة تميّز خصيصاً مسـاكن الزعمـاء وعائلاتهم. وكل ما قد ذكر حـول هذه الأبراج يجعـل منها وسـيلة ليبدو هذا الفصل واضحاً وبشـكل جيد. ولكن مسـاكن العامة من الناس وبشكل عام متراصّة على بعضها، ودون تناسق أو نظام.

«والحدائـق فـي الجـوف يُعتنى بهـا في هذا الجزء الشـرقي بشـكل أكبر، وبشـكل جيـد أيضاً. إنهـا ذات إنتاجية وتنوّع يتفـوق على تلك الموجودة في جبل شـمَّر ونجد الأعلـى، وأكثر بكثير مما يمكن أن يقدمه الحجاز والمناطق المحيطة. هنا، ولأول مرة فـي طريقنـا المتجه جنوباً، وجدنـا أن النخيل هو العنصر الأساسـي للزراعة؛ وإذا كان نتاجه أدنى من إنتاج الأشـجار ذاتها في نجد والأحسـاء، فإنه أفضل، وبكثير جداً، عنه في مصر وأفريقيا، أو في وادي دجلة من بغداد إلى البصرة. ولكن، فإن شـجرة النخيل

وبلا شك ليست الشجرة الوحيدة الموجودة هنا. فإن أشجار المشمش والدراق والتين والكرمة تكثر في هذه البساتين، وثمارها تتفوق في غزارتها ومذاقها، عن تلك التي تنتجها بساتين دمشق أو مرتفعات سوريا وفلسطين. وفي المساحات المتوزعة بين الأشجار أو في الحقول الواقعة خلفها، تُزرع وبشكل واسع الذرة والبقول والقرع والبطيخ وغيرها الكثير. وهنا أيضاً، ولآخر مرة، فإن المسافر المتجه نحو الداخل يلاحظ أن الريّ الذي لا مفرّ منه لكل المزروعات والأراضي في هذا المناخ الجاف يستمرّ بواسطة جداول المياه الصافية، بينما في نجد ومحيطها فهو عمل يتطلب جهداً لتأمين المياه من الآبار والبرك.

«إضافة إلى الجوف نفسها، أي العاصمة، يوجد عدة قرى أخرى تنتمي إلى المقاطعة ذاتها، وكلها تخضع للحاكم الرئيسي ذاته. القرية الأكبر منها هي سكاكا Sekakah؛ الواقعة على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً باتجاه الشمال الشرقي، وعلى الرغم من كونها أقل من البلدة الرئيسة من حيث الأهمية وخصوبة التربة، فإنها تساويها تقريباً من حيث عدد السكان. وأقدّر أن عدد السكان مجتمعين رجالاً ونساء وأطفالاً في هاتين المنطقتين يصل تقريباً إلى ثلاث وثلاثين أو ثلاث وأربعين ألف نسمة. هذا التقدير، كما هو حال معظم التقديرات الأخرى التي تواجهنا أثناء عملنا، يعتمد جزئياً على المسح التقديري لعدد السكان، وجزئياً على الحشود العسكرية، وبشكل جزئي على ما سمعته حول هذا الموضوع من السكان أنفسهم. والإحصاء الرّسمي غير معروف هنا، ولا يوجد سجلات للمواليد والزواج والوفيات. ولكن، بمساعدة قوائم الحرب التي توضح عادة تقريباً عُشر العدد الإجمالي للسكان، فمن الممكن الحصول على فكرة معقولة ولكن ليست كاملة حول هذا الموضوع.

«أخيراً، حوالي ولكن ليس على مسافة كبيرة من هذه المراكز الرئيسة، توجد عدة قرى صغيرة، عددها ثمان أو عشر، كما أخبروني، وتضمّ كل منها من عشرين إلى خمسين أو ستين منزلاً. ولكن لم يتسنَّ لي الوقت ولا الفرصة للذهاب إلى كلّ منها على حدة. إنها تتجمع حول ينابيع الماء الصغيرة، وتعطي صورة مصغّرة مشابهة لهذه

العواصـم. لا يمكن أن يتجاوز التعداد الكلي للسـكان في هـذا الإقليم أربعين أو اثنين وأربعيـن ألفاً، ولكنه إقليم متميّز، وحافل بسـخاء بالمواهـب الطبيعية التي حقاً قد قيل عنهـا أنـه لا يمكن أن يسـتهين بهـا إلا أولئـك الذين يفتقرونهـا. فهم طـوال الهامات، متناسـقون، ذوو بشـرات فاتحة إلى حدّ ما، يتمتعون بشـعر أسـود فاحم أجعد طويل، وقسماتهم متناسقة جداً وتنم عن ذكاء، وسلوكهم جليل، إن الجوفيين يُعدّون نموذجاً جيـداً وبـارزاً لما يمكـن أن يسـمّى العرب الشـماليون الخالصـون، ونظـراً لكل تلك النواحي فهم يمدّون بالتمر سكّان جبل شمَّر بمفردهم. وأعرافهم المتقدمة بشكل كبير وسيماهم البشوشة تتعارض بشدة مع القوام الضئيل إلى حدّ ما ونظرة الشك التي يمتاز بها البدو. إضافة إلى ذلك فهم قوم يتمتعون بصحّة جيدة جداً، ويحافظون على قوتهم ونشـاطهم حتى في عمر متقدم. وهي ليست مصادفة اسـتثنائية، أن ترى شخصاً طاعناً في السن في السبعينيات وهو مجهز بكامل أسلحته بين عصبة من الشباب؛ وبالمناسبة، فإن مثل هذا «التقدّم في العمر الخصب» غالباً ما يوجد أيضاً في أقصى جنوب المنطقة الوسـطى، كما قد أتيحت لي الفرصة دائماً لمشاهدة ذلك. والمناخ أيضاً جيد وجاف، وعادة الحياة خارج البيوت تساهم بشكل كبير في المحافظة على الصحّة والنشاط.

«بالنسبة للعادات، كما في البيئة المحلية، فإن الأكثر ثراءً في الجوف يحتلون مكانة وسـطاً بين البدو وسـكان المناطق المتطورة. لذلك فهم يشـاطرون البدو وبشكل كبير فـي بغضهـم للمهن الآليـة، وعدم مبالاتهم لاكتسـاب المعـارف، وفـي تقلبهم دونما هـدف أيضاً، وحتى في أسـاليبهم المراوغة. كنت ذكرت في الفصل السـابق، بينما كنا لا نـزال نسـلك الممرّ الضيق قـرب أول مدخل للـوادي، ظهر عدد من الفرسـان على الحافـة العلويـة للممـر، وأحدهم اسـتجوب قائدنـا، ثم، وبعـد مـداولات وجيزة مع رفاقه، صاح علينا لنتابع المسـير دون أن نخشـى شيئاً. الآن فإن اسم هذا الشخص كان (سـليمان بن ضاهر)، إنه شـاب مغامر جداً وذكي بوضوح، ولقـد حللنا بجواره وأقام معنا علاقات حميمة وبشـكل متواصل طوال فترة إقامتنا في الجوف. وفي أحد الأيام، بينمـا كنا مشـغولين بحديـث ودي، قال، نصف ضاحـك: «هل تعرفون ما كنا نتشـاور

بـه عندمـا كنتم تعبـرون الممرّ السـفلي صبيحة وصولكـم؟ كان فيما إذا علينـا أن نعدّ استقبالاً جيداً لكم، وبهذا نكسـب لأنفسـنا فائدة إقامتكم بيننا، أو فيما إذا أحسنا صنعاً وقمنا بغزوكم أنتم الثلاثة، فنحصل على غنائمنا مما نجده في متاعكم». فأجبته ببرودة مماثلة: «من الممكن أنه قد ثبت على أنه شـأن خطير بالنسبة لك ولأصدقائك، باعتبار أنـه مـن الصعب أن لا ينتهـي إلى حاكمكم حُمُود هـذا الخبـر، وكان ليأخذها منكم». «تباً»، أجاب صاحبي: «مسـتحيل؛ وكأن هدية مقدّمة من الغزو لم تكن لتسـكت لسان حُمُود». فقلت ضاحكاً «كذلك أنتم أيها البدو». أجاب سليمان: «بالطبع نحن كذلك، كذلـك كنـا جميعاً حتى الماضـي القريب، وأمّا النظام الحالي فهـو جديد جداً على أن يكـون قد غيّرنـا». لكنه اعترف أنهم جميعهم، وبالتفكير ثانية، قد هنؤوا أنفسـهم لعدم تفضيلهم سفك الدّماء على حسن الضيافة، على الرّغم من أن القرار الأفضل كان نابعاً من الإفادة أكثر من الدوافع الأخلاقية.

«كانت الخاصيّة الجيدة الأكثر تميزاً لسـكان الجوف هي تسـامحهم. فلا يمكن في أي مكان آخر، ولا حتى في جزيرة العرب، أن يعامل الضيف معاملة حسنة، فعلى الأقل ألا يقتـل قبـل دخولـه، أو حتى يدعى بمـودّة ليصبح واحداً منهم علـى كافة الأصعدة. وكذلـك الشـجاعة أيضاً، فـلا أحد ينكر ذلـك، وهم يجـودون بحياتهـم وممتلكاتهم بالتساوي مثل جيرانهم».

«لنوجزنّ السّـرد الآن. في صباح اليوم التالي لوصولنا – في الأول من يوليو – أمّن غافـل بيتاً صغيراً في الجـوار يملكه أحد أتباعه، ليكون تحت تصرفنا الكامل، حسـب طلبنـا. ومقـرّ إقامتنا هذا الجديد، يتألف من فسـحة صغيرة وغرفتيـن، كل واحدة على طرف، كمسـتودع ومسـكن، يحيط به بشـكل كامل سـور خارجـي، وبابـه يُقفل بقفل ومـزلاج. كانت هناك حاجة ضئيلة لمطبخ، حيـث أن الدّعوات هنا متواصلة ومضيافة من القوم الطيبين هنا للغرباء؛ وإن لم يكن منزلنا واسـعاً جداً، فإنه على الأقل يوفّر إلى حـدّ بعيد ما كنا نرغب به، تحديداً، العزلة والخصوصية بشـكل جيد؛ علاوة على ذلك كان على حساب مضيفنا، الآجار والترميم.

«وهكـذا نقلنـا أمتعتنـا وممتلكاتنـا إلـى هنـاك، ورتبنا كل شـيء ليفـي براحتنا قدر الإمكان. وحسـبما كنا قد اسـتنتجنا من أسـلوب وحديث هؤلاء الذين من حولنا، فإن بيئتهـم الاجتماعيـة كانت بعيدة عن التطـور لتقدم الإمكانيات الملائمـة لمهنة الطبّ، التي تتطلب ممارستها، لتكون مفيدة بشكل عام، قدر معيناً من الثقافة والاستعداد عند المريض، لا تقلّ عن مهارة الطبيب، وعقدنا العزم على أن نبيع أشـياءنا الأساسـية هنا على سبيل التجارة، لثقتنا أننا بالقيام بذلك لنحصل على فائدة ثانية، وهي التخفيف من بضاعتنا الكثيرة، مثل القهوة والأقمشة، التي قد أزعجنا حملها كثيراً.

«لكـن وفي الواقع لم نكن توّاقين للبيع أكثر مما كان رجال ونسـاء وأطفال الجوف توّاقيـن للشـراء. منـذ البدايـة كانـت فسـحة بيتنا الصغيـرة مزدحمـة بالزبائـن، ومنظر المسـاومة عند العرب الأكثر تسـلية، بكل ما فيه من تمازج للشدّة والبساطة، كان الأمر مسـلياً لنا طوال الأسـبوع. منديل وراء منديل، قطعة قماش وراء قطعة، عقود نسـائية، سكاكين، أمشاط، نظارات، وماذا بعد؟ (فمخزوننا كان عبارة عن تشكيلة واسعة) وقد نفدت حالاً، بعضها بالدفع مباشرة، والبعض بالدين؛ وحدها الاستقامة كانت الضمان ليتمذ دفع الديون عاجلاً وبأمانة؛ إن تجار شـارع إكسـفورد، على الأقل فيما مضى، لم يكونوا دائماً محظوظين على هذا القدر.

«أثنـاء ذلـك كانـت الفرصة مواتيـة لنا تمامـاً لنتعرّف ونـدرك جميـع الطبقات، بل كل الأشـخاص تقريباً الموجوديـن في المنطقة. وجاء أيضاً فلاحـون من قرى صغيرة مختلفـة، قادتهـم الشـائعات التـي كانـت أبواقهـا الميالة إلـى التهويل فـي كلّ حدب وصـوب، قد أعلنتنا فـي كل وادي الجوف على أننا الشـخصيات الأكثر أهمية، ولدينا بضائـع أكثـر بكثير مما كان لدينا فعلاً. احتشـد الجميع، وبزمن وجيـز كان هناك زبائن أكثر من البضائع الموجودة في المخزن.

«هكذا كنا نقضي وقتنا. اعتدنا على النهوض مع الفجر، نقفل بيتنا، ونخرج مع نسائم الصباح العليلة النقية لمكان محدّد في بساتين النخيل المجاورة، أو نتسلق أسوار بعض الحدائق، أو نتجه مباشرة عبر الأزقة لنصل إلى النهايات المزروعة في الرّمال المتاخمة

للوادي؛ باختصار، إلى أي مكان مناسب رغبنا أن نمضي فيه ساعة من السكينة، بعيداً عن تشويش نزعة العرب الإجتماعية، ويكون لدينا وقت فراغ لنخطط لعملنا اليومي. ثم نعود إلى البيت مع شروق الشمس تقريباً، لنجد عند الباب شاباً طويلاً أرسله والده، وعادة يكون واحداً من الأكثر ثراء ونفوذاً من سكان المنطقة ولم نكن قد زرناه، بانتظار عودتنا، ليدعونا لتناول الفطور. ومن ثم نرافق مضيفنا our Mercury إلى منزله، حيث ينتظرنا استقبال ودّي، وبعض الجيران الذين تجمّعوا للمناسبة، أو انجذبوا بفنجان قهوة جيدة، كان لا بدّ من وجودهم. هنا تمضي ساعة أو أكثر، وتوضع الخطوط الأولية لبعض المعاملات الطبية أو التجارية. نحن، بالطبع، كنا نوجه الحديث، عندما يكون ذلك ممكناً، نحو المواضيع المحلية، إذا كان هؤلاء الحضور من المرجح أن يقدموا لنا معرفة دقيقة ورؤية واضحة عن الوضع والظروف الحقيقية لبلادهم. ثم نعود إلى مقرنا الرئيس، حيث جموع الزبائن التي تنتظرنا لا تسمح لنا لا بالراحة ولا بالتوقف حتى الظهيرة. عندها نحصل على استراحة قصيرة لتناول التمر أو اليقطين في منزل مجاور، ثم نتابع عملنا لثلاث ساعات أو أربع. ويتبع ذلك نزهة على الأقدام في الحدائق، والتي نادراً ما تكون بمفردنا، غالباً برفقة الأصدقاء والمعارف؛ وفي أثناء ذلك وبلا شك تكون قد وجهت دعوة للعشاء في مكان ما وقد تم قبولها».

«بعد العشاء ينهض الجميع، يغسلون أيديهم، ويخرجون إلى الهواء الطلق للجلوس وتدخين الغليون تحت السماء الصافية لمساءات الصيف. لا تظهر غشاوة ولا ضباب، أقل من سحابة؛ وينحدر القمر في حواف قمم أشجار النخيل البيضاء البراقة، والشعاع الأخير لضوء النهار حادّ وصافٍ كالفجر تماماً. تستمرّ الأحاديث والاجتماعات ساعة أو ساعتين إضافيتين، بعد ذلك يمضي كل إلى منزله، الأغلبية للنوم، وهذا كما أتصور، لقلّة المصابيح الزّاهية Penseroso الممكن رؤيتها في منتصف الليل، وكذلك فإنّ روح أفلاطون لن تقلق لعدم استدامة الدراسة الليلية في الجوف؛ ولولا ذلك لقمنا بكتابة يومياتنا، أو قارنا ملاحظاتنا وقيّمنا الخصائص.

«أحياناً يمكن لمالك أرض مرتاح أن يدعونا لنمضي عطلة صباحية مرتجلة في

حديقته، أو بالأحرى بستانه، لنأكل منه الأعناب ونمتّع أنفسنا كما يحلو لنا بالجلوس تحت عرائش عناقيد العنب، وأشجار النخيل من فوقنا والجداول الدافقة تحيط بنا. كم كان ذلك جميلاً بعد الصّحارى! وفي أوقات أخرى كانت زيارات المرضى والوصفات الدوائية وواجبات كهذه تشغل جزءاً من النهار؛ أو بعض الشبان، بشكل خاص أولئك الرّاغبون في معلومات عن سوريا ومصر، أولديهم فضول في معرفة التاريخ وعلوم الأخلاق، كانوا يحتجزوننا ساعتين في حديث جديّ وواعٍ، لفائدتنا على مختلف الأصعدة».

وكان من الضروري بالنسبة للمسافرين ألا يؤجلوا زيارتهم الرسمية لحْمُود، الوصي على طلال. كان مقرّ إقامته في مركز منطقة الحدائق، بالقرب من برج دائري منعزل، الذي ذُكرت أسواره الحجرية العتيدة في الشعر العربي. ومسكن حْمُود ذو بناء غير منتظم، أحدث عهداً، ولا توجد صفات تميزه غير برج يصل ارتفاعه إلى خمسين قدماً. كان يرافق بالغريف وأصحابه عدد كبير من أصدقائهم الجدد. وبعد عبور الفسحة الخارجية، التي تعجّ بالحرّاس المسلحين، يجدون الحاكم، جالساً في قاعة استقباله الكبير:

«هنالك، في مكان يدل على التميّز، الذي لم يخضع لأي فرد من الجوف، مهما كان أصله أو ثروته، يظهر الحاكم، رجل قوي، عريض المنكبين، ذو حاجبين كثيفين وعينين سوداوين، مرتدياً الثوب الأبيض الطويل لتلك البلاد، وفوقه عباءة فخمة سوداء، مطرّزة بحرير قرمزي؛ وعلى رأسه الجليل كوفية من الحرير، مطوقة بعصبة بيضاء اللون منسوجة بعناية من شعر الجمل؛ وبين أصابعه مروحة من القش. نهض بكرم حين دخولنا، ومدّ إلينا راحة يده، وجعلنا نجلس بجانبه، ولكن، مع المحافظة على غافل، باعتباره معرفة قديمة، جالساً بيننا وبينه، يمكن أن يكون ذلك إجراءً وقائياً ضد أي هجوم فجائي أو أية نية خيانة من جانبنا؛ لأن العربي، أيّاً كان الشخص، لن يتخلى عن حراسه أبداً في حضور وجوه جديدة. وفي نواحٍ أخرى فقد أظهر لنا الكثير من الكياسة وحسن النية، وسألنا بتهذيب عن صحتنا بعد هذه الرحلة المجهدة، مثنياً

على دمشق والدّماشقة، كوسيلة للإطراء غير المباشر، وطلب إلينا الإقامة في القصر. وهنا انتهز غافل المزايا الممنوحة وفق عادات العرب لأسبقية الضيافة لتكون على عاتقه فيما يخصنا؛ ولم نكن نحن تواقين لنلحّ بالموضوع. إنّ رطلاً أو ما يقارب من قهوتنا الأكثر امتيازاً، التي قدّمنا لسيادته منها في هذه المناسبة، كشاهد صامت على دافعنا لهذه الرحلة، ولنأمن جانبه، قُبلت بكل سرور من قبل الرجل العظيم، الذي طلب إلينا عندما تحين عودتنا أن يقدّم لنا أفضل الخدمات. أجبنا أننا لسنا بحاجة شيء سوى طول العمر له، حيث كانت هذه العبارة العربية الجواب لمثل هذه الأقوال المنمّقة؛ ويلي ذلك، الوصول بسلام إلى حائل عندما يسمح لنا وضع عملنا في الجوف، لأننا كنا تواقين لنضع أنفسنا تحت رعاية طلال المباشرة. ووعد أن يقدم لنا العون في هذه، ووفى بوعده».

فيما بعد قام حُمُود بزيارة ردّ على زيارتهم، وذهبوا بشكل متواصل إلى قصره بهدف دراسة المشاهد الممتعة الكثيرة التي تقدمها ممارسة نظام القضاء العربي القديم جداً. ويقدم پالغريف هذه القضية على سبيل المثال:

«في أحد الأيام كنا أنا وصديقي في زيارة من باب الكياسة إلى القصر؛ أمّا المراسم المألوفة التي قد كانت قيد التنفيذ، والأعمال، وقد اعترضت عند دخولنا، فقد تمت متابعتها. كان بدوي من قبيلة المعّازة يتقدّم بدعوى قضائية أمام حُمُود، متهماً أحدهم بأنه اغتصب بعيرَه عنوة. كان الحاكم جالساً في زاويته تبدو عليه رزانة شديدة، كان متكئاً نصف اتكاء على وسادته، بينما كان البدوي المتربع أمامه على الأرض، وعلى بعد ستة أقدام منه، يلوّح في يده بمنجل حصاد، يشبه تماماً المستخدم هنا في قص الأعشاب. يومئ بنشاط بهذه الوسيلة الجميلة، وبهذا كان يطالب بانتباه قاضيه: «يا حُمُود، هل تسمع؟» (وهو يمدّ في الوقت ذاته المنجل باتجاه الحاكم، حتى وكأنه سيلامس جسده، وكأنه يريد أن يشطره)؛ «لقد أخذ مني جملي؛ اذكر الله» (وثانية يضع سلاحه ملاصقاً للقاضي الثابت)؛ «الجمل جملي؛ هل تسمع؟» (بتذكير إضافي بمنجل الحصّاد)؛ «إنه لي، بحكم الله وحكمك أيضاً؛ هل تسمع، يا بني؟» وهكذا،

بينما يجلس حْمُود دون أن يتحرّك له عضل وجه أو طرف، هادئاً ومتماسكاً، حتى هدأ أحد المستشارين المدَّعي قائلاً: «اذكر الله يا بني؛ إنك بالتأكيد لن تكون مظلوماً». ثم استدعى القاضي الشهود، وهم رجال من الجوف، ليدلوا بشهادتهم، وبتأكيدهم على رواية البدوي، أصدر أمراً لاثنين من أتباعه ليبحثوا عن المتهم ويحضروه إليه؛ وأضاف إلى المعّازي، «حسناً، يا أبتي، لتحصل على ملكك؛ توكّل بالله»، وأومأ إليه بهدوء ليأخذ مكانه ثانية.

«مضى أسبوعان أو أكثر، ولا زلنا في الجوف، «ضيوفاً مكرّمين» حسب تعبير العرب، وارتحنا تماماً من التعب السابق للصحراء. ويمكن القول، إن مسكن غافل كان لا يزال بيتنا الرّسمي؛ كما كان هناك منزلان آخران حيث كنا نسكن أكثر لراحتنا؛ بيت ضافي Dafee، الشخص الذي كان مع غافل عندما أتى للقائنا عند وصولنا؛ وبيت سليم، وهو عجوز محترم ومثقف، على طريقته، جارنا الأقرب، ومحاط بعائلة كبيرة من الشبان أقوياء البنية، كجميعهم تربوا بدرجات متفاوتة على خشية الله وليكونوا قدوة حسنة. إلى هنا اعتدنا أن نلجأ عندما نضجر من غافل وجماعته، ونمضي ساعة بهدوء في قهوتهم، نقرأ أو نسمع الشعر العربي، نتحدث عن حال البلاد والتوقعات المستقبلية، نناقش مسائل أخلاقية، أو نعلق على أساليب وأنماط الأيام الحالية».

السؤال المهم بالنسبة للمسافرين هو كيف الوصول إلى جبل شمَّر، الواحة الخصبة الواسعة إلى الجنوب، الواقعة تحت حكم طلال؟ منطقة النفود المرعبة، التي حتى العرب أنفسهم يخشونها، والتي من الواجب أن يتم عبورها، وقد أصبح الوقت الآن منتصف الصيف. توسّل القوم المضيافون في الجوف إلى پالغريف وأصحابه ليمكثوا حتى شهر سبتمبر، ومن الممكن أن يكونوا قد تأخروا بعض الوقت، ولكن لمصادفة سعيدة. فقبيلة العزّام البدوية، التي كانت قد هوجمت من الأمير طلال، استسلمت، والعديد من كبارها وصلوا إلى الجوف، بطريقهم إلى جبل شمَّر، إلى حيث عزموا ليكسبوا ودّ طلال بتقديمهم الولاء في عقر داره. استقبلهم حْمُود، وأنزلهم عنده بضعة

أيام، ليرتاحوا من عناء رحلتهم السابقة، ويعدّوا أنفسهم لما يقبع أمامهم. بعض سكان الجوف، الذين تطلب عملهم الذهاب إلى حائل، كانوا لينضموا إلى المجموعة. ويتابع پالغريف: «أرسل حُمُود في طلبنا، وأعلمنا بأمر هذه الحملة، وعند تصريحنا بأننا نرغب بالاستفادة من ذلك، سلمنا قصاصة ورقية، موجهة إلى طلال شخصياً، يصرّح فيها أننا قد دفعنا رسوم الدخول المفروضة على الغرباء عند دخولهم حدود قضاء شمَّر، وأننا بالفعل أشخاص جديرون بالاحترام، ونستحق كل معاملة حسنة. من ثم، وبحضور حُمُود، أتممنا مساومة مع أحد أفراد العُصبة على جملين، التي كان ثمنها، متضمناً كل الخدمات المقدمة من سيدها كقائد ورفيق مدة عشرة أيام سفر في شهر يوليو، لم يكن باهظاً أبداً؛ فقد استقرّ على مئة وعشر قرشاً piastres فقط، أي ما يعادل ثمانين أو تسعين شلناً من العملة الإنكليزية.

«حدث الكثير من التأخير، ولم نمضِ حتى الثامن عشر من شهر يوليو، عندما كان التين ناضجاً تماماً، - الأمر الذي أعطى أهل الجوف سبباً جديداً للتساؤل عن سبب إسراعنا في المغادرة، بدلاً من البقاء كأشخاص عقلاء لنستمتع بنعم البلاد - حتى تلقينا العبارة الحاسمة «أبناء الحضيرة، روحوا». لقد أعلن ذلك لنا، ليس عن طريق جرادة، ولكن من مخلوق غريب، تحديداً، قائدنا الجديد، رجل نصف معتوه cracked، ليس بفلاح ولا بدوي، ولكن شيئاً غير سويّ بينهما، يدعى «جديع»، وأصله من أطراف جبل شمَّر، اقتحم بابنا نهاراً، ليحذرنا لنقوم بحزم أمتعتنا نهائياً، وأن نستعد للمضي في اليوم ذاته.

«حين ابتعدنا عن البيوت والبساتين، قادنا جديع عبر طريق يطوق الطرف الجنوبي للوادي، حتى وصلنا، قبل الغروب، إلى الطرف الآخر، أو الطرف الشرقي للبلدة. هنا كان الموعد المتفق عليه مع مرافقينا؛ لكنهم لم يظهروا، وكان المانع خيراً، فقد دعوا إلى عشاء إضافي تحت سقف حُمُود ولم يكونوا راغبين بأن يخسروه. وهكذا توقفنا وعسكرنا وحدنا. ودعانا كبير هذه المنطقة، الواقعة على بعد أكثر من ميلين عن القصر، إلى العشاء، ومن ثم عدنا إلى متاعنا، لننام هناك. إن قضاء ليلة صيفية في الهواء

الطلـق على سـرير من الرّمل الناعم، لا ينطوي على عوز فـي هذه البلاد، ولا يُنظر إلى الشخص عند قيامه بذلك على أنه بطل.

«فـي الصبـاح الباكر، بينمـا كان كوكب الزُّهرة لا يزال ظاهراً كقطـرة فضية ذائبة في زرقة السـماء الرّمادية، وصـل ثلاثة من جماعتنا ليعلنوا أن البقية سـيأتون للتو. وكوننا تشـجعنا لهذا النبأ، فقد عزمنا أن نبدأ بالمسـير دون أي تلكؤ، وقبيل شـروق الشـمس تسلقنا الانحدار الشديد للضفة الجنوبية، ومن هناك حصلنا على منظر مدهش لمنطقة الجـوف بكاملهـا، قصرهـا وأبراجها، بسـاتينها وحدائقها، في ضوء الصبـاح الوردي، وخلف الصّحارى الشمالية المفزعة الممتدة حتى البعيد. ثم هبطنا على الجهة المقابلة للمرتفعات الفاصلة، ولم نعد نرى الجوف ثانية حتى - من يعلم متى؟».

* * *



William Gifford Palgrave.

صورة 9: وليَم غيفورد پالغريف

الفصل العاشر

رحلات پالغريڤ – عبور النّفود

في طريقنا الآن نحو الجنوب الشرقي، عبر أرض منبسطة واسعة تتنوّع بين آكام رملية مغطاة بشجيرات الغَضا، التي وصفتها مسبقاً، لذلك كانت جمالنا ميّالة بشكل أكبر لتحصد المراعي على أن تقوم بمهمتها في السفر قدماً. توقفنا قرب أجمة كبيرة من هذه الشجيرات خلال فترة الظهيرة، ترتفع عشرة أقدام على الأقل. وقمنا ببناء ما يشبه الكوخ من الأغصان المتكسرة للنباتات المجاورة والمنظمة بشكل يلائم استخدامها كمظلة، وبذلك انقضت ساعات الظهيرة بحرارتها الشديدة حتى جاء كل أعضاء المجموعة.

«كانوا همجيين، بل متوحشين، مثل أغلب الشرارات، سواء كانوا شيوخاً أم عامة؛ ولكنهم قد كانوا إلى حدّ ما يخشون هيبة حُمُود، وكانوا أكثر رهبة من توقع المثول قريباً أمام الحضرة العتيدة لطلال شخصياً. كان جميعهم مسلحين بالكامل، ويرتدون أفضل ثيابهم، تجهيزات أجدر أن تكون لفزاعة أو لرجل إيرلندي في مهرجان. ثياب خارجية بالية حمراء؛ عباءات تشغل الرّقع فيها مساحة أكبر من القماش الأصلي، والأسوأ من كل ذلك، الشقوق المفتوحة الصّارخة للترقيع، ولكن لم يتم لها ذلك؛ وغلايين تبغ صغيرة ومكسّرة، ودون سراويل نهائياً (بالمناسبة، كل العرب الأصليين لا يرتدون السّراويل الدّاخلية) ووجوه نحيلة بسبب اعتياد الجوع، وسوداء متسخة

ومتبقعة بفعل الطقس - هذا كان حال الزعماء أولي النسب من العزّام، في طريقهم إلى مقام الحاكم. وكان معهم اثنان من بدو قبيلة شمَّر، أفضل بدرجة في المظهر والشخصية من الشرارات؛ وأخيراً، ثلاثة رجال من الجوف، بدوا كنبلاء وسط هؤلاء الشّذّاذ. أمّا بالنسبة لي أنا وصاحبي، فأنا واثق من أن القارئ سيعدّنا طواعية الأكثر تأنقاً في المجموعة. وهكذا انطلقنا سوية.

«في الصباح التالي، بعد شروق الشمس بقليل، بلغنا وادياً كلسياً أبيض، تحيط به تلال منخفضة من الطين والرّمال. هنالك يوجد «بئر شقيق» Shekeek الشهير، ومنه ملأنا قِرَبنا، وبما أنه لا يوجد مورد ماء آخر أمامنا لغاية مسير أربعة أيام وسط الطرق الرّملية، فكان هذا الماء طبعاً حتى الوصول لأطراف جبل شمَّر.

«بنات الصحراء الكبرى، التي يطلق عليها العرب اسم «النّفود» أي مسالك الرّمال، لهنّ شِبهٌ بالغ بأمهنّ القاسية. وما قد قيل في المناطق الأخرى عن نشأتهنّ، وامتدادهنّ، وتفرّعهنّ، وعن صلتهنّ بالدَّهناء Dhana، أو الرّبع الخالي main sand waste في الجنوب، ممكن أن يعفيني من الدخول هنا في الوصف الدقيق فيما يتعلق بتفاصيلهنّ الجغرافية؛ ويكفي حالياً أن نقول إنهنّ بناتٌ دخيلات - وممكن أنه من غير اللائق أن يطلق عليهم ذلك - على محيط الرّمال الواسع الممتد على ثلث مساحة شبه الجزيرة تقريباً، الذي قمن بالإغارة على وسطه ونجده الذي يُعدّ خصباً نسبياً، بل وفي بعض الأماكن اقتطعنه تقريباً. إنّ صفاتهن العامة، وأنا واثق من ذلك، ستقدّم عنها الصفحات التالية فكرةً صحيحة إلى حدّ لا بأس به، وأيضاً عن الدَّهناء Dahna، أو «الصحراء الحمراء» نفسها. إن العرب، وكونهم ميالين دائماً إلى التخصيص بدلاً من التعميم، يعدّون هذه التيارات الرّملية بالعلامات[1]، ولكنهم جميعاً يمكن أن يشيروا إلى أربعة مراكز أساسية، وكل مَن يجتاز المركز فمن الضروري أن يعبر اثنين منها، ويمكنه حتى ثلاثة، كما حصل معنا.

---

(1) يسمّى المسلك الرّملي في مصطلح البادية بجزيرة العرب: الخِلّ، ويعني الدّرب المار برمال الصّحراء بين كثبانها.

«إن الشكل العام للجزيرة العربية هو أشبه بنجدٍ مرتفع مركزي، يحيط به طوق صحراوي رملي في الجنوب والغرب والشرق، وحجري في الشمال. هذه الحلقة النائية هي محاطة بدورها بسلسلة جبلية، منخفضة وخصبة في معظم أجزائها، ولكنها عند وصولها إلى اليَمَن وعُمان تصبح وبشكل كبير مرتفعة وعريضة وخصبة، بينما يقع خلفها إطار ساحلي ضيق يتاخم البحر. سطح أواسط النجد يعادل تقريباً أقل من نصف شبه الجزيرة الداخلي، وتتأثر حدوده الخاصة أكثر، بل هي غالباً محددة بالتأكيد، بالمنعطفات والممرات الداخلية للنفود. إذا أضفنا لهذه الهضاب المركزية، أو النجد، ونقصد بهذه الكلمة المعنى الأوسع، منطقة الجوف والطائف وجبل عسير واليَمَن وعُمان والحَسَا (الأحساء)، أو باختصار، كل المناطق الخصبة الواقعة خارج تلك الدائرة، سنجد أن جزيرة العرب تحوي تقريباً ثلثي مساحتها من الأراضي المزروعة، أو على الأقل الأراضي القابلة للزراعة، والثلث الباقي عبارة عن صحراء لا يمكن استصلاحها، بشكل رئيس نحو الجنوب. وفي أغلب الجهات الأخرى تلك المساحات الكبيرة التي تُترك خاوية على خرائط هذه البلاد فهي كثيراً ما تكون دلالات على عدم وجود معلومات أكثر من كونها غير مأهولة حقاً. ولكن لا يزال أمامنا فقط شريط، ولحسن الحظ إنه شريط فقط، من الصحراء الخالصة تماماً، وبعدها أراضٍ أفضل منها بانتظارنا؛ وعلى هذا الأمل نستمدّ الشجاعة لنقتحم النفود بجرأة.

«كثيرون هم الذين قد سمعنا منهم من البدو وسكان الريف، ولذلك كنا قد عزمنا على مواجهة شيء مريع حقاً ومتعذّر جداً. ولكن، وخصوصاً في هذه الأيام الأشد حراً، فإن الواقع أثبت أنه أسوأ من أي شيء قيل أو تم تخيّله.

«كنا للتو نجتاز بحراً هائلاً من الرّمال الحمراء اللينة، على مدى البصر، متكوّمة فوق بعضها على هيئة سلاسل ضخمة، وموازية لبعضها من الشمال إلى الجنوب، موجة تليها موجة، كل واحدة منها منتفخة بمعدل ارتفاع يصل إلى مئتين أو ثلاثمئة قدم، بحواف منحدرة وقمم دائرية متجعدة بكل الاتجاهات بفعل العواصف المتقلبة للصحراء. في أعماقه يجد المسافر نفسه وكأنه سجين في حفرة رملية خانقة، تحفها

جـدران ملتهبـة مـن كل جانب؛ وفي بعض الأحيـان، بينما يكدح في تسـلق المنحدر، فهو يختبر ما يشـبه بحراً هائلاً من النيران يتعاظم تحت وطأة الرياح الموسـمية الثقيلة، ويتجعـد بالتيارات العابرة ليبدو كموجات صغيـرة حمراء وحارة. ليس هناك لا مأوى ولا مـكان للراحـة لنظر أو طرف وسـط هذا الوابل مـن الضوء والحرّ المسـكوب من الأعالـي على السـطح العاكـس المتلقي في الأسـفل. أضف إلى إرهـاق نهار الصيف الطويـل هـذا في الكـدح – ومن الأفضل أن أقـول صعوبة التقدم – عبـر التربة الرّخوة اللاذعة، السـقوط، والحيوانات نصف المخدرة، جرّاء قلة ساعات النوم المتقطع أثناء الليـل وعدم الحصول على أي قسـط مـن الراحة أثناء النهار بسـبب عدم وجود ملجأ، وقلـة الأكل والشـرب، إذ أن الماء الفاتر والمتغير اللون في القِرَب قلّ بسـرعة، وحتى بسـبب التبخر أكثر من الاسـتعمال، والشـمس العمودية، فهذه الشـمس، تلفح بلهيبها حتـى إن الثيـاب والمتـاع والمسـاكن كلها تصبـح لها رائحـة حريق، ونادراً ما تسـمح بلمسـها. إن ابتهاج البدو الشـديد اتسـع للتو وتبدّد، فواحد نحو الأمام، والآخر خلفه، وكل منهـم يتبـع طريقه في صمت لا يقطعه إلا زمجـرة غضب صادرة عن جمل عندما يُضرب، ليحث السير، وقد كانت هذه الزمجرة وفيرة.

«كنا قد غادرنا بئر شقيق في العشرين من شهر يوليو، بعد الظهر بقليل. تابعنا مسيرنا بقية ذلك اليوم وتقريباً طوال الليل، لأنه هنا كانت ثلاث أو أربع سـاعات للاسـترخاء، مـن ضمنها العشـاء، كان كل ما أمكننـا الحصول عليه، لأننا إذا لـم نبلغ الطرف الآخر مـن النّفود قبـل أن ينفذ مخزوننـا من الماء سـنهلك لا محالة. بالتأكيـد، خلال الأربع والعشـرين سـاعة الماضية في هذه الممرّات، لنسـمّها باسـمها العربي، لم نتوقف إلا سـاعة واحـدة. يوم الاثنين، الحادي والعشـرون مـن يوليو، انقضى ببطء شـديد، أبطأ بكثير مما يبدو، في الكدح ذاته، وسط المنظر الثابت. والرّمال الرخوة لا تفسح المجال لأي حيـاة نباتية؛ حتى الغَضا، التي كغالبية نباتـات الفَرْبيون euphorobias، لا يتطلب بقاؤهـا التربـة أو الرطوبة، فهي هنا هزيلة ونموّها ضئيل؛ وليس بإمكانها توفير الظل أو الـكلأ. أحياناً يظهر نوع من الأثر، وغالباً لا يوجد بتاتاً؛ فالسـطح المتحرّك لا يترك أي

أثر لأولئك الذين عبروا فوقه مؤخراً.

«لاحظنا هنا من خلال سلوك أصحابنا من قوم الشّرارات، بشكل خاص الشبّان منهم، نوعاً من قلة اللياقة المتغطرسة، التي جعلتنا نعتمد على حرّاسنا بشكل أكبر؛ لأنه من عادات البدوي، عندما يفكر في نهب أو نكوص، أن ينظر في أساس هذا الأمر، فإذا وجد أي دليل على الجبن أو الخضوع في ضحيته المرتقبة، اتخذ ذلك كإشارة للمضي قدماً. فكانت الخطة الأنجع في هذه الحالة اتخاذ شحنة الغضب والتزام الصّمت، وتأنيب قاسٍ من حين لآخر من باب التخويف، وهذا كثيراً ما يروّع المرافقين، تماماً مثلما يتقلص نباح كلب تحت نظرة ثابتة. ولذلك فقد كان هذا سلوكنا في الوضع الرّاهن. أحياناً كنا نبقى منفردين لساعات، وعندما نكون جنباً إلى جنب مع المريبين، نتحدّث قليلاً، وذلك القليل يمكن أن يكون أي شيء عدا عن كونه ودّياً. ولم يمض وقت طويل حتى كان أكثرهم وقاحة مرتبكاً وخجولاً، وتراجعاً للخلف، بينما كان كبير العزّام العجوز، بوجهه الذي أشبه بتفاحة برية ذابلة، قد حثّ جمله للتقدم وسار بمحاذاتي، بذريعة طلب نصيحة طبيّة، ولكن في الواقع قام بذلك ليكون عرضاً للصداقة والاحترام. قابلت خطواته بالطبع ببرود وتحفظ عابس؛ وهنا بدأ بالاعتذار عن «الغشم»، أو «المهرّجين الرّعاع» من جماعته، مؤكداً لنا أنهم لم يكن لديهم أيّة نية سيئة؛ وكان ذلك نقصاً في التربية الجيدة فحسب؛ لأنهم كلهم كانوا إخواننا أو خدمنا، إلخ إلخ.

«علمت فيما بعد من بدو شمَّر ومن رجال الجوف أن شخصيات الشرارت الاعتبارية، مفترضين أن لدينا أكواماً من الثروة المودعة عند حُمُود، قد اعتزموا جدياً أن يغتنموا فرصة عزلة الصّحراء هذه ليقوموا بسلبنا، وبعدها يتركوننا دون ماء أو إبل حتى يكون إيجاد الطريق والخروج من النّفود أمراً مستحيلاً علينا. هذا المخطط الصغير أفشوه للشمَّريين أملاً في إذعانهم ومساعدتهم. ولكن هؤلاء المعتادين بشكل أكبر على قيود قواعد الجوار، كانوا خائفين من العواقب؛ والعارفون أيضاً، أن طلالاً، إن علم بشكل أو بآخر بهذا الإجراء فمن الممكن جداً أن يعيّن نفسه الوارث الوحيد لنا،

والوصـي، وأكثـر من ذلك. وبالتالي رفضوا الانضمام لهـم، والمتآمرون الذين أدركوا من سـلوكنا أننا لدينا شـك في نواياهم سـارعوا لإخفاء الأمر قبل أن نصبح في موقف لتسوية وضعهم في حائل بتقديم شكوى بعزمهم على الخيانة.

«قبيـل الغـروب في اليوم التالـي أصبحنا على مـرأى قمتين هرميتيـن منعزلتين من الغرانيت الأسـود، ترتفع وسـط أمـواج الرّمال الممتـدة أمامنا. «أعلام السّـعد» يطلق الناس عليهما هذا الاسـم، لأنهما دليل على أن ثلث المسـافة من بئر الشـقيق إلى جبل شـمَّر قـد انقضت هنا. إنهما يرتفعـان كجزيرتين، أو بالأحرى مثـل الصخور التي تبدأ عنـد البحر قـرب مدخل الطاغـوس Tagus، أو مثل جـزر المالديف في وسـط أعالي المحيـط الهنـدي. أساسـها يجب أن يكون من قاعـدة صخرية تنتشر فوقهـا هذه الطبقة العلويـة الرّمليـة مثل مياه النهر فوق حوضه؛ وسـنجد لاحقاً ظاهرة مشـابهة في مواقع أخـرى فـي الصحراء. الطبقـة التحتية هنا مـن الواضح أنهـا غرانيت، وأحياناً كلسـية. وبالنسبة لمتوسط عمق الرّمال، فأستطيع تقديره بحوالي أربعمئة قدم، ولكن في بعض المواقع أكثر من هذا؛ على الأقل صادفت حفراً بعمق عمودي منحدر يصل إلى ستمئة قدم بكاملها.

«مع مرورنا بـ «أعلام السـعد» لوَّح الظلام أمامنا، حتى حوالي منتصف الليل، حتى الآن حسـب مـا أحصيت بالنجوم، سـاعتنا الوحيدة، (وليسـت سـيئة في هذه السـماء الصافية)، عبرنا بملاصقة كتل الصخور السـوداء الضخمة. منّيت نفسي بالتوقف عبثاً، لنصف سـاعة فقط، بهذه المناسبة. «تابعنا التقدم»، وحتى ارتفع نجم الصباح بمحاذاة الثريّـا عندهـا فقط صدر أمـر بالترجّل. وسـقطنا أكثر من كوننا اسـتلقينا على الأرض؛ وقبل شروق الشمس كنا مرة ثانية نتابع طريقنا.

«وصلنـا للتـو إلى قمة جـرف رملي هائل. فقـال لنا جديع: «انظروا هناك»، وأشـار نحـو الأمام. بعيداً جـداً في الأفق البعيد ظهـرت قمة زرقاء بلون السـحاب، وبالقرب منهـا قمة أخرى. وقـال دليلنا «تلك هي جبال جُبّة Djobbah، والحدود الأقرب لجبل شمَّر». بالنظر إلى قِرَب مائنا المرفرفة على جنب جملنا، أول ما فكرت به كان: «كيف

سنبلغها؟» والمجموعة كلها بدت وكأنها تفكر بالأمر ذاته، لأنهم حثّوا السير أكثر من ذي قبل.

«ولكن كلما تقدمنا أكثر غدت الصحراء أسوأ، وأكثر قفاراً، وأكثر يأساً بتموجاتها القاحلة؛ وبحلول الظهر كانت جماعتنا تتشتت بمعنى «كل رجل مسؤول عن نفسه» sauve qui peut؛ البعض كان قد استنفد مؤنه، الصلبة والسائلة، وآخرون كانوا مزودين بكميات ضئيلة جداً؛ كلٌّ لكز دابته ليصل إلى أرض الراحة والأمان. أمّا أنا وجديع وصاحبي فقد بقينا وبشكل فطري سوية. وفجأة استدعى انتباهي عصفوران أو ثلاثة، تغرّد تحت شجيرة على جانب الطريق. كانت أول طيور نصادفها في هذه الصحراء، وكانت دليل على اقترابنا من المزروعات والحياة. وفكرت بحكاية سمعتها في طفولتي، بالقرب من راحة المدفأة، كيف أن بعض البحارة المبحرين بعيداً، كولومبوس وطاقمه، إن أسعفتني ذاكرتي، وبعد أيام وشهور في المحيطات المريعة، رحّبوا بطائر، ظهر من شواطئ غير مكتشفة بعد، كان أول ما استقر على ساريتهم. سقط صاحبي باكياً من شدة الابتهاج.

«ولكن كان لا يزال أمامنا طريق طويل، وتقدّمنا بكدّ طوال ذلك المساء مع توقف لساعة على الأكثر لتناول العشاء الأكثر هزالة، وعقب ذلك كل الليل صعوداً ونزولاً في المتاهات المتموجة، مثل أشخاص في دائرة الساحر، مقدر لهم المسير دون أيّ تقدم».

«طلع الصبح علينا ونحن لا نزال نكدح وسط الرّمال. وتحت ضوء النهار رأينا أصحابنا المشرّدين يبدون كبقع سوداء مترامية هنا وهناك، واحد متقدم بعيداً على ناقته الهزيلة، وآخر في المؤخرة مترجل، ويحثّ بعيره المتهالك على النهوض بغرز إنش من سكينه في فخذه، وثالث متخلف في البعيد البعيد. كل واحد لنفسه والله لنا جميعاً! - هكذا أسرعنا في تقدمنا، نتطلع قدماً بلهفة لمرتفعات جُبّة، التي لا يمكن أن تكون الآن بعيدة. عند الظهر أصبحت على مرآنا مباشرة، قريبة على يميننا، جروف برّية ومدهشة، ترتفع تماماً على حافة بحر الرّمال. أبحرنا بمحاذاتها لبعض الوقت.

«يوجد أمامنا هنا مجموعة من صخور الغرانيت السوداء، المخططة بالأحمر، ويصل ارتفاعها إلى حوالي سبعمئة قدم تقريباً؛ خلفها يقع منبسط واسع قاحل، جزء منه أبيض اللون ويغطيه الملح، وجزء أرض خضراء محروثة، وترصّعه أجمات النخيل، وتمكنا من تمييز وسطها، وليس في البعيد، قرية جُبّة، المشابهة للجوف في الترتيب والمظهر العام، فقط كانت أصغر، وليس فيها قصر أو أبراج. ومن وراء الوادي تلألأت سلسلة أخرى من التلال الرّملية، لكن بدت أقل وحشة وإقفاراً من تلك القابعة خلفنا، وفي البعيد سلسة جبال شمَّر الرئيسية، طويلة أرجوانية ومسننة ذات شكل ولا أروع. وعند وصولنا هناك وبعد أن امتطينا دوابنا، كما فعلنا لاحقاً، كانت المرتفعات على يميننا، كان علينا أيضاً أن نرى في الجنوب الغربي البعيد رقعة خضراء تلوح في الأفق، حيث تتجمع أشجار نخيل تيماء، المكان المعروف في التاريخ العربي، والبعض يعتقد تطابقها مع تيمان المذكورة في الكتب المقدسة.

«ولكن في هذه اللحظة فإنّ قطرةً ماء عذب وظلاً يقي من شمس يوليو كان يعني بالنسبة لنا أكثر بكثير من تيما وتيمان الموجودة في أيما وقت. وجملي أيضاً لم يكن فاقداً مداركه كلياً، لأنه لم يكن ليملكها أصلاً، ولكنه كان يتقدّم على قوائمه بصعوبة شديدة، في حين كنت منهكاً جداً لأتمكن من حثه بقوة، وأخذنا ساعة كاملة لنجتاز الشريط الأبيض الضيق المكون من الملح والرّمل والذي ما يزال يحول بيننا وبين القرية.

«بدون جدران حدائقها فقد اختيرت الخيمة المناسبة تماماً العائدة لدليلنا الكريم، وهنا كانت زوجته وعائلته ينتظرون بلهفة سيدهم. دعانا جديع - وبالتأكيد طبقاً لعادات شمَّر لم يكن ليقوم بأقل من ذلك - لنتقاسم معه مائدته ومسكنه، ولم يكن لدينا وسيلة أفضل من قبول كليهما. وهكذا تركنا إبلنا تندفع إلى الخارج مثل الأموات أو المحتضّرين بمحاذاة الخيمة، ودخلنا لنشرب الماء الممزوج بالحليب الحامض». وهنا استراحت القافلة ليوم واحد.

« غادرنا جُبّة مع شروق الشمس في الخامس والعشرين من يوليو، مجتازين

الوادي المؤدي إلى الجنوب الشرقي، ودخلنا مرة أخرى في الصّحراء الرّملية، ولكنها صحراء، وكما أشرت مسبقاً، ألطف وأقل قساوة من النّفود المريعة التي كنا فيها قبل يومين. هنا تتناثر فوق الرّمال الشجيرات بشكل أكثف، وليست خالية تماماً من العشب والنباتات العشبية؛ بينما السطح المتموج، الممتد من الشمال إلى الجنوب حسب القاعدة العامة لهذه الظاهرة، فالآثار عليه أقل عمقاً ولكنها ليست غائبة تماماً. استمرينا في التقدم طوال اليوم؛ وعندما هبط الليل وجدنا أنفسنا على حافة منخفض واسع يشبه القمع، حيث يتراجع الرّمل من كل الجهات ليترك في الأسفل طبقات جيريّة جرداء؛ هنا ومضت أضواء وسط خيام بدو في أعماق الوادي تدعونا لنجرب حظنا في عشاء خفيف قبل الاسترخاء في الليل. ولكن صحبتنا ضجة كبيرة في هبوط التجويف، كانت المنزلقات الرّملية شديدة الانحدار: بينما ذكرني شكلها الدائري وعلاماتها الحلزونية بالكتاب الخيالي لإدغار پو «الدّوّامة» Edgar Poe's imaginative 'Maelstrom'. كان العرب الذين تعود إليهم نار الحراسة هذه رعاة لقبيلة شمَّر الكبيرة، وهذه المنطقة، السهل والجبل، تسمّى باسمها. رحبوا بنا لنشاركهم عشاءهم؛ وكان طبق من الأرز الجيد بدلاً من الفطيرة الخالية من الطعم دلالة على الاقتراب المؤكد من الحضارة.

«تابعنا مسيرنا مع انبلاج النهار، والتقينا الكثيرَ من الإبل والجمّالين، إضافة إلى بعض الغنم والماعز. كنا قد خرجنا تماماً من البقعة الرّملية قبل الظهر، ودخلنا في منطقة منحدرة ذات أرض صلبة مفروشة بالحصى. هنا نعمنا بساعة استراحة في وسط النهار في ظل تجويف طبيعي، محفور في صخرة عالية من الغرانيت، كانت حارساً متقدماً للكتلة الرئيسيّة لجبل شمَّر. ارتفعت هذه السلسلة الجبلية أمامنا، لا تشبه كلياً أيّة سلسلة أخرى قد شاهدتُها؛ إنها كتلة كبيرة من الجروف والحجارة، متكدسة فوق بعضها باضطراب غريب، تتخللها أودية خضراء مأهولة بالسكان.

«لم تكن الشمس قد غربت عندما وصلنا إلى قرية قنا Kenah الجميلة، وسط بساتين ومياه – ولكن لم يعد يوجد جداول جارية كتلك في الجوف، إنها فقط وسائل ريّ صناعي عبارة عن آبار ودلاء. وعلى بعد من البيوت تقف مجموعة أشجار مؤلفة

مـن ثلاث أو أربع أشـجار وارفة الظـلال، مدعاة لتفاخر الفلاحين هنـا، كما كانت في فلسـطين. كان ترحيب السـكان، عندما ترجلنا أمام أبوابهم، ودوداً ومضيافاً، بل حتى كان مهذبـاً ومراعيـاً لنا؛ وللتـوّ كانت وجبة جيدة مـع طبق من العنب الطـازج للتحلية موضوعـة أمامنـا في شـرفة بيت صغيـر جميـل، ذكّرني كثيـراً بكوخ إنكليـزي، حيث دعانـا الرجل الطيّب صاحب المنزل لقضاء فترة المسـاء. أبدى الجميع رغبة كبيرة في الاسـتفادة مـن مهاراتنا الطبيـة؛ وكان جوابنا أنه لا يمكننا أن نفتح متجراً بشـكل ملائم إلا في العاصمة حائل، والعديد منهم أعلنوا عن قرارهم بزيارتنا هناك؛ ووفوا بوعدهم فيما بعد، على الرّغم من أن ذلك كلفهم رحلة لأربعة وعشرين ميلاً تقريباً.

«نهضنـا فـي الصباح الباكـر. في الطريـق، الذي كان واضحـاً وممهـداً، الواقع بين حافتيـن صخريتيـن شـديدتي الانحدار، ترتفعان فجأة عن سـهل منبسـط أخضر؛ كان الطريق يهبط أحياناً في ممرات عميقة، وأحياناً كان يتسع إلى مساحات أعرض، حيث تظهر الأشجار والقرويون، بينما كان يتزايد عابرو السبيل، الراجلون والراكبون، أفراداً وضمـن مجموعات، كلما اقتربنـا من العاصمة. كان هناك سـمات حداثة وأمن تحيط بالمنـازل والأراضـي المزروعـة والتي مـن الصعب إيجادهـا هذه الأيام فـي الأجزاء الأخرى للجزيرة العربية، باسـتثناء عُمان وحدها. ويمكن أن أضيف إلى ذلك التواجد المتكرّر جداً للأشـجار الصغيرة وأيضاً للأراضي المسوّرة حديثاً، منظر يدعو للبهجة، والـذي يزيّنه أكثـر الانعدام التّام للخرائب، وهو الأمر الشـائع جداً في الشـرق؛ وبهذا فـإن التأثير العـام الذي يقدمه جبل شـمَّر، بالمقارنـة مع معظم المقاطعـات والممالك حوله، قريباً أو بعيداً، هو أنه تلك العملة المسـكوكة حديثاً، في كل وضوحها وتألقها، وسـط كومة بائسـة من العملات المشـوهة. إنها خلق جديد، وتظهر أن جزيرة العرب تقـع تحـت حكم أفضـل منه في أغلـب البقاع: يقدّم الاسـتنتاج إقناعاً أكبـر بحقيقة أن الخصـب الطبيعـي والتلقائي لجبل شـمَّر يمكن أن يكـون المنطقة الأقـل تفضيلاً من المنطقة الوسطى الداخلية لشبه جزيرة العرب.

«نحن هنا تحت قاعدة جبل شـمَّر، التي ترتفع جروفها الحمراء على يميننا ويسارنا

بأشكال غريبة جداً، بينما يمنح صدع ضيق يهبط إلى مستوى السهل في الأسفل منفذاً للعاصمة. ومن الصعب جداً أن يتمكن جيش من عبوره دون إرادة السكان، هذا ما فكرت فيه؛ خمسون رجلاً ذوو بأس بإمكانهم أن يصدّوا المعبر في وجه آلاف؛ ولا يوجد أي مدخل آخر إلى حائل من الجهة الشمالية. تقع البلدة قرب مركز الجبال، وكانت لا تزال مخفيةً تماماً عن أنظارنا بسبب انعطافات الطريق وسط أكوام الصخور. وبين جُبّة وحائل، بدأت الأرض المنبسطة بالارتفاع تدريجياً، الأرض الممتدة بين سلاسل الجبال، التي يمتد طريقها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ليعبر ثلثي شبه الجزيرة العليا، ويشكل حصناً للبلاد الوسطى العالية. حيث تعني كلمة «نجد» حرفياً: «الأرض المرتفعة»، لتباينها مع الساحل والمقاطعات الواقعة على مستويات أخفض.

«كانت الشمس لا تزال على بعد ساعتين من الأفق الغربي، عندما شققنا الممرّ الضيق والمتعرّج، حتى وصلنا إلى نهايته. عندها وجدنا أنفسنا على حافة سهل واسع، يترامى أميالاً كثيرة طولاً وعرضاً، ويحيط به سور جبلي من كل جانب، بينما أمامنا تماماً، على مسير ما يقارب الربع ساعة، تقع مدينة حائل، محاطة بالحصون على ارتفاع عشرين قدماً تقريباً، وأبراج حصنية، بعضها دائري وبعضها مربع، وبوابات كبيرة ذات مفصلات على مسافات متفرّقة؛ وهي تعطي مظهر الأناقة ذاته، وهناك أيضاً شيء من الأناقة غير المنتظمة التي كنا عشقناها سابقاً في القرى الموجودة على طريقنا. لكن هذه كانت مدينة كبيرة تماماً، ومساحتها يمكن أن تستوعب ثلاثمئة ألف نسمة بسهولة، وكانت شوارعها وبيوتها متلاصقة مثل تلك التي في بروكسل وباريس. لكن عدد السكان في الواقع لا يتجاوز العشرين أو اثنين وعشرين ألفاً، نتيجة لوجود الكثير من الحدائق الكبيرة، والمساحات المفتوحة، وأيضاً الأراضي المزروعة، الموجودة ضمن الأسوار الخارجية، بينما يشغل قصر الإمارة الكبير بمفرده، في الأراضي الجميلة الملحقة به، حوالي عُشر مساحة المدينة الداخلية. لفت أنظارنا برج شامخ، بارتفاع حوالي سبعين قدماً، وهو حديث الإنشاء، ذو شكل بيضوي، يعود للمسكن الملكي.

وتزيّن السهل المحيط بالمدينة بيوت وحدائق منعزلة، وأملاك مواطنين أثرياء، أو أفراد مـن العائلة المالكة. وفي أطراف السّـهل المترامية تبدو البسـاتين العائدة لقفار Kafar والعـدوة A'dwah وغيرهـا من القرى، الواقعة عند فتحات الممـرات الجبلية المؤدية إلـى العاصمة. تظهر أسـوار المدينة وأبنيتها صفراء تحت شـمس المسـاء، والمشـهد بشكل عام يوحي بازدهار الأمن، ومبهج للنظر، على الرغم من أن افتقاره إلى الخصب المميّز للحياة النباتية في وادي الجوف. تتجمع بعض خيام البدو بالقرب من الأسوار، والعدد الأكبر من الفرسان والراجلين والإبل والحمير والفلاحين والقرويين والصبيان والنسـاء وغيرهـم، جميعهـم يمرّون ذهابـاً وإياباً إلـى أعمالهم المختلفـة، مما يضفي المزيد من البهجة والحيوية على المشهد.

«عبرنا السهل ووصلنا إلى مدخل المدينة، مقابل القصر؛ بعدها، دون مشقة، ونحن نمتطي جمالنا لنتقدم إلى الشـارع المسوّر عالياً، وأخيراً وصلنا إلى فسحة أمام القصر. كان ذلك قبل الغروب بساعة أو أكثر؛ كانت ساعات العمل اليومية قد انتهت في حائل، والفناء الخارجي حيث كنا نقف للتو كان مزدحماً بالمتسـكعين من مختلف الأشـكال والأعمـار. أنخنا إبلنا بالقرب من مدخل القصر، مع أربعين أو خمسـين بعيراً أُخر، ثم خطونـا نحـو الخلف لنريح أطرافنـا المنهكة جداً على مقعد حجـري مقابل للمدخل، وانتظرنا ما يمكن أن يحدث لاحقاً».

* * *



صورة 10: شيخ من شيوخ العرب

الفصل الحادي عشر

رحلات پالغريف - الحياة في حائل

حدثت حركة خفيفة في أول ظهور لنا. تم تبادل التحيات المألوفة بين هؤلاء الأقرب بحميمية؛ ومجموعة صغيرة من الأشخاص الفضوليين الذين اقتربوا ليشاهدوا من نحن ومن أين أتينا، احتشدت لتتحول إلى دائرة مزدحمة. طرحت أسئلة كثيرة، أولاً على قائدنا، الذي يعود أصله إلى جدّة، ثم علينا نحن أنفسنا؛ كانت أجوبتنا موجزة بشكل مقبول. في أثناء ذلك اقترب منا شخص مربوع وقسماته تحمل نوعاً من ابتسامة التهذيب وطيب المعشر، تتناسب مع منصبه في الاجتماع. ثوبه الأنيق والبسيط، والهراوة الطويلة الفضية المدورة في يده، وتحيته المحترمة، وأسلوبه الفخم المهذب، كل ذلك يدلّ على أنه أحد حاشية القصر. إنه سيف، مسؤول البلاط، الذي مهمته الاستقبال والتعريف على الغرباء. وقفنا لاستقباله ورحّب بنا بلباقة «السلام عليكم يا إخواني» بلغة صحيحة تماماً ولهجة يرغب بها أكثر النحويين دقة. فرددنا بتحية پريسيانية[1] Priscianic مماثلة. وكان أول سؤال «من أين جئتم؟ الخير معكم!». بالطبع عرَّفنا عن أنفسنا بأننا أطباء من سوريا، لأننا تخلصنا من الكمية الأكبر من بضائعنا في الجوف ونحن الآن نعتزم الاعتماد على خبرتنا الطبية وحدها. «ما الذي تريدون عمله في مدينتنا؟ وفقكم الله!» سألنا سيف. فكان جوابنا: «نتمنى التأييد من الله العلي ثم من طلال» متماشين مع الصيغة الأنسب المستخدمة في البلاد، التي

(1) نسبة إلى النحوي اللاتيني پريسيان.

كنا قد بدأنا نستشفّها. عندئذ بدأ سيف، الذي بدت عليه العزّة الآن، حسب متطلبات مهمته، بدأ بمديح كرم سيده وخصاله الحميدة الأخرى، مؤكداً لنا أننا بلغنا غاية قصدنا.

«ولكن يا للأسف! بينما كنت وأصحابي نتبادل نظرات التهاني المشتركة بهذه البداية الجميلة، استيقظت آلهة الانتقام لتطالب بحقها، فجأة تعكّر صفو الأفق بغيوم غير متوقعة ولا مرحّب بها. بلا شك إن قرائي مدركين مسبقاً أن الشيء الأهم بالنسبة لنا هو الصفة المستعارة، وعلى مقدمتها كل ما يتعلق بالأصل والصفات الأوروبية. في الحقيقة، إذا تمت معرفة أننا أوروبيون، ستكون كل العلاقات الحميمية والتعامل بإخلاص مفقودة وبلا رجعة، وسيكون تقدمنا إلى نجد مستحيلاً. كان هذا أقل شيء من الإرباكات التي يمكن أن تلازم مثل هذا الاكتشاف؛ وأخرى أسوأ من ذلك يمكن إدراكها جيداً. إلى الآن لم يحدث شيء قادر على إثارة شكوك جدية؛ فلم يتعرّف إلينا أحد، أو ظن أنه يعرفنا. نحن أيضاً، من جانبنا، اعتقدنا أن غزّة ومعان وربما الجوف كانت المواقع الوحيدة التي نخشى فيها هذا التعرف. لكننا قد قدَّرنا بمعزل عن مضيفنا أنَّ الخطر الحقيقي الأول كان مدخراً لحائل، على الحدود المتاخمة تماماً لنجد، ومع الحزام الصحراوي بيننا وبين معارفنا القدماء.

«فبينما كان سيف يسرع في القيام بالإجراءات بلطافته، لمحت وسط حشد المتفرجين شخصاً مألوفا بالنسبة لي منذ ستة أشهر في دمشق، وهو معروف جيداً لدى الكثيرين أيضاً، تارة كتاجر، وتارة أخرى بالمتاجرة، وحيناً أنه متعهد البريد، داهية، مغامر ونشيط، وهو تقريباً يناهز الخمسين من العمر، ومقرّب من الكثير من الأوروبيين البارزين في سوريا وبغداد، إنه باختصار، مألوف لكل أنواع الرجال، وليس من السهل خداعه من أي أحد.

«بينما كنت أحدّق لا إرادياً بخوف على أصدقائي، وما زلت أشك هل بالإمكان أن يكون هو، كل شكوكي بدّدت بسلاماته المرحة، وبنبرة الصوت الدالة على الثقة لأحد المعارف القدماء، متبوعة بتساؤلاته عن الريح التي حملت بي إلى هنا، وعمّا نويت عمله في حائل.

«تمنيت من كل أعماقي – لو كان في مكان آخر، لم يكن لدي شـيء لأفعله سـوى «نظرة ثابتة فارغة» ومن بعدها الصمت.

«لكـن المحن لا تأتي فرادى. فبينما كنت متستراً فـي وضعٍ دفاعي ضد عدو خطير متمثلاً بصديقي التلقائي واللّيّن، اقترب رجل طويل بملامح شـريرة يكتسي لباساً يدل على أنه من القصيم، وقاطع بفظاظة «وأنا أيضاً رأيته في دمشـق»، مسـمّياً بنفس الوقت مكان وزمان اللقاء، واصفاً الظروف ومتعمّداً إثباتي كأوروبي حقيقي.

«هل التقى حقيقة بي كما يقول؟ لا أستطيع الجزم بدقة، إنَّ المكان الذي ذكره كان أحد الأماكن التي يرتادها بعض الجواسيس، وبعض المسافرين، وجميع النصّابيين من المناطق الداخلية، بل وحتى من نجد نفسـها، وأنا شـخصياً كنت حذراً من زيارتها غير مرة، من المحتمل جداً أن محدثي الفضولي كان من الحاضرين لمثل هذه المناسبات. حتى على الرّغم من إنني لم أتعرّف إليه بدقه الآن، كان هناك احتمال فعلي بعدم صحة ادعاءاتـه؛ وقـد قدم ليدعم الشـاهد الأول في أقواله، وتذكرت مأزقـي الأول، الذي ما كان سهلاً بل كان أسوأ.

«لكـن قبـل أن أسـتطيع أن أصيغ جواباً أو أن أصـل إلى موقف أتخـذه، تقدّم رجل ثالـث غيّر مجرى الأمور لتصبح الكرة في ملعبنا. وهو أيضاً سـلّم عليّ كصديق قديم، ثـم التفـت إلى البقية من حولنا، وهنا حدثت درجة اسـتثنائية من الفضول، وقال: «وأنا أيضاً أعرفه جيداً؛ عادة كنت ألتقي به في القاهرة، حيث يعيش بثراء في منزل كبير قرب قصر العيني، اسمه عبد الصّليب؛ متزوج، وله ابنة جميلة جداً، لديها حصان فارِه» الخ.

«بالنهاية كان هذا تلفيقاً خالصاً أو خطأً (لا أستطيع أن أحدّد) أفسح مجالاً للإنكار. قلـت: «أصلحـك الله، أنـا لم أعش في القاهـرة مطلقاً، وليس لي نعمـة أن يكون لدي فتيات شابات فارسات كبنات». بعدها نظرت بإمعان لمحققي الثاني، الذي لدي مطلق الحريـة للشـك بـه: «لا أتذكر أبداً إننـي رأيتك من قبـل، فكّر جيداً بكلامـك، كثير من الرجال بالإضافة لي شـخصياً لديهم لحى حمراء وشـوارب شـقراء»، جاهداً ألا أبدو واضحـاً «حـذراً بإجابته فـي هذا الخصـوص»، ولكن وكأنها مجرد اسـتيضاحات عن

الهوية بدقة. ولكن بالنسبة لأول الثلاثة لم أعلم ماذا أفعل أو أجيب، لذا تابعت النظر إليه بسيماء قاتلة من الحماقة الفضولية، كأنني لم أفهم قصده جيداً.

«لكن سيف، على الرغم من أنه شخصياً أذهل في البداية إلى حدّ ما بانهمار الاعتراف المفاجئ هذا، قد اطمأن للتو بعد خيبة الشاهد الثالث، واستخلص استنتاجاً ملائماً أن الاثنين الآخرين ليسا جديرين بالثقة أكثر منه. «لا تكترثوا بهما» صاح سيف موجهاً الكلام إلينا: «إنهما ثرثاران كاذبان؛ ومجرّد نمّامين؛ خلّوهما وحدهما، إنهما لا يستحقان الاهتمام، تفضلوا معي إلى القهوة في القصر، وأريحوا أنفسكم». بعدها التفت إلى صديقي الدمشقي المسكين، الذي كان خطأه الوحيد أنه مبالغ في الحق، فأنّبه بحدّة، ثم الباقي، وتقدّمنا، ونحن مبتهجون كثيراً للسير خلف القائد، لنعبر المدخل الضيّق الجانبي المعتم إلى المقر الملكي.

«بقينا هنا، كالعادة، ريثما أعدّت القهوة. عاد الآن سيف الذي كان قد تركنا لبرهة ليقول لنا إن طلالاً سوف يعود قريباً من مشيه المسائي في الحديقة حيث كان يستنشق الهواء، وأنه بخروجنا إلى الساحة الخارجية ستتاح لنا الفرصة هناك لنقدّم له احتراماتنا الأولية. وأضاف أننا بعدها سنجد عشاءنا جاهزاً، وستؤمَّن لنا منازل جيدة للمبيت؛ وأخيراً، أن القهوة بما فيها ستكون دائماً تحت تصرفنا طوال فترة تشريفنا في حائل.

«وبالتالي نهضنا وعدنا مع سيف إلى المنطقة الخارجية. كانت مليئةً أكثر من أي وقت بالظهور المتوقع للفراشات الكبيرة. بعد دقائق قليلة رأينا حشداً يتقدّم من الجهة العليا للمكان، تحديداً، تلك التي باتجاه السوق. عندما اقترب القادمون الجدد منا، رأيناهم مسلحين بشكل كامل تقريباً، وهيئتهم توحي بأنهم مواطنون ذوو شأن أكبر بقليل، ولكن جميعهم راجلون. في وسط الحشد، على الرغم من انفصالهم عن هؤلاء الذين يحيطون بهم، تقدّم ببطء ثلاثة أشخاص بارزين، يدلّ لباسهم وأسلوبهم، إضافة إلى المسافة المراعاة بالنسبة للبقية، على أنهم من طبقة أعلى. «ها قد أتى طلال» قال سيف بصوت منخفض.

«في الواقع كان الشخص الذي يتوسطهم الأمير شخصياً. له قوام قصير، عريض

المنكبين، ذو بنية قوية، وبشرة قاتمة جداً، وشعر أسود طويل، وعينان داكنتان حادتان، وملامح أقرب إلى الصّرامة منها إلى الانفتاح، يمكن أن يُعتقد أن عمر طلال أكثر من أربعين، على الرغم من أنه بالحقيقة سبع وثلاثون أو ثمانية وثلاثون على الأكثر. كانت خطواته مدروسة، وتصرفاته رزينة ومتغطرسة إلى حدّ ما. يرتدي ثوباً طويلاً من الصوف الناعم (الكشمير) مغطىً بسترة عربية بيضاء، ولبس فوق الكل عباءة مصنوعة بعناية من وبر الجمال من نسج عُمان، ونادرة جداً، وذات قيمة عالية جداً في هذا الجزء من جزيرة العرب. رأسه مزيّن بغترة مطرّزة، تنتشر عليها خيوط الذهب والفضة، ومحزومة بعصابة عريضة مصنوعة من وبر الإبل مضفورة بخيوط الحرير الأحمر، من صناعة مشهد علي[1]. علق على خصره سيفاً ذهبياً، وثيابه معطرة بالمسك، بدرجة مقبولة للأنف العربي أكثر منها للأوروبي. نظراته لا ترتاح للحظة، أحياناً تلتفت لرفاقه القريبين وأخرى إلى الحشد؛ نادراً ما كنت قد رأيت حقيقة «عيون النسر» في السّرعة والذكاء.

«إلى جانبه سار رجل طويل ونحيل، يرتدي زياً ذا قماش أقل كلفة نوعاً ما، ولكنه أكثر إشراقاً بألوانه وتطريزه من زي الملك نفسه. وجهه ينبيء عن ذكاء غير عادي وتهذيب لطيف؛ سيفه على أيّة حال لم يكن مزيناً بالذهب، امتيازات العائلة الحاكمة حصراً، لكن بالفضة فقط.

كان هذا زامل، أمين الخزانة ورئيس الوزراء الوزير الوحيد، وفي الحقيقة، الحاكم المطلق. رُفع من طبقة الفقراء على يد عبد الله الملك الأسبق[2]، الذي كان قد رآه في السّمات الرثة للأيتام وبمقدرات فذّة، واستمر في الحصول على التأييد غير المنقطع من راعيه، وبعد موته أصبح بمكانته، أو حتى أكثر معزة على طلال، الذي رفعه من وظيفة لأخرى حتى شغل المنصب الأعلى في المملكة بعد الملك شخصياً.

(1) مشهد علي لقب كان يُطلق على مدينة النَّجَف في جنوبي العراق.
(2) يريد عبد الله بن رَشيد، الأمير الأول المؤسس لإمارة آل الرّشيد في حائل.

وأما بالنسبة لعبد المحسن ذي الابتسامة الرزينة، المرافق الثاني في مسير الملك[1] المسائي، فلن أتكلم عنه في الوقت الحالي؛ بل سنتناوله بعد قليل كأحد المعارف الحميمين والصديق الدائم.

«وقف الجميع عند اقتراب طلال. أعطانا سيف إشارة بأن نتبعه، شق طريقاً من خلال الجموع، وسلَّم على سيده بالصيغة المعتمدة «السّلام عليكم، يحفظكم الله» في الحال ألقى طلال علينا نظرة ثاقبة، وطرح على سيف سؤالاً بصوت منخفض، فأجابه بطبقة الصوت نفسها. بعد ذلك نظر الأمير إلينا مرة أخرى، ولكن بتعبير على وجهه أكثر وداً. اقتربنا ولمسنا كفه المفتوح مردّدين التحية نفسها التي ردّدها سيف. لا انحناء ولا تقبيل يد أو أي من المراسم المألوفة في هذه المناسبات. ردّ طلال علينا تحيتنا، وبعدها ودون أية كلمة أخرى لنا، همس للحظه إلى سيف، ودخل من خلال بوابة القصر.

« «سيمنحكم مقابلة رسمية خاصة غداً»، قال سيف، «وسأهتم بأن تعلموا بالموعد في الوقت المناسب؛ وفي أثناء ذلك تفضلوا إلى العشاء». كانت قد غابت الشمس عندما عدنا إلى القصر. هذه المرة، بعدما قطعنا مستودع الأسلحة، انعطفنا جانبا إلى ساحة مربعة كبيرة، متميّزة عن السابقة، ومحاطة بشرفة مفتوحة، ومفروشة بالحصر. كانت نعامتان كبيرتان، قدّمتا هدية لطلال من بعض شيوخ الصّلُبَة، تتبختران إلى جانب السّور، وقد منحتا الكثير من التسلية للأولاد الزنوج ولمعاوني الطهاة في القصر. قادنا سيف إلى الجانب البعيد من الساحة، حيث جلسنا تحت الرواق.

«أحضر بعض العبيد السود العشاء إلى هنا؛ وكان كالعادة صحناً ضخماً من الأرز واللحم المسلوق، مع بعض القطع الرقيقة من الخبز غير المخمّر والبلح، وخليط من البصل واليقطين المفروم. طعم الطبخ كان أفضل ما تناولناه حتى الآن، على الرغم من

(1) يتحدّث پالغريف عن طلال بن عبد الله بن رَشيد بالإنكليزية بلقب الملك، ولو أن لقبه الصّريح بالعربية كان الأمير.

أنه ربما كان بالكاد يصلح للعسكر. أكلنا وجبة كبيرة، وشربنا القهوةَ في مضافة القهوة، ثم رجعنا وجلسنا قليلاً لندخن الغليون في الهواء الطلق. لن أحتاج للقول كم هي جميلة أمسيات الصيف، كم النسيم عليل، كم السّماء صافية، في هذه المناطق الجبلية.

قدّم بالغْريف مشهداً تاريخياً لصعود الأمير طلال إلى موقع القوة والأهمية في وسط جزيرة العرب، كان ثانوياً بعض الشيء بالقياس إلى الحكم الوهابي في نجد. كانت منطقة جبل شمَّر خاضعة للحكم الوهابي[1] خلال القرن الماضي، وكان الانضباط الصارم في العقيدة مطبقاً على سكانها. لكن، بعد أن اجتاح إبراهيم باشا الدّرعيّة Derreyeh، استعاد الناس جزءاً من حريتهم، ونشأ تنافس على الزعامة بين بيتين من الأشراف هما آل جعفر وآل علي. كان الزعيم السابق شاباً اسمه عبد الله، وكان ذا شخصية وذكاء غير عاديين، وغنياً ومحبوباً. لكنه هزم في الصراع، ونفي حوالي سنة 1820.

وصل مع فرقة صغيرة من التابعين له إلى وادي السّرحان، (الذي اجتازه بالغْريف في طريقه إلى الجوف) عندما هاجمهم بدو عْنِزَة، قُتل التابعون جميعاً، وتُرك عبد الله ليموت على الرّمال. الرواية العربية تقول إن الجراد قد أتى حولهم، نثر الرّمال بأجنحته وأرجله على جروحه، وبهذا توقف نزيف الدم، على حين وقف فوقه سرب من طيور الحجل لتحجب عنه أشعة الشمس الملتهبة. ثم مرّ بالقرب منه تاجر من دمشق بعربته الكبيرة، ويا لها من معجزة، أخذ الشاب وضمّد جراحه، وأعاد إليه الصحة بمنتهى العناية اللطيفة. وعندما استعاد نشاطه في دمشق، أعاده التاجر الشهم إلى جزيرة العرب.

ذهب أولاً إلى نجد، ودخل في خدمة الزعيم الوهابي، وارتقى لأعلى الرتب العسكرية، وأخيراً، وبشجاعته الشخصية، حصل على السلطة لفيصل[2]، الحاكم

(1) يعني السّلفي، وتسمية الوهابيّة شاعت لدى الكتّاب الغربيين.
(2) يريد الإمام فيصل بن تركي آل سعود، المؤسس الفعلي للدولة السّعودية الثانية. وكان فيصل ولي نعمة عبد الله بن رَشيد.

الحالي. فأعطاه الأخير بعدها جيشاً ليحمي إرثه في جبل شمَّر، وفي حوالي عام 1830، تحققت سيطرته في وطنه الأم. أبيدت عشيرة آل علي المنافسة، ولم يُترك منها سوى طفل واحد،، الذي هو طلال فيما بعد، الذي رُدّ إليه ما كان له من ثراء وشرف بكرم نادر، لكن ذلك كان من باب الحنكة السّياسية.

استغلّ عبد الله كل الموارد المالية ليدعم قوته. لقد وجدها ضرورية خلال اعتماده على فيصل ليؤسّس العقيدة الوهابية، واستخدم البدو حلفاءً لقمع التنافس بين الأشراف، وبهذا كسب القوة على حساب الشعبية. حيكت كثير من المؤامرات ضده، وكثير من المحاولات نُفذّت لاغتياله، لكنها كلها باءت بالفشل، كان حظه الجيد دائماً معه. في هذا الوقت كان يقطن جزءاً من العاصمة يختاره رؤساء العشائر والأشراف للإقامة، وحيث يحاط الملك الجديد برجال يساوونه بالعمر وحتى بألقاب أقدم لتحكم. ولكنه أضاف الآن جزءاً جديداً للبلدة، وهناك أقام الأساسات لقصر كبير مخصص لإقامة الملك المستقبلي ولإظهار كل عظمته، متوسطاً الشوارع والنبلاء الذي أحدثهم هو نفسه. كانت جدران البناء الضخم المخطط له ترتفع بسرعة عندما توفي فجأة في عام 1844 أو عام 1845، تاركاً ثلاثة أبناء: طلال ومتعب ومحمّد، الأكبر تقريباً في العشرين من العمر، إلى جانب عبيد، أخيه الباقي الوحيد، وكان في أواخر الأربعينيات.

يقول پالغريف: «كان طلال في ذلك الوقت ذا شعبية كبيرة، أكبر من شعبية أبيه، وقد أعطي صفات مبكرة تلك التي تميز الصفوة والتي رافقته إلى العرش. اتحدت كل الفرق لتعلنه الوريث الوحيد للمملكة، والخليفة الشرعي للسلطة الملكية، وبذلك كُرهت مطالبات عبيد المنافسة من البعض، وخشيت من الجميع، وأُخمدت منذ بدئها ووُضعت جانباً بلا خصام.

«في الحقيقة، ملك العاهل الشاب كل تلك المُثل العربية التي يحتاجها ليضمن حكومةً جيدةً وشعبيةً دائمة. فهو لطيف مع عامّة الناس، متحفّظ ومتغطرس مع علية القوم، شجاع وبارع في الحرب، مُحبّ للتجارة والبناء في أوقات السلام، كريم لدرجة

الإسـراف، ومع ذلك حريص على المحافظة على الوارد الحكومي الرّسـمي وزيادته، غير متزمّت في الدين، ولا ليّن بشـكل مشـين، كتوم في مخططاته، لكن لم يُعرف عنه مرة أنه قطع وعداً وأخلفه، أو أخلّ بعهد أخذه على نفسه. صارم في الإدارة، ومع ذلك مبتعـد عن إراقـة الدماء، لقد قـدَّم المثل الأعلى لمـا يجب أن يكون عليـه أمير عربي. يمكننـي أن أضيف أنه من بين كل الحكام والرؤسـاء، الأوروبيين والآسـيويين، الذين كانت لي فرصة التشـرف بمعرفتهم، أعرف القليل منهم المسـاوين لطلال بن عبد الله بن رشيد، بالمبادىء الصحيحة في الحكومة.

«كانـت أولى اهتماماتـه موجهة نحو تجميـل وتمدين العاصمة. تحـت توجيهاته، نُفِّذ بإشـرافه الشـخصي القصر الذي بدأ به والده واكتمل بناؤه بسـرعة. ولكنه أضاف إليـه مـا لم يكـن من المحتمل قـد فكر به والده، وهـو صف طويل من المسـتودعات، تابعـة ومخصّصـة للقصر ذاته. ثم إنه بنى مكاناً للسـوق مؤلفاً من حوالي ثمانين متجراً أو دكانـاً، مخصّصـة للتجارة والمهن العامة، وأخيراً بنى جامعـاً كبيراً مخصصاً لصلاة الجمعة. أنشـأ شـوارعَ حول القصر وفـي مختلف أنحـاء البلدة، وحفر الآبـار، وجهَّز حدائقَ واسـعة، إضافة إلى تقوية الحصون القديمة وإنشـاءات أخرى جديدة. نجح في الوقت نفسـه بـأن يحصل فوراً على إخـلاص وغياب عمّه الخطير، بإعطائه مسـؤولية تلك الحملات العسـكرية التي ناسـبت حيوية عبيد التي لا تهـدأ. كانت أول الحروب ضد خيبَر، ولكنني لم أعرف أسبابها. لكن بما أنَّ طلالاً قصد أن يقوّي الطاعة أكثر من أن ينـزل عقوبـة مدمّرة، فإنه، إلى جانب عبيد، ضم أخاه متعباً ليتحكّم بشراسـة الأول. غُزيـت خيبر، وأرسـل طلال إليها، كحاكم باسـمه، شـاباً من حائل حكيمـاً ولبقاً، وقد اجتمعت به فيما بعد عندما كنت بزيارة للعاصمة.

«بعـد فترة وجيزة، ضجـر الناس في القصيم من سـلطة الوهابيين، موجهين نظرهم باتجاه طلال، الذي بدوره وفّر مسبقاً ملاذاً، قوياً لا تنتهك حرمته، للعديد من المنفيين السياسـيين مـن تلك المنطقـة. أُجريت محادثات سـرية، وبلحظة إيجابيـة، إذا بجميع النجود في ذلك الإقليم – بعد تشـكيل ليس بالحقيقة مميزاً في جزيرة العرب – ضمّوا

نفسـهم إلى مملكة شمَّر[1] وذلك باقتراع متفق عليه بالإجماع. قدّم طلال مبرّراً ملائماً لملـك النجديين، عاهل مقاطعـة المنضمّين الأصلـي، الذي لم يتمكن مـن أن يقاوم تناهـي المطلـب العام، بل فُرض عليه، والواقع أنّ أوروبـا الغربية وحدها معروفة بهذا النموذج. أحسَّ فيصلٌ أنَّ الوقت غير مناسـب للشـجار مع القوة المتنامية بسـرعة التي كان هو بنفسـه أسّسـها منذ عدة سـنوات، وبعد خيبـة أمل أو اثنتين، تجـرّع الأمر على مضـض. كان طلال يعلـم ضرورة السـمعة العسـكرية العالية علـى الصعيدين كليهما الداخلي والخارجي، فتولى شـخصياً في هذه الفترة سلسـلة من العمليات العسـكرية ضـد بلدة تيماء وضواحيها، وأخيراً ضد الجوف نفسـها. كانـت حروبه ناجحة في كل مكان، وعدم تطرفه في النصر ثبّت حلفاً مع المهزومين أنفسهم.

«بالنسـبة لرعاياه الخاصين فإن سـلوكه طبيعي دائماً ليسـتحق طاعتهم وصداقتهم، وقليل من الحكام قد لاقوا أفضل من هذا النجاح هنا. كان يسـتمع لمطالب العامة مرة أو مرتين يومياً، ويسمعهم بصبر، ويقرّر بنفسه أدق الأمور وبضمير حيّ. بالنسبة للبدو، لـم تكن حصتهم في الحكم ضئيلة، وكان ينفذ القيود التي يفرضها، وكان يوليهم تقديراً عالياً، بعظيم حسن الضيافة التي لا يمكن أن توجد في أي مكان آخر في جزيرة العرب بأجمعها من العقبة إلى عدن. فكان عدد ضيوفه على وجبتي الغداء والعشاء لا يقل أبداً عن الخمسـين أو السـتين، وكثيراً مـا وصلوا إلى المئتين على المأدبـة، وإهداء اللباس والسّـلاح شـيء متكرّر، هـذا إن لـم يكن يحدث يوميـاً. من الصعب علـى الأوروبيين تقدير مدى الشـعبية الكبيرة التي يجلبها مثل سـلوك الأمير الآسيوي هذا. كان السكان والقرويـون فـي هذه الفترة يحبّونه، وذلـك للفوائد الأكثر ثباتاً لعدم الإخلال بالسـلام الداخلي، وانتعاش التجارة، واتساع البلاد، والنصر العسكري.

«كان معاديـاً جـداً لعقوبة الموت، والعقوبة الأكثر صرامـة حتى الآن، والتي عاقب بهـا الجرائم السياسـية، هي النفي أو السـجن. فـي الحقيقة، حتى في الأمـور المتعلقة

---

(1) أعود فأذكّر، أن پالغريف يتحدث عن دولة آل رشيد في حائل بتسمية المملكة Kingdom بالإنكليزيّة، لكنها في الواقع كانت إمارة Princedom.

بالقتـل أو القتل العمـد، فقد كان معروفاً أنـه يغتنم الخيارات المسـموحة في العادات العربية بين غرامة أو ثأر، ودفع الغُرم عن المذنب، وذلك بأن يهب عائلةَ القتيل دية دمه من ماله الخاص، وينبع ذلك من حسّ خالص بالإنسانية. وعندما ينفذ حكم بالإعدام، فإنـه يكون دائماً بضرب العنق؛ ولا يوجد بالحقيقة في جزيرة العرب أي أسـلوب آخر لتنفيـذ حكـم الإعدام. ومع ذلك فالضـرب بالعصا مألوف، وتتـم العقوبة على الظهر، وليس على أسفل القدم. إنها عقوبات شائعة للجرائم غير الخطيرة مثل السرقة والشتم أو الشجار، وفي هذه الأخيرة يأتي الطرفان كلاهما لأخذ نصيبه من العقوبة.

«إنه متسـامح جداً فيما يخص أتعابه العديدة، وبسـرعة يعفو عـن خطيئة أو إهمال؛ الكـذب وحـده هو الذي لا يغفـره، ومن المعروف عنـه أنه من كذب علـى طلال فإنه سيفقد نصيبه بأي أمل بالمصالحة في المستقبل».

بعـد وصف الحضـور البارزين المتواجدين بشـكل يومي مع الأميـر الرّفيع القدر، يصف پالغريف الاستقبال الخاص الذي حظي به ورفاقه:

«عندمـا انتهى طلال من الحشـد المختلط، توقف للحظة حتـى انضممنا إليه ثانية. طفقت التحيات البسيطة المألوفة تلقى ويردّ عليها. ثم قدّمتُ له المؤهّل الوحيد الذي بحوزتنـا، وهي القُصاصة التي كتبها حُمُود من الجـوف. ففتحها وناولها لزامل، الذي لديه مهارة بالقراءة أكثر من سيده. ثم ألقى جانباً كل رزانته، ورسم ابتسامة لطيفة، أخذ يدي بيده اليمنى وصديقي باليسـرى، وهكذا سـار معنا عبر الساحة، مارّين بالمسجد، ثم الأسواق، على حين شكل مرافقوه جداراً متحركاً من الخلف وعلى الجانبين.

«إنه مقتنع بالكامل بقرارة نفسه، من مظهرنا، أننا سوريّان؛ ولكنه ظنّ، ولو لم يستمر في هذا الظَّن الخاطئ طويلاً، أن لنا هدفاً آخر بالمجيء غير ممارسـة الطب. لكن وإن يكـن محقـاً لهذه الدرجـة، فإنه كان أقل حظاً فـي التأويل الذي اختـاره ليحل به لغزنا، وهو أنه تخيّل أن الهدف الحقيقي يجب أن يكون لشراء الخيول لبعض الحكومات[1]،

(1) نعم، كان ذلك أمراً معتاداً، وهو ما رأيناه في رحلة الإيطالي كارلو غوارماني عام 1864 (بعد عامين من زيارة پالغريف 1862-1863)، ثم في رحلة الزوجين البريطانيين آن وولفريد بلَنت

التي لا بدّ أن نكون عملاءها، الحدس الذي بالتأكيد يستحق التصديق. على أيّة حال، وعلى ما أعتقد، لم يشك طلال بالموضوع، وقد صمّم تلقائياً بأن يتعامل معنا بلطف في تجارة الخيول، وأن يدعنا نعقد صفقة جيدة، كما بدا بعد فترة قصيرة.

«وفقاً لذلك بدأ بسلسلة من الأسئلة والاستجوابات، وكلها بطريقة مرحة، ولكن حتى التدفق الكبير في استجواباته سمح لنا بسرعة أن ندرك ما ظن بنا حقيقة. باعتمادنا على قراراتنا المسبقة، كنا ممارسين للطب، ولنا أسرة نعولها، لذا فكنا متأملين نجاحاً جيداً تحت الرعاية الملكية، والكثير في الاتجاه ذاته، لكن لم يكن من السهولة تضليل طلال، وإبقائه على نظرته الأولى. عبرنا الشارع في هذه الأثناء، كان مليئاً بالمحدقين بالملك وبنا، وفي النهاية وصلنا إلى الباب الخارجي لدار كبيره قرب النهاية البعيدة للسوق، وهي دار حَسَن، تاجر من مشهد علي[1].

«تمركز على الباب الخارجي ثلاثة من الحاشية كحراس، والسيف بقبضتهم. أما البقية فدخلوا مع الملك ومعنا، اجتزنا الفناء، حيث أخذ بقية الرجال المسلحين مواقعهم، بينما ذهبنا نحن إلى المضافة. كانت صغيرة ولكنها مفروشة بشكل جيد. هنا أجلسنا طلال بجانبه بسلام في المكان الأعلى، وسمح لأخيه محمّد ولخمسة أو ستة آخرين بالدخول، وجلس كل حسب رتبته، أما حسن، فبما أنه سيد البيت، تولّى تأدية مظاهر الحفاوة.

«أُحضرت القهوة وأُشعلت الغلايين. وخلال ذلك جدّد ابن رشيد أسئلته، متجاهلاً بمهارة التعليقات الجانبية، تارة عن حكومة سوريا، وأخرى عن تلك في مصر، ثم عن البدو إلى شمال الجوف، أو عن قبائل الحجاز أو على ضفاف الفُرات، وهذا ليزداد

(1878-1879)، ورحلة البارون الألماني إدوارد نولدِه (1893). وأيضاً كان من الأوروبيين الذين قصدوا جزيرة العرب بحثاً عن كرائم خيلها وألفوا عنها كتباً ثمينة: الميجور روجر أپتون، الميجور جنرال وليَم تويدي، هومر داڤنپورت. وكنت قد أنجزت منذ مدّة ترجمة كتاب تويدي الثمين: *The Arabian Horse, its Country and People*، وسأضيفه إلى هذه السّلسلة إن شاء الله تعالى، وبعده كتاب أپتون: *Gleanings from the Desert of Arabia*.

(1) ذكرنا أعلاه أن مشهد علي لقب كان يُطلق على مدينة النَّجَف في جنوبي العراق.

معرفة من أين ولأي هدف في الحقيقة أتينا. ثم سـألنا عن الطب، ربما ليسـتوضح عما إذا كان لدينا الأسـلوب الصحيح للمختصين. ثم عـن الخيول، حول نفس الحيوانات النبيلـة التـي أبدينا فيها جهلاً غير عـادي لا يمكن غفرانه لدى رجـل إنكليزي، وهو ما آمل أن أعوّض لقرائي عنه لاحقاً. كانت كلها بلا جدوى، وبعد سـاعة كاملة نجح فقط صديقنا النبيل بذكائه أن يضع نفسـه في الجانب الأبعد عما كان فيه بالبداية. لقد شـعر بهـذا، وقـرّر أن تأخذ الأمور مجراها، وأن ينتظر مـا يقدّمه الوقت. وهكذا انتهى مؤكداً لنـا ثقته الكاملة وحمايته، عارضاً علينا بالإضافة إلى ذلك الإقامة في القصر. لكن هذا مـا رفضنـاه، لأننا كنا توّاقين إلى أن ندرس البلـدَ كما هو، ليس في بيئة ملكية، لذا طلبنا أن تكون إقامتنا قريبة من الأسـواق قدر الإمكان؛ وهذا ما وعد به، ولو أنه بدا جلياً إلى حدّ ما أنه منزعج من طرقنا المستقلة.

«أُحضـر إلينا الآن البِطيخ المقشّـر والمقطّع، مع درّاق بالـكاد نضج، لأننا في بداية الموسم، فتشاركنا في الأكل جميعاً. كانت هذه إشارة على انتهاء الجلسه، جدّد طلال عروض خدماته ودعمه، وأخيراً قادنا أحد أفراد الحرس الملكي إلى مكان إقامتنا.

«بدأ سيف الآن بالبحث عن منزل دائم ليبقينا فيه، وقبل المساء نجح في إيجاد منزل يقع في طريق يوصل إلى الزاوية اليمنى للسوق. وعلى مسافة ليست بعيدةً عن القصر. المنزل بحد ذاته مؤلف من شقتين مفصولتين بساحة غير مسقوفة، وبباب خارجي يفتح على الطريق، وفوق الغرف سـقف مسطح محاط بسـور عالٍ، وهاذا يتيح مكاناً ممتازاً للنـوم فـي الصيف. كان الموقع يشـغله واحد من حاشـية الملك هو حُسـين Koseyn المصـري، الذي أخلى المبنى بأمر من سـيف لأجل خدمتنا، وانتقل ليسـكن منزلاً في الجوار. تفحصنا المنزل فوجدناه مناسـباً إلى حد مقبول، كانت كل غرفة بحدود سـتة عشـر قدماً بالطول وثمانية أو تسـعة عرضاً، وبارتفاع متماثل، واحدة من المحتمل أنها هيئـت لتكون مستودع مؤونـة ومطبخ، والأخـرى ملائمة لتكون للسـكن. كانت هذه فتـرة الحـرارة العظمى في الصيف، وغرفة نوم ممكن أن تكون مجرد شـيء زائد، كان السـطح والهواء الطلق أفضل على كافة الأصعدة، وليس لنا أن نخشى التطفل، إذ يبلغ

ارتفاع جدران الفسحة ستة عشر قدماً أو أكثر. كان كل باب مزوّداً بقفل مميّز خاص، والمفاتيح هنا مصنوعة من الحديد، لذا كانت حائل في هذه الناحية أفضل من أي بلدة عربية كانت لي فرصة زيارتها، حيث كانت المفاتيح خشبية ثابتة، وبهذا تكون عرضةً للكسر وغير صالحة للاستعمال.

«ازدحم الفناء بسرعة بالزوار، بعضهم من القصر، وآخرون من البلدة. أحدهم كان لديه قريب مريض، توسّل إلينا لنذهب ونفحصه، وآخر لديه مرض شخصي، وثالث قد أتى بسبب اللطف الزائد أو الفضول؛ باختصار رجال من كل الحالات والأعمار، ولكن أكثرهم كانوا صريحين وودودين، لذلك تمكنا من توقع تعارف سريع جداً مع المدينة وكل من فيها.

« تسير طبيعة عملنا الآن نحو روتين يومي، على الرّغم من أنها أحياناً متنوعة بشكل مقبول بمصادفات عرضية. ربما من شأن ورقة تنتقى عشوائياً من كتابي، والآن تحفظ بنظام، أن تساعد في أن تضع أمام قرائي نموذجاً مقبولاً عن مسار حياتنا العادي والمجتمع في حائل، في حين أنها ستعطي فكرة إضافية مميزة عن المدينة والسكان أكثر من الذي قدمناه حتى الآن. إلى جانب ذلك فمن دواعي السرور استرجاع ذكريات زمن ممتع، وكل ذلك كان ملكاً لنا هنا؛ وأنا على يقين أن القارئ لن يكون بالكامل خالياً من بعض المشاركة بمشاعري.

«ليكن ذلك، العاشر من آب، الذي دوَّنت فيه ملاحظات سأجمعها مع بعضها وأملأ الفراغات. ربما كنت أخذت التاسع أو الحادي عشر، فجميعها متشابهة كثيراً، لكن اليوم الذي ذكرته يبدو أدق من الاثنين، ولهذا السبب الوحيد أفضّل أن أذكره.

«في ذاك اليوم، من عام 1862، بعد حوالي أسبوعين من إقامتنا في حائل، وعندما كنا بالتالي ملمّين بشكل كامل بأسلوب الحياة في مدينتنا، أنا سليم أبو محمود العيس[1] وبركات الشامي، وهو صاحبي، نهضنا ليس من أسرّتنا لأننا لا نملك شيئاً

(1) سليم أبو محمود العيس (أو العيص) كان الاسم الذي تقمّصه پالغريف في رحلته بجزيرة العرب.

منها، وإنما من سجاداتنا المبسوطة، واستفدنا من ميزة الهدوء في أول بزوغ للفجر، في حين أن النجوم ما زالت تُرى في السماء فوق سكان شمَّر النيام، لنغادر البيت من أجل مسير لطيف وغير مزعج قبل شروق الشمس، وقبل أن يخرج الناس إلى أعمالهم وإلى كدحهم. أقفلنا الباب الخارجي، ومررنا في عتمة الشفق إلى التقاطع المؤدي إلى السوق، الذي أتيناه من الجهة البعيدة أو النهاية الجنوبية الغربية، حيث تفصلها عن المدينة أبواب متمفصلة. كانت كلاب المدينة المتوحشة، التي تنبح وتعضّ المارين أيضاً على الطريق في الليل، شيء مخيف نوعاً ما، تنسحب خلسةً بلطف في الفجر، على حين تنوخ جمال هنا وهناك، والحمولة ما زالت على ظهرها، وسائسها نائم بجوارها قد أمضى الليل ينتظر افتتاح المخازن. مع أن الوقت كان باكراً، فقد افتُتحت البوابات مسبقاً، والحارس مازال يقظاً في محرسه.

«بعد مغادرتنا السوق، كان علينا أيضاً الذهاب خلال الشارع العريض عبر البيوت والحدائق المتداخلة بشكل جميل، إلى أن انتهينا أخيراً بالحائط الغربي للمدينة، أو، تقريباً إلى الجزء الجديد الذي أضافه عبد الله، حيث توجد بوابة عالية بين برجين جانبين دائريين أتاحت لنا مخرجاً إلى السهل المفتوح، الممتلئ في هذه الساعة بنسمات الحياة والبرودة العليلة. وإلى الغرب، وعلى بعد حوالي أربعة إلى خمسة أميال يرتفع جبل شمَّر بكتلته المسننة، شامخاً بذروته السوداء المدهشة، المحمرّة الآن بسبب انعكاس الفجر، مقابل السماء الزرقاء المتدرجة. تلتف السلسلة نفسها باتجاه الشمال لتلاقي المدينة، ثم تمتدّ بعيداً مسافة مسير عشرة أو أحد عشرة يوماً، بالتدريج ينخفض ارتفاعها لدى وصولها إلى مشهد علي ووادي الفُرات. إلى الجنوب منا توجد كتلة صغيرة من مجموعة جبال، بعيداً عن سلسلة جبل شمَّر أو جبل أجَا "Aja"، لإعطائه اسمه التاريخي، تتقاطع مع ممرّات عريضة تؤدي في الاتجاه نفسه إلى جبل سَلمى. ومن خلفنا تقبع المدينة.

«بدا قصر طلال مع حصونه البيضوية العالية، البيوت، الحدائق، الجدران، والبروج، كلها سوداء مقابل خيوط الضوء الأحمر الشرقية، وفي الخلف، قمّة هرمية تطل على

المدينة تقريباً، وتتصل بجبال أخفض مع الجبل الأساسي لتمتد إلى الشمال وإلى الجنوب، تلك الحدود الصخرية تحمي قلب المملكة الرئيسي. يمكننا فقط أن نميّز الآن في السهل نفسه تحت الشفق المبهم عدّة رقع داكنة تتناثر عشوائياً على سطحه، وهذه حدائق وبيوت ريفية تعود لعُبَيد وبعض الزعماء الآخرين، إضافة إلى البلدات والقرى الصغيرة، مثل قفار والعَدوَة، مع بساتين نخلها والإثل Ithel (شجر الصنوبر العربي) التي تداخلت الآن مع الغسق. ثمّة مسافر وحيد على جمله، ومجموعة من بنات آوى تتسلل إلى كهفها الصخري، وبعض الخيم البسيطة لبدو شمَّر، تلكم هي التفاصيل الأخيرة للمنظر. وبعيداً جداً فوق التلال الجنوبية يشعّ ألق نجم سُهيل Canopus، معلناً سنة عربية جديدة، بينما يقبع نجم القطب في الشمال منخفضاً فوق قمم الجبال.

«أسرعنا فوق الأرض المفروشة بالحصى إلى الجنوب، حتى تركنا خلفنا طول سور المدينة، ووصلنا إلى مجموعة الجبال الصغيرة التي سبق ذكرها. تسلقنا إلى مجموعة من الفجوات قرب القمّة، عندها، وعلى ارتفاع مئة قدم أو أكثر، تمكننا من رصد المساحة الكاملة للأرض وانتظرنا شروق الشمس. حتى قبل أن يلتمع الجُرُف الأعلى من جبل شمَّر بأشعتها الأولى، أو قبل أن يقطع الظل العملاق السلسلة الشرقية، رأينا مجموعات من الفلاحين، يجرّون حميرهم المحمّلة بالفواكه والخضار، يخرجون من الممرّات المنتشرة بين الجبال كأنهم جماعات من النمل، وببطء يقتربون من الطرق المؤدية إلى العاصمة. ويخرج فرسان من المدينة إلى الحدائق، وصفّ طويل من الإبل على طريق المدينة الغربي الذي ينعطف باتجاه حائل. انتظرنا مرتاحين في مرصدنا الصخري واستمتعنا بالمنظر حتى أشرقت الشمس، أخذ هواء الليل البارد يدفأ بسرعة ليصير نهاراً متقداً، إنه وقت العودة. لذا تركنا موقعنا العالي المنعزل ونزلنا إلى السّهل، حيث عدنا إلى بوابة المدينة ثم إلى السوق محتمين بظل الحصون الغربية.

«هنالك، كل شيء الآن يوحي بالحياة والحركة؛ بعض المخازن، الممتلئة بالأرز والطحين والبهارات والقهوة، وغالباً ما تخفي في الأعماق الداخلية للمستودعات

السجائر الأميركية الممنوعة، قد فُتحت؛ سلّمنا على أصحابها بينما كنا نمرّ، فردّوا التحية بتهذيب ومودّة. كانت تفرغ حمولات الجمال في الشوارع، ويقف البدو بحانبها، يظهرون بأيّ شيء عدا عن كونهم في موطنهم في المدينة. كان صانع الأحذية والحدّاد، وهي الحرف الرئيسة عند العرب، قد باشرا عملهما مسبقاً، وبعض المتفرجين الثرثارين قد تجمعوا حولهما. وعند الزاوية حيث ينتهي طريقنا المتقاطع بالسوق، جلست ثلاث أو أربع ريفيات، وأمامهن أكوام من ثمار البطيخ والقرع والباذنجان، وغيرها من محاصيل البساتين للبيع. بدأ صديقي بمساومة إحدى الفتيات الريفيات، وانتهى بأخذ حزمة من الباذنجان وبطيختين، كل واحدة منها أكبر من رأس إنسان، بمبلغ يعادل بنسين إنكليزيين. عدنا إلى البيت بهذه المشتريات، حيث أغلقنا وقفلنا الباب الخارجي، ثم أخرجنا من السلة المسطحة ما بقي من الليلة الماضية من خبز حائل الشبيه بالبسكويت، وأعددنا منه مع البطيخ فطوراً سريعاً. قلت سريعاً، لأنه وعلى الرغم من أنه مضى نصف ساعة على شروق الشمس، كانت هناك دقات متكررة على بابنا تدلّ على وصول المرضى والزوار: فالنهوض باكراً من العادات السائدة هنا، ويجب أن يكون السبب أنَّ وجود الإنارة الاصطناعية ضئيل جداً. ولكن لم نفتح مباشرة لأصحابنا، ولم يكن تأخرنا ليزعجهم، لكنهم يبقون مكانهم، يتحادثون مع بعضهم أمام بابنا حتى نسمح لهم بالدخول؛ حيث لا توجد قيمة كبيرة للوقت هنا.

«دخل شاب ذو مظهر حسن، يلتف بعباءة سوداء شائعة بين أفراد الطبقة الوسطى أو العليا في جزيرة العرب الوسطى؛ يحمل بيده محجاناً من خشب السِّدر أو lotos. دلّت قبضة السيف الفضية والكوفية اللامعة على أنه شخص ذو شأن ما، بينما أكدت خصل شعره السوداء الطويلة، وملامحه الوسيمة وبشرته الزيتونية الفاتحة، وطول قامته ومشيته اللينة، على أن أصله من جبل شمَّر، ويقطن في مدينة حائل؛ إنه عُجيل Ojeyl الابن الأكبر لعائلة كبيرة، ووريث دار لائقة وبستان يعود لوالده منذ عقود ليست ببعيدة، يقع في أحد أطراف المدينة على بعد مسير عشرين دقيقة تقريباً. كان يقتاد بيده أخاه الأصغر، صبي يبدو خجولاً وهو ذو بشرة فاتحة وقوام نحيل، ولكنه

كفيف تقريباً، وبوضوح يبدو أنه سقيم أيضاً. بعد انتهاء المراسم التمهيدية للتعارف مع بركات، تقدّم من صُفّة مجلسي، ووقف قبالتي، وحيّاني بأعظم احترام. معتقداً أنه شخص يليق التعرّف إليه، استقبلتُه بحفاوة كبيرة، وتوسّل إلي لأنظر في أمر أخيه.

فحصت الحالة، ووجدتها من ضمن حدود مهاراتي، ولا تتطلب أكثر من جرعة بسيطة من العلاج. وبالتالي بدأت بالمساومة على احتمالات الشفاء، ووجدت عُجيلاً مذعناً للشروط المقترحة، وبترتيبات قليلة، وقد درست كل النواحي، تم تأخير الدفع. إن العرب بشكل عام حريصون في المساومة وكريمون جداً في ساعة البذل والعطاء؛ وممكن أن يفنوا نصف يوم حول پنس واحد، ولكنهم من الممكن أن ينفقوا ما قيمته پاوندات لأول سائل. ولكن عُجيلاً كان أفضل مثال لصفات حائل، وعشيرة طي، الشهيرة على مر الزمان بعاداتها الكريمة ونبل شرفها. ومن ثم بدأت أقدم لمريضي العقاقير اللازمة لحلته، واستقبلها بذلك الشعور من الثقة المطلقة ونصف الإيمانيّة التي يظهرها العرب المثقفون لأطبائهم، الذين يرون أنهم يملكون كل قدسية وطاقة خارقة - بالمناسبة، إنه شعور لا تقل أهميته بالنسبة للمريض عنها لصاحب المهنة، والتي من الممكن أن يعزى إليها الجزء الأكبر لنجاح العلاج.

«خلال بقية فترة إقامتي في حائل، استمرّ عُجيل في كونه واحداً من أفضل أصدقائي، وعليّ أن أقول من أتباعي؛ كانت زياراتنا المتبادلة متكرّرة، ودائماً سارّة وودّية. وشفاء أخيه، الذي حدث في أقل من أسبوعين، عزّز صداقته، ولم يكن لديّ الحجّة لادعاء التقصير في الثواب.

«في أثناء ذلك أضحى الفناء ممتلئاً بالزوار. بالقرب من بابي رأيت وجه عبد المحسن الذكي المبتسم بوقار، حيث كان يجلس بين صبيين جميلين يرتديان ثياباً جميلة؛ كانا ابني طلال الأكبر سناً، بدر وبندر[1]؛ وكان حارسهما عبداً زنجياً يتأنق

---

(1) بعد زيارة پالغريف لحائل بأربع سنوات، أصيب الأمير طلال بمسّ من الجنون فطعن نفسه بخنجر وانتحر. وتلاه في حكم الإمارة أخوه متعب الذي توفي بعد ثلاث سنوات. وبعده ولي بندر بن طلال، غير أنّ عمّه محمّد بن عبد الله الرَّشيد عارضه وقتله واستولى على الحكم، ثم

بعباءة وسيف، ويجلس أخفضَ منهما بقليل. ثم يوجد رجلان من المدينة، أحدهما مسلح، والثاني يحمل محجاناً على جنبه. وشاب متوسط الأصل ذو بشرة برونزية، وثيابه القذرة تدل على أنه يعمل ميكانيكياً، كان يتحدث مع آخر يلبس بشكل مختلف في الشكل وأردأ في النوع من تلك الثياب التي تُلبس في حائل؛ هذا الآخر ينبغي أن يكون فلاحاً من إحدى القرى الجبلية. وثمّة بدويان، أشعثان وفظان، انخرطا مع البقية؛ بينما شاب طويل ذو قسمات داكنة، مقبض سيفه مطلي بالذهب، ويلفه حرير أكثر مما يمكن أن يقبله الوهابيون، قد اتخذ مكاناً له مقابل عبد المحسن، ويحاول أن يجتذبه بحديث. لكن هذا الأخير قد طلب إلى بركات أن يعيره أحد كتبي العربية ليقرأه، وكان منهمكاً في قراءته بشدة.

استأذن عُجيل بالانصراف، وبالطبع أعطيتُ الدور التالي لعبد المحسن. أخبرني أن طلالاً أرسل إلّي بولديه الاثنين بدر وبندر لأفحص وضعهم الصحي، وأرى فيما إذا كانا بحاجة للتطبيب. في الواقع كانت هذه لفتة من جانب سياسة طلال، الذي يعرف تماماً كما أعرف أنا أن الصبيّين كانا في حالة جيدة تماماً وليسا بحاجة لأي شيء. لكنه يرغب في أن يمنحنا إشارة على ثقته، وبالوقت نفسه أن يساعدنا في ترسيخ سمعتنا الطبية في المدينة؛ فعلى الرغم من أنه نفسه قد اقتنع حتماً بلقبنا الطبّي، فهو يدرك أهمية الحفاظ على المظاهر أمام العامّة.

«حسناً، دخل الأولاد للفحص بكل جدّية لشكوى في القلب أو حمّى بالرأس، وبإيماءة مني، حضَّر بركات في المطبخ شربة من ماء القرفة، والتي، مع السكر، تُعدّ دواء للحالة، أحبّها وريثا الملكية الصغيران واستمرّت المسرحية؛ كان عبد المحسن يطوف طوال الوقت بين الحضور ويحك عن المهارات المدهشة التي تمكنت من خلالها الأمراض وعلاجها فوراً، ولاعتقاد الصبيين الصغيرين أن هذا هو الدواء،

قتل أخاه الأصغر بدر، ولم يبق من إخوة بندر غير نايف الذي أبقى عليه. ودام حكم محمّد حتى عام 1897. انظر كتاب «حجّ إلى نجد» لليدي آن بلَنت، وعلى أيّ حال سيرد ملخص ذلك أدناه في الفصل السابع عشر وهو الأخير في هذا الكتاب.

فلذلك سيبذلان جهدهما ليمرضا كل يوم.

«الآن سلمهما عبد المحسن للزنجي، الذي قبل أن يرجعهما إلى القصر، كان لديه روايته الخاصة عن ألم يعاني منه، والذي وصفت له العلاج دون اتفاق على الدفع، حيث أنه ينتمي إلى القصر، إذ أنه من المهم أن نحصل على أكبر عدد ممكن من الأصدقاء، حتى على الأدراج الخلفية. لكن عبد المحسن بقي يقرأ ويتحدّث ويقرأ الشعر ويتحدث بالتاريخ والأحداث الحالية والفلسفة الطبيعية والطب، حسب ما يقتضي الأمر.

«لنرى الآن بعضاً من المرضى الآخرين. نال الرجل ذو السيف بالقبضة الذهبية انتباهاً خاصاً بشكل عفوي. كان من آل الرَّشيد، وهو عمّ طلال[1]. يقع قصره على الطرف الآخر للطريق، مقابل بيتنا تماماً؛ ولن أقصّ المزيد عنه حالياً، فلقد عزمت على أن أقوم بزيارة خاصة له فيما بعد، وبذلك أتعرف بشمولية أكبر على العائلة بكاملها.

«ثم لننتقل لملاحظة رجلي المدينة اللذين يتحدثان، أو بالأحرى «يتمازحان» بعضهما مع الآخر. وعلى الرّغم من أنهما يرتديان ملابس بسيطة، ومتشابهان جداً في القامة والملامح، فأنه يوجد الكثير لتمييز أحدهما عن الآخر؛ إذ لأحدهما مظهر مدني، بينما الآخر عسكري. وذاك الذي معه المحجان لا يقلّ أهمية عن محمّد القاضي، رأس القضاء في حائل، وهو بالطبع شخص مهم جداً في المدينة. لكن مظهره كهولي، ويبدو رجلاً ضئيلاً متواضعاً، وعلى الرغم من الحكمة التي تعزو الرزانة للقضاة، فهو مولع جداً بالمزاح، بالإضافة إلى كونه ممثل محتمل لما يسمى هنا حزب الاعتدال، ولا يشارك الوهابيين في تشدّدهم، ولا حتى هو، مثل غالبية الزعماء المحليين، مناهض للدّعوة الدّينية؛ بل يستمدّ مكانته من القصر، وهو محبوب من كل الأحزاب لأنه لا ينتمي لأيّ منها.

«طلب الرّجل بعض العلاجات الطبية له، وغيرها لابنه، وهو صبي سمين له ذراع

(1) يقصد عُبيد بن رَشيد، وهو أخو عبد الله بن رَشيد الذي لم يتولّ الإمارة بعد وفاة أخيه، بل ظلّ الحكم في ذريّة عبد الله.

منتفخـة، جـاء برفقته إلى هنا. وهذا أيضـاً معرفة جيدة، يعرف بكل فضائح وشـائعات المدينة، وهو على اسـتعداد لنقلها. كانت زياراتنا متكررة، ووجدت في بيته الكثير من الكتـب، بعضهـا مخطوطة باليد، وبعضهـا مطبوعة في مصر، وغالبيتهـا ذات مواضيع قانونية ودينية.

«اعتـاد محمّـد القاضـي أن يتحـدث مـع الريفيين في القـرى المحيطـة، مثل موقق والدّلهمية وغيرها، بشـيء من الشفقة المشوبة بالاحتقار، كما يتحدث الپاريسيون عن البريتونيين[1] الوضيعيـن low Bretons؛ وفي الواقع، إنّ الاختلاف بين هؤلاء الفقراء الخشـنين والأشـداء، وسـكان العاصمة الأكثـر تهذيباً، وهو كل التناسـب المسـتحق المتاح، ليسوا أقل ملاحظة هنا منهم في أوروپا نفسها. والآن لندع واحداً منهم يمضي إلى الأمام على عاتقه، وسيكون قرائي هم الحكام.

«وعلى ذلك، فإن فلاحاً سميناً من موقق، يرتدي ثياب عمل بشكل غير منمّق، وكان مشـغولاً في النصف سـاعة الأخيرة في اقتفاء عدة رسوم على الأرض أمامه مستخدماً قضيـب شـجرة دراق، ليمضـي وقته إلى أن يتم إشـباع ظنونه. ها هو ذا قـد اندفع الآن نحـو الأمـام، واتخذ مقعـداً له عند الباب، لافتـاً انتباهي بقوله «حكيـم، أقول». عندها اقترحت عليه أن بطنه الضخم ليس من الزجاج أو أيّة مادة شـفافة أخرى، وأنه بموقعه هذا يعترض بشـكل كامل حتى أقل ضوء ممكن أن يدخل عندي. اعتذر، وتنحى جانباً بمقـدار إنـش أو أكثر. ثم سـألته عما يؤلمـه، ببعض الفضول لسـماع الجـواب، وعبّر الشيء الشديد القابع أمامي باقتضاب عن مرضه.

«وكان جـواب دعيمـس Doeymis، أو أيّـاً كان اسـمه، «أقـول، إننـي كلـي مكوّن مـن الألـم». بدا لي هذا التعليق، كما أشـياء أخـرى كثيرة، عام جداً إلى حـدّ ما ليكون صحيحاً. لذلك باشـرت استجوابي: «هل يؤلمك رأسـك؟» «لا». (يمكن إنني ظننت ذلك؛ هؤلاء الأشخاص لا يشعرون بما يعنيه أصدقاؤنا معاناة النّفس المرهفة *le mal' des beaux esprits*) «هل يؤلمك ظهرك؟» «لا». «ذراعاك؟» «لا». «رجلاك؟» «لا».

---

(1) أي سكان بريتانيا Bretagne في الشمال الغربي من فرنسا.

«جسمك» «لا». استنتجت «لكن إذا لم يكن يؤلمك رأسك ولا جسدك ولا ظهرك ولا ذراعاك ولا رجلاك، فكيف من المحتمل أن تكون لديك هذه التركيبة من المعاناة؟».. «إنني كلي مصنوع من ألم، يا حكيم»، أجابني، معبّراً بتصميم عن نفسه ضمن حالته الأولى. في الواقع هو يعاني من شيء ما، لكنه لا يعرف كيف يحدّد شعوره. لذلك تابعت أسئلتي، حتى تبيّن أن رجلنا هذا من موقق يعاني من روماتيزم مزمن؛ وفي التحقيق التالي، مستخدمين كل المهارات التي نملكها أنا وبركات مجتمعين، ظهر أنه من ثلاثة أو أربعة أشهر خلت أصيب بالمرض بشكله الحاد، متصاحباً بحمى، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هو نفسه ثانية.

«لعل هذا يكفي للتشخيص، لكنني أرغب بأن أعرف كيف سيخرج نفسه من الأسئلة الأكثر تعقيداً؛ إضافة، إلى أن الرجلين اللذين من المدينة الجالسان بقربنا، ويستمتعان بحس النكتة مثلي، همسا «جرّبه مرة أخرى». بالتالي، واصلت قائلاً: «ما السبب في مرضك الأول؟». «أقول، يا حكيم، كان سببه من الله»، أجاب المريض. فقلت، «لا شك في ذلك، كل شيء يحدث من الله، لكن ما الحادثة المحددة والمباشرة؟». «يا حكيم، السبب كان من الله، وثانياً، إنني أكلت لحم جمل وأنا أعاني من البرد»، أضاف صديقي العلمي. «ولكن لم يكن هناك شيء آخر؟» سألت، كوني لم أكن قانعاً تماماً بالشرح الواضح الذي قُدّم الآن. «ثم، شربت أيضاً من لبن النوق؛ ولكن كل ذلك، أقول، من الله، يا حكيم»، أجاب.

«حسناً، درست الحالة، وقرّرت نوع العلاج. ثم جاء الموضوع الكبير وهو الدفع، الذي يجب الاتفاق عليه مقدماً، وتقديمه منوط بالنجاح؛ وإلا فلن يكون هناك أجر للطبيب، ليس في حائل وحدها، ولكن في كل جزيرة العرب. وتساءلت ماذا سيعطيني عند الشفاء. أجاب الفلاح «يا حكيم، سأعطيك، هل تسمع؟ أقول، سأعطيك جملاً». لكنني أجبته: إنني لا أريد واحداً. «أقول: اذكر الله»، والتي تعني هنا، «لا تكن غير عقلاني؛ سأعطيك جملاً سميناً، الجميع يعرفون جملي؛ إذا أحببت سأحضر شهوداً، أقول». وبينما أنا أصرّ على رفض الجمل المقدّم، كان يتكلم عن الزبدة والطعام

والتمور وأشياء مشابهة.

«يوجد مريض وصراف لك. لكن انتهى كل شيء بتصرفه العقلاني بشكل كاف؛ اتبع وصفتي بالانقياد المعتاد، وتحسّن، وأعطاني لجهودي أجرة ثمانية عشر بنساً».

* * *

خلال هذه الإقامة في حائل، اكتسب پالغريف الكثير من الأصدقاء، وأقام سريعاً العلاقات المألوفة تلك في الاتصالات التي هي أكثر سهولة في بلاد المسلمين منها عند المسيحيين، - وهي نتيجة طبيعية للحفاظ على الأهمية القديمة، التي كانت متعلقة في أيام السّاميّة القديمة بـ «الغرباء». طالت صداقات پالغريف الحميمة الكثير من العائلات المتصلة بطلال، وغيرهم، الذين جعلت معرفتهم للتاريخ والأدب العربي التعارف إليهم موضع ترحيب. وكانت معرفته هو لهذه المواضيع، ولحسن الحظ، تعادل معرفتهم، ومن عدد الدعوات التي تلقاها للغداء أو العشاء، يبدو أنه قد كان ضيفاً مرحباً به من أفضل الطبقات في حائل. أحد الأرستقراطيين، واسمه ضوحي Dohey، كان أكثر معارفه قبولاً؛ وهنا نقتطع هذه الرواية اللطيفة عن علاقته به:

«كانت دعوات ضوحي خصيصاً موضع ترحيب، لبهجة مسكنه، وأيضاً للمحادثات المتنوعة والممتعة والتي كنت متأكداً إنني سأجدها هناك. هذا التاجر، وهو رجل طويل وجليل بين الخمسين والستين في العمر، ويضيء سحنته النحيلة بريق ذكاء أكثر من المألوف، وكان حائلياً صرفاً منذ القدم، ويكره المتعصّبين من أعماق قلبه، ويتوق لمعلومات عن الأسباب والنتائج، عن البلاد والحكومات، ويعدّ التجارة والحياة الإجتماعية بمثابة دعائم أساسية إن لم تكن الأهداف بحد ذاتها للمؤسسات المدنية والوطنية.. بالنسبة له، هو يبلغ الآن من العمر حوالي الثمانين عاماً، ليحكم بالحدس في بلاد لا تُستخدم فيها السجلات كثيراً، وقد سافر إلى الهند، وتاجَر في بومباي؛ وكإشارة إلى ذلك فهو لايزال يرتدي طاقية هندية وشال كشمير. باقي العائلة كانوا على علاقات طيبة مع الأفراد الأكبر سناً، ونادراً ما رأيت أولاداً مطيعين أكثر منهم أو أسرة أفضل تربية منهم. وسيدرك قارئي مباشرة إنني أعني هنا بالتربية وجهها الأخلاقي

وليس الفكري. الابن الأكبر، هو ذاته رجل في منتصف العمر، لا يمكن أن يتجرأ في حضور والده على ألا يفك سيفه ويتركه في الردهة، ولا بأي حال من الأحوال أن يجلس على مستواه ذاته أو بجانبه على الأريكة.

«كانت هذه الأريكة بحد ذاتها من أجمل ما رأيتُه في هذه الأرجاء. كانت الغرفة واسعة ومربعة، تطلّ على حديقة منزلية كبيرة، ومضاءة بشكل بهيج بواسطة نوافذ معرشة على الطرفين، بينما كان جدار الطرف الثالث محجوباً عمداً لنصف ارتفاعه تقريباً، وهذا الفراغ المفتوح بينه وبين السقف تمّ تدعيمه بأعمدة، بينها «شجرة كرمة مثمرة على جوانب البيت» كانت متشابكة بحيث ملأت المساحة الفاصلة بشبكة زاهية من الأوراق الخضراء والعرائش الملتفة، إنها شفافة مثل زجاج ملون وراء أشعة شمس الشرق. مواجهة هذا الضوء المشرق، ارتفعت أرض الغرفة حوالي قدمين عن المساحة المتبقية، وتمّت تغطيتها بسجاد فارسي زاهٍ، ووسائد حريرية، وأفضل المفروشات العربية. في الجزء الأخفض من القهوة k'hawah، وفي أقصى الزاوية كان يوجد موقد القهوة الصغير الحجري، وُضع في مكان بعيد بحيث لا تزعج ناره السيد وضيوفه. الكثير من نبلاء المدينة يلجؤون إلى هنا، والأحاديث بشكل عام تدور حول مواضيع جدّية، وعلى رأسها أحوال الأحلاف والسياسة في جزيرة العرب؛ وبينما كان ضوحي يظهر نفسه عربياً وطنياً صرفاً، كان في الوقت ذاته قاضياً دمثاً ومتسامحاً بالنسبة للأجانب، وهي صفات من النادر اجتماعها بأيّة درجة ملحوظة، ولذلك كانت محتفى بها بشكل أكبر.

«لقد أمضيتُ ساعات لطيفة في هذا البيت الذي هو نصف بيت نباتات، ونصف قهوة، تتوسطه وجوه مرحة وأحاديث متنوعة، لكن التعليق الداخلي هو على الملكات الطبيعية لهؤلاء الناس الشجعان والأقوياء، والإمعان في التبصّر المستقبلي للرؤية عبر الستارة الضبابية للمستقبل والتي نتائجها الحالية غير مجدية بسبب العزلة الكلية والتي يمكن أن تؤدّي إلى اتصالات مثمرة مع الأمم الأخرى المتقدمة، لفائدة الطرفين.

«وجرت الأحاديث بالراحة واللياقة التي يتصف بها المجتمع الشرقي الراقي،

دون الفظاظـة والاهتيـاج التي تشـوّه أحيانـاً الأحاديث في بعض البلاد، وليسـت بأقل من السـكوت المبالغ فيه في بلاد أخرى. برأيي إن الشـرقيين وبشـكل عام يتفوقون في علم الحديث على سـكان الغرب؛ يمكن من الضرورة الأكبر لصقلها، كونها الوسـيلة الوحيدة للأخبار العامة والتواصل وذلك لأن الجرائد والكتيبات غير معروفة هنا.

«وكانـت بعض الحدائق الأخرى مسـرحاً لراحتنـا بعد الظهر، بين أشـجار الفاكهة والنخيـل، بجانب مجرى مائي، يغذيه باسـتمرار نبع محجوب عـن الأنظار بين أوراق الأشـجار الكثيفـة، بـدا العمل ليـس بفعل فـنّ مُجهد وإنما مـن الطبيعـة وحدها دون مسـاعدة. هنـا كنا، متمدّدين فـي الظل البارد واللطيف، يمكن أن نتناقش لسـاعات مع عبد المحسـن، وغيـره من ذوي المهن المشـابهة، حول الخصائص المميزة للشـعراء والكتّـاب العرب، عن عمر بن الفارض وأبي العلاء، في اللقاءات التي كان فيها شـيء من الكلاسيكية، وكان كافياً بالنسبة للعرب أن تعطيهم قبولاً أكبر لصفاتهم السّامية من حيث الابتهاج الرزين والهدوء المرح.

«أو عندما تسطع النجوم، كان بالإمكان أن نتجوّل أنا وبركات بعيداً عن الجو الحار في الشوراع والأسواق إلى السهول المفتوحة اللطيفة، ونمضي هناك ساعة أو ساعتين وحدنـا، أو متحدثيـن مع أحد المارة الذين يمكن أن تباغتنا الصدفة بهم وهو شـبه غير ملحوظ ولا هو يلاحِظ في عتمة الغسق، ونسلّي أنفسنا ببساطته إن كان بدوياً، وبدهائه إن كان من المدينة.

«هكـذا كانت حياتنا العاديـة في حائل. حدثت العديد من الحـوادث العرضية التي نوّعت حياتنا، ولم تخفق الصلات الإنسانية في تزويدنا بالكثير من المتغيرات الحياتية سـلباً وإيجابـاً؛ أحيانـاً كان عـدد المرضى وضـرورة حضورهم يفسـح مجـالاً ضئيلاً للفـراغ لأي شـيء باسـتثناء واجباتنـا المهنية؛ وأحيانـاً كان يمرّ يـوم أو يومان دون أي انشـغال فعلي. ولكن لدى قرّائي الأعزاء مثال مناسـب عما قد كان كما شرحنا مسبقاً. يكفي القول، إنه من 27 يوليو وحتى 8 سـبتمبر بقينا نطبّب في العاصمة أو في جوارها القريب».

مـع حلـول هذا الوقـت كان بالغريف قد حصل علـى دراية كافية عـن البلاد، وكان تواقاً ليتقدم أبعد من ذلك باتجاه الشرق قبل أن ينقضي الخريف - أفضل فصل للسفر. الآن السفر عبر حدود شمَّر فقط يمكن أن يلي إشارة من طلال، وبرضاه. في الواقع، إنّ جواز سفر يحمل التوقيع الملكي أمرٌ لا يمكن الاستغناء عنه لجميع الراغبين في عبور الحـدود، وخاصة إلى إقليم الوهابيين[1]؛ دون أن يملك هذه الوثيقة لا يمكن لأحد أن يغامر في الوصول إليهم.

«وبناء على ذلك» كما يقول، «طلبنا وحصلنا على مقابلة رسـمية خاصة في القصر. إن طلالاً، الذي كان يصلنا وداده بشـكل دائـم، بالتأكيد إثباتات يومية خلال إقامتنا في حائل، أثبت أنه صديق مخلص - كلمة نصير يمكن أن تكون أدق كلمة - حتى النهاية؛ متمثلاً بالمثل الاسكتلندي عن الضيف الذي ليس فقط «سيقيم» وإنما «عصابة مونغ». إلى هنا أملى على زامل، كون طلال شخصياً ليس بكاتب، فحوى جواز سفر أو رسالة عامة لتأمين سـلامة الوصول، كانت كافية لتؤكد لنا حسـن تعامله ضمن حدود حكمه، وحتى وراءها.

«عندمـا كتب المطلوب، وضع طلال خاتمه، ونهـض ليتركنا وحدنا مع زامل، بعد مصافحـة الوداع، والتمنيات لنا برحلة طيبة وعودة سـريعة. لكـن وعلى الرغم من كل هـذه الدوافـع للذهاب، لـم يمكنني إلا أن أشـعر إنني كارهٌ مغادرة مدينـة ماتعة، حيث حُزنـا بالتأكيـد الكثيـر من الأصدقـاء المخلصين الذيـن يتمنّون لنا الخيـر، ولكوننا لم نتوقـع فـي بـلاد أخرى ولا بأي شـكل حظـوة مماثلة ولا حتـى أماناً يـوازي. وبالطبع إن كل مـا سـمعناه عن وهابيي نجـد كان مقلقاً، كان المنظر الطبيعـي أمامنا قاتماً جداً، وبالاقتـراب أكثر، ندمت تقريباً على قراري، وكنت ميـالاً إلى حدّ بعيد لأقول: «يكفي إلى هنا، وليس إلى أبعد من ذلك».

«كان عُبيد، عمّ طلال، قد غادر حائل في اليوم السابق في حملة عسكرية ضد البدو فـي المنطقـة الغربية. وبمشـاركة كل المتفرجين فـي المدينة، ذهبنا لنشـاهد خروجه.

---

(1) كالعادة، يستخدم الغربيّون هذه العبارة للإشارة إلى الدّولة السّعودية الثانية.

كان منظراً زاهياً وممتعاً، عمل عُبيد على أن تنصب خيمته على السهل بظاهر الأسوار الشمالية، ومن هناك كان يستعرض قواته. كان ثلثهم على ظهر الخيول، والباقي يمتطون جمالاً خفيفة وسريعة؛ الجميع معه رماح وبنادق، التي زاد الأشراف عليها السيوف؛ وبينما كانوا يسيرون هنا وهناك في خيلاء المناورات فوق أرض الاستعراض العسكري، كان المنظر الكلي مدهشاً وعسكرياً على نحو لا بأس به. نشر عبيد رايته الخاصة، وكان قد أضيف على أطرافها اللون الأخضر المميّز في الإسلام إلى الأرضية البيضاء راية النجديين الأسلاف المذكورين منذ أربعة عشر قرناً في شعر عمرو بن كلثوم، شاعر تغلب، وغيره كثيرين.

«انخرطنا أنا وبركات مع حشد المتفرجين. رآنا عُبيد، وكان قد مضى عدّة أيام على آخر لقاء لنا. وبدون تردّد اتجه نحونا، وبينما كان يمدّ يده لمصافحة الوداع قال لنا: «قد سمعت أنكم تعتزمون الذهاب إلى الرّياض؛ هناك ستلتقون بعبد الله، الابن الأكبر لفيصل؛ إنه صديقي الحميم؛ أرغب كثيراً بأن أجدكم تنعمون بامتيازاته، ولتحقيق ذلك قد كتبت إليه رسالة لأجلكم، وأنتم بأنفسكم ستحملونها؛ ستجدونها في بيتي، حيث قد تركتها لكم مع أحد خدمي». ثم أكّد لنا أنه إذا وجدنا ما نزال في حائل حين عودته، سيستمر بمساعدتنا بكل وسيلة؛ ولكن إذا سافرنا باتجاه نجد فإننا سنجد في عبد الله صديقاً مخلصاً، خصوصاً إذا أعطيناه الرسالة المذكورة.

«ثم استأذن بالرحيل وعليه تبدو آثار المودّة القلبية التي جعلت المتفرجين يحدّقون؛ هذا يؤكد حتى النهاية الرّياء العميق الذي كان قد اعتراه مرّة للحظة. تم تسليم الرسالة إلينا أصولاً بعد ظهر اليوم ذاته من كبير المشرفين، الذي ترك له الاعتناء بالبيت والحديقة خلال غيابه. بدون شك فإن قرائي الأعزاء لديهم فضول لمعرفة ما هي التوصية التي زوّدنا عُبيدٌ بها. كُتب على قصاصة صغيرة من الورق السميك، أبعادها حوالي أربعة إنشات في كل اتجاه، مطوية بعناية ومختومة بثلاثة أختام. لكن «مخاوفنا فاقت أصول اللياقة» وخطر ببالنا هاملت لنقوم بدراسة هذه المهمة الكبيرة قبل تسليمها إلى الجهة الموجهة إليها. وبذلك قمنا بفضّ الأختام مع اتخاذ

الاحتياطـات لإعادة إغلاقها بالشـكل الصحيح، وقرأنا الرّياء الملكي. سـأتلوها كلمة كلمة؛ وهي ترد كالتالي: «بسـم الله الرحمن الرحيم، نحن، عبيد بن رشـيد، نحييك، يا عبد الله بن سـعود، والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته (هـذه المقدمة الثابتة في كل رسـائل الوهابيين، والإلغاء الكلي لصيغة التحية المسـتخدمة من الشرقيين الآخرين). «أما بعد» هكذا تبدأ الوثيقة، «نعلمكم أن حاملي هذه الرّسالة هما سليم العيس ومرافقه بركات الشامي، اللذان خرجا طلباً في بعض المعرفة في» - تبعتها هنا كلمة ذات معنى ملتبس[1]، يمكن أن تفسـر على أنها «طب» أو «سـحر» بالقدر ذاته، ولكنها بشكل عام مسـتخدمة فـي نجد بالمعنـى الأخير، الذي يُعدّ فـي الرّياض جريمة خطيـرة. «وختاماً حفظكم الله من كل شر. ونرسل بتحيتنا إلى والدكم، فيصل، وإخوانكم وكل عائلتكم، وننتظر بلهفة جوابكم. والسلام عليكم». هنا طبع الختم.

«توصيـة مناسـبة، خاصة في الظـروف الواقعية! لكننا لـم نقنع بهـذا، لقد وجد عُبيد الوسـيلة لنقل المزيد من المعلومات حولنا إلى الرّياض، وكل ذلك في الفحوى ذاته، كمـا تبيّـن لنـا فيما بعد. فرسـالته، يجدر بي أن أقـول إنها لم تخرج مـن حوزتنا، حيث بقيـت أوتوغرافاً ممتعاً، إلـى عبد الله؛ الذي كان قد أثبت قطعاً معه أن الشـيء الوحيد المرغوب، كما سنرى لاحقاً، هو أن يجعلنا نترك الرهان على حياتنا في شرك النجديين.

«قبل المسـاء قـرع بابنا ثلاثة رجال؛ كانوا مرشـدينا القادمين. الأكبر اسـمه مبارك، وكان أصلـه من ضواحي بُريدة؛ كان ثلاثتهم من أسـرة أصيلة من القصيم، أكثر سُـمرة وأقصر من سكان حائل، ولكن لا يبدو عليهم الخبث، كانوا دمثين إلى أبعد الحدود في سلوكهم، أخبرنا مبارك أن مغادرتهم من حائل قد كانت مع أول إشراقة الغد، أو السابع مـن الشـهر، لكن ذلك خاضع لبعض التأخير من جانـب رفاقهم، ذلك لأن المجموعة كانت كبيرة، وبالتالي فقد تم التأجيل إلى الثامن من الشهر، أو اليوم الذي يليه.

«قمنـا بكل الترتيبات اللازمة للرحيل، ودخلنا في بعـض الدّيون المتفرقة، وحزمنا أدويتنا، ولـم يبق شـيء الآن سـوى نشـوة ألم حفلات الوداع. كانـت كثيرة وبإخلاص

(1) أظن هذه الكلمة كانت: الحكمة، التي تعني الطب كما تعني: الخيمياء.

متبـادل. بالطبـع قام متعب بوداعه من عدة أيام، عندما قـام برحلته الثانية إلى المراعي؛ كنا قد استأذنا طلالاً مسبقاً، لكن بقي أخوه الأصغر محمّد ليقدم لنا وداعاً قلبياً بأطيب التمنيـات. معظم معارفي أو مرضاي، ضوحي التاجر، محمّد القاضي، دحيم وعائلته، ولا أنسى صديقنا الأول سيف المسؤول في البلاط، سعيد الضابط في سلاح الفرسان، وغيرهم من البلاط، الأحرار والعبيد، البيض والسّود، (وذلك لأن الزنوج يتبعون حالاً الاتجاه المحدّد لأسـيادهم، ويكونون شـاكرين إذا عولجوا أثناء وجودهم في عملهم) وإنَّ الكثيريـن من حاملي اسـم هومر الذيـن يمكن أن يكونوا قد شـكّلوا قائمة وأنا لن أفعل، قد سمعوا بمغادرتنا قريباً وجاؤوا ليعبّروا عن أسفهم لذلك، مع تمنياتهم باللقاء مستقبلاً وبعودتنا».

«فـي الصباح الباكر مـن اليوم التالي، قبل يوم، كان مبارك وأحد رجال بلدته، يدعى داهـش، عنـد بابنا مع الجمال. وحضر أيضاً بعض أصدقائنـا من المدينة، حتى في مثل هـذا الوقت، حضروا ليرافقونا حتـى بوّابات المدينة. امتطينا ظهـور دوابنا، ومع تدفق أول خيوط الشـمس فوق السـهل، اجتزنا المدخل الجنوبي الغربي خلف السـوق، في الثامن من سبتمبر عام 1862 وغادرنا مدينة حائل».

* * *



صورة 11: الكاپتن بُرتون بزيّ الحجّاج

الفصل الثاني عشر

رحلات بالغريف – جولة في بريدة

إنهـا مرحلـة أخـرى من طريقنا. مـن غزة إلى معـان، ومن معان إلـى الجوف، ومن الجـوف إلى حائـل، بهذا تكون قـد انتهت ثلاث مراحـل، وبالطبع لم تكـن خالية من الإرهاق والمشـقة، بل كانت محفوفةً بالقليل نسـبياً من المخاطر الجسـدية، باسـتثناء ما يمكن أن يطرأ بفعل الطبيعة وليس من البشـر. وذلك لتعبر الصحراء الصخرية على الحـدود الشـمالية، أو النّفـود الرّملية في أشـد حرارة الصيف، ولا يمكـن القول إنه لا يوجـد خطر بالمطلق، وذلـك لأنه في هذه الأماكن المترامية التي لا يوجد فيها ماء فإن العطش وحده إذا لم يوجد شيء آخر، كفيل بأن يتسبّب في اختفاء الرّحالة المغامرين، بل، وحتى الكثير من البدو، وبفعالية لا تقل عن ضربة رمح أو رصاصة بندقية.

ولكـن في حال كانت الطبيعة قاسـية جداً، فعلى الأقل ليـس لدينا حتى الآن الكثير لنشتكي منه من البشر؛ إن البدو في سلوكهم، على الرغـم من عاداتهم الخشنة والفظة، قد أفادونا بشكل جيد، باستثناء واحد فقط، وأهل المدن بشكل عام قد أثبتوا ودّاً ولطفاً أبعد من توقعاتنا. حين كنا ضمن الحدود المرسومة لحكومة طلال، وضمن الأراضي الخاضعـة لـه، قد نعمنـا بنصيبنا مـن الأمن العـام الممنوح لعابري السـبيل والسـكان لـلأرواح والأملاك، بينما رافقنا نجـاح جيد حتى الآن. «احكم على اليوم اعتماداً على فجره»، judge of the day by its dawn هكذا يقول العرب؛ وعلى الرغم من أن هذه

الحكمة، كحال جميع الحكم، لا تثبت صحتها دائماً، سواء لسطوع الشمس أو الغيم، لكنها ذات قيمة أحياناً. وبالتالي، أياً كانت التنبؤات سلبية أو نذيرة الشؤم التي يمكن أن يلمِّح إليها أصدقاؤنا عن نجد الداخلية وسكانها، فإننا نثق أن الأحداث الماضية الإيجابية تدلّ على أن أموراً مستقبلية ستكون أفضل إلى حدّ ما.

«من الصعوبات الجسدية والمادية التي واجهناها سابقاً كان هناك من الآن فصاعداً القليل ليُخشى منه. فحرارة الصيف الشديدة قد انقضت، وبدأ الفصل الأبرد؛ إضافة إلى أن طريقنا الآن يمتدّ على الأرض المرتفعة لأواسط جزيرة العرب، التي كنا قد تغلبنا على أطرافها الشمالية عند دخولنا إلى جبل شمَّر. ولم يبق شيء من الأراضي غير المزروعة أو الطرقات الرّملية لنعبرها مقارنة مع النّفود في الجوف بين حائل والرّياض؛ بل على العكس، كان علينا أن نتوقع أراضٍ عشبية وحضارة، قرى وسكان، هواء جبلياً معتدلاً، ومياهاً كافية إن لم تكن وفيرة. ولم يعد رفاقنا الآن بدواً صرفين أو بدائيين، ولكنهم رجال من المدينة أو القرية، أفراد في مجتمع منظم، وأشخاص متحضرون إلى حد بعيد.

«عند الوداع، بالنظر إلى الخلف، الأيدي ملوّحة، وكل علامات الوداع المعروفة والأمنيات الطيبة كانت بيننا وبين أصدقاءنا في حائل، تابعنا طريقنا بمحاذاة السهل الذي وصفته مسبقاً كما لو كان المنظر المألوف للمسير الصباحي؛ ولكن بدلاً من أن نسلك الطريق الجنوب غربي باتجاه قفار Kefar، التي كانت بساتينها وأعالي أبنيتها ارتفعت أمامنا على شكل كتل منسجمة، تحوّلنا نحو الشرق، ودرنا، لمسافة، السّور الخارجي لحائل مدة نصف ساعة تقريباً، حتى واجهنا طريقاً يتجه إلى الجنوب الشرقي عبر أرض حجرية، تتخلله الآبار هنا وهناك، كل واحد منها في جواره مجموعة من البساتين وعدة منازل. وأخيراً وصلنا ممراً منعطفاً ضيقاً وسط جروف جبل أجا "Aja"، الذي تطوق عقدته الوسطى مدينة حائل من كل الجهات، وهنا أدرنا رؤوسنا لنحصل على نظرة أخيرة للمنطقة التي كانت موطناً لنا، أو الشبيه المطابق للوطن، ولعدة أسابيع.

«كان برفقتنا الآن مبارك وداهش Dahesh فقط. كنا قد تقدمنا البقية، الذين كانت أمتعتهم وأدواتهم تتطلب تنسيقاً مضجراً أكثر من متاعنا. وقدموا بعد وقت وجيز – إنهم حشد متنوع. عشرة أو ما يقارب من القصيم، البعض من بُريدة نفسها، وآخرون من البلدات المجاورة؛ وشخصان، أعلنا عن نفسيهما، بالقسم أكثر من الحقيقة، أن أصلهما من مكّة ذاتها؛ ثلاثة بدو، اثنان منهم ينتميان إلى عشيرة شمَّر، والثالث من عِنْزة في الشمال؛ ثم زنجي هارب، يقود أربعة خيول، قرر أن يعبر الجزيرة بعرضها، وأن يبحر من الكويت، في الخليج العربي، من أجل المزاد الهندي؛ وتاجران، أحدهما من زلفي، في مقاطعة سدير Sedeyr، والآخر من الزُّبير، قربَ البَصرة Bussora؛ وأخيراً، امرأتان، لا أعرف هما زوجتا مَن في القافلة، مع أولاد صغار؛ كل هؤلاء، ونحن معهم، ألّفوا مجموعة من سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين شخصاً، معظمهم يمتطي الجمال، والبعض على ظهور الخيول، وبرفقة عدد من الدواب لحمل الأثقال – هذه كانت مجموعتنا للحجّ على طريقة كانتبُري Canterbury.

«هكذا تجمعنا، وتقدمنا مع بعضنا، حيناً بين صخور من الغْرانيت، وتارة عبر أودية خضراء، حتى قبيل الغروب حيث توقفنا تحت جُرف عالٍ، عند أقصى جنوب جبل أجا "Aja"، أو حسب التعبير الحديث جبل شمَّر. يمتد الجبل على مسافة كبيرة يميناً وشمالاً، ولكن يمتد أمامه سهل واسع بمساحة تصل إلى عشرين ميلاً مفتوحة أمامنا، وتحدّه من الجهة الجنوبية سلسلة جبل سَلمى الطويلة المزرقّة، التي تمتد بموازاة المرتفعات التي كنا نغادرها الآن، وتنتمي إلى البينية والكتلة الصخرية ذاتها التي تعرّف بشكل كامل جبل طيء أو شمَّر.

«حوالي الثالثة من بعد الظهر، في اليوم التالي، رأينا على مسافة منا جماعة من البدو آتية من جهة المدينة. وكونهم لم يزالوا بعيدين عنا، ونصف محجوبين عن الرؤيا بالشجيرات والأكاسيا الهزيلة الموجودة على السهل، فلم نتمكن من تحديد عددهم بدقة؛ ولكن من الواضح أن ذلك كافٍ ليجعلنا نرغب «أنه من الأفضل أن نكون غرباء». من جانبنا جمعنا حوالي خمسين بندقية، إضافة إلى عدد من الرّماح والسيوف. كان

البدو قد لاحظونا، وتابعوا تقدمهم، ولكن بشكل متقطع وغير مباشر وهو ما يفضلونه عندما يساورهم الشك في قوة عدوهم؛ ولم يزالوا يقتربون منا أكثر مما كان محبذاً.

«يمكن لأربعة عشرة رجلاً من المدينة أن يصمدوا في مواجهة معتدلة ضد ضعفي عدد البدو هؤلاء، وعلى أي حال وبكل تأكيد لم يكن لدينا شيء أفضل من أن نواجه الموقف بشجاعة. قام شيخ عيون Eyoon'، فُليح Foleyh، واثنان من بلده ومن غاشي Ghashee، بتلقيم بنادقهم بحذر، ثم انطلقوا بالسرعة القصوى لمواجهة العدو المتقدّم، يلوّحون بأسلحتهم فوق رؤوسهم، وتبدو عليهم الشدّة إلى أبعد حد. تحت تغطية هذه المناورة بدأ باقي أفراد جماعتنا بتحضير أسلحتهم، وتلا ذلك مشهدٌ مسلٍّ. فأحدهم خسر جولته، وكان يبحث عنها في مساكنهم، وآخر بسبب سرعته في إطلاق الرّصاصة بإحكام علقت في منتصف سَبَطانة البندقية، ولم يتمكن من إدخالها ولا إخراجها؛ ومغلاق الثالث كان صدئاً ولم يقم بالمهمة.

بدأت النساء بالانتحاب بشكل يرثى له؛ والرجلان المكّيان، اللذان كانا يمتطيان جملاً واحداً بغرض الاقتصاد، الأمر الذي تسبب في نشوب الكثير من المشاجرات الدّولية بينهما، حاولا حمل دابتهما على الجري سريعاً بهما، وتركا البقية لمواجهة قدرهم، لكن الحيوان الأكثر شجاعة، محتقراً هذا الإجراء الجبان، أصرَّ على البقاء مع رفاقه وأن يشاركهم قدرهم؛ - كل شيء كان عربياً تماماً، الكثير من الصخب والقليل من الفعل. وبعد أن أثبتت خدعة الهجوم تلك التي قام بها الأربعة الذين يقومون بحماية مؤخرتنا أنها غير ناجعة، كان من الممكن أن نكون جميعاً في مأزق سيء جداً، وهذا الشعور جعل الجميع يديرون وجوههم بنظرة للوراء باتجاه الخلف. لكن غزاة قبيلة حرب Harb banditti، المرعوبين من القسمات الجريئة لفُليح وجماعته، استداروا وبدؤوا بمناوشات الانسحاب، وتم إطلاق بعض الطلقات، البريئة من سفك الدماء، بكل الاتجاهات بهدف الشكليات، حتى اختفى في الختام مهاجمونا تماماً في الوادي البعيد.

«وللتوّ عاد أبطالنا الشجعان من المطاردة، مزهوّين جداً بنجاحهم، وتابعنا سفرنا

معاً، حول آخر نتوء صخري لجبل سَلمى، بالقرب من الموقع الذي يقال إن حاتماً الطائي، النموذج المعروف، ما بين الأسطورة والواقع، بحسن ضيافة العرب والسخاء البالغ، قد دفن فيه. عبرنا بعض التلال المنخفضة التي تشكل فروعاً لجبل سَلمى، والتي تحدّد الوادي؛ والأشعة الأخيرة للشمس الغاربة جعلت أشجار نخيل فَيْد، على السفوح الرّملية البعيدة بعض الشيء، تلتمع أمام أبصارنا.

«يمكن أن تؤخذ فَيْد Feyd مثالاً لا بأس به على القرى التي صادفناها في كل المنطقة الشمالية والعلوية للقصيم؛ لأنها جميعاً تتشابه تقريباً في الملامح الرئيسة، على الرغم من اختلاف مساحاتها. تخيّل رابية بارتفاع يصل لحوالي ستين أو سبعين قدماً، تتوسط وادياً واسعاً ومغبراً؛ وجزء من الربوة نفسها والسفح المتاخم لها تغطيه بيوت طينية منخفضة، تتداخل معها مجموعة من الإثل المريّش. الحدائق في الجوار مقسمة بجدران من القرميد إلى بساتين خضراء، ينمو فيها اليقطين والبطيخ والبقوليات والذرة جنباً إلى جنب ويتم ريّها صناعياً من الآبار الموجودة ضمنها؛ أشجار النخيل بوفرة - وهي الآن محملّة بكثرة بثمار بنية محمرّة؛ وبعض أشجار الدرّاق أو المشمش مكملة المنظر العام. الجدران الخارجية منخفضة، وتقوم بحماية البساتين أكثر من السكان؛ ليس هنا أبراج ولا خنادق، ولا حتى، على الأقل في أغلب الأماكن، قلعة مركزية أو أي مسكن مميّز للزعيم؛ فقد كان بناء منزله مؤلفاً من طابق واحد مثل باقي المنازل المجاورة، فقط أكبر قليلاً. وبعض هذه البلدات townlets حديثة تماماً، ويعود تاريخها إلى ملحق شمَّر، التي تكسب هذا الجزء من المقاطعة درجة من الهدوء والازدهار الذي لم يكن معروفاً في زمن الوهابيين.

«في الصباح التالي، بتاريخ 10 سبتمبر، أيقظنا جميعاً ضوء القمر قبل الفجر بساعتين أو ثلاثاً، وانطلقنا في طريقنا باتجاه الجنوب الشرقي. كل البلاد التي كان علينا اجتيازها في الأربعة أيام التالية كانت متماثلة، فبضع كلمات يمكن أن تفي بوصف طبيعة هذه المرحلة من الرحلة وبشكل كامل.

«القصيم الأعلى عبارة عن نجدٍ مرتفع أو سهل واسع، ويشكل جزءاً من الحزام

النجـدي الطويل، يعبر وبشـكل مائل النصف الشـمالي لشـبه الجزيـرة؛ وأحد أطرافه يصـل إلى جـوار الزُّبيـر والفُـرات، بينما يمتـد الطرف الآخـر نحو الأسـفل إلى قرب المدينة. وسـطحه بشـكل عام يغطيه العشـب في فصل الربيع والصيف، وبالشجيرات والأجمـات في كل الأوقات، وبذلك يوفر مرعى جيـداً للأغنام والإبل. وتهبّ خلاله النسـائم الشرقية العذبة، التي يُتغنى بها في الشعر العربي تحت اسم «صَبا نجدٍ» (وهي لا تهبّ إلا من الزاوية المقابلة لنسـيم الإغريق أو الرّومان)، وباسـتمرار يتوسـل إليها الشـعراء العاطفيـون لتحمل لهم أخباراًعـن الأحبّة المتخيّليـن أو الذكريات الجميلة. وليس عجباً؛ أن معظم هؤلاء الشعراء هم أنفسهم أصلهم من الحجاز القاحل أو تهامة المحرقة، ويمكن أن يكون أهل مصر أو سوريا، كونهم لا يعرفون إلا القليل عن جزيرة العرب، فقط ما قد شـاهدوه من طريق الحج إلى مكّة، فهم وبشكل فطري ينظرون إلى الماضي بشـوق، وباستمرار يشيرون، كلما سنحت الفرصة لهم إلى الهضاب الوسطى المعتدلة والأكثر خصوبة، مطلقين عليها اسم نجد، بشكل عام، حسب تجربتهم العابرة لمناخها العذب والمنعش، ولرجالها الدمثين ونسائها المرحات.

«ولكـن عندمـا، وهـذا ليـس نـادراً، تمتـزج الرائحـة العطرية لنبـات شـبيه بالزَّعتر والموجـود بكثـرة مـع نسـائم الصبح اللطيفـة مما يزيـد مـن تأثيرها العطـري، عندها وبالتأكيد يمكن أن يعذر المرء النشوة العارمة للشعراء العرب، وأن يقدّر – على الأقل غالبـاً ما كنـت كذلك – توقهم إلى نجـد، وكل الثناء الذي يجودون بـه على ذكرياتها. شعر[1]:

أقـولُ لصاحبي والعيسُ تهوي ... بنـا بيـن المُـنيفـة فـالضِّـمار

تَـمَـتَّـعْ مِـنْ شَميمِ عَـرَارِ نَجْدٍ ... فما بَـعْـدَ الـعَـشِيَّـةِ مـنْ عَـرَارِ

ألا حَـبّـذا نـفـحـاتِ نـجـدٍ ... ورَيَّـا رَوْضِـهِ غِـبَّ الـقِـطَـارِ

---

(1) أورد المؤلف (نقلاً عن پالغريف) الأبيات مترجمة إلى الإنكليزية، لكني بعد البحث وجدتُ أصلها العربي، وهو ما أثبتّه هنا، والأبيات للصمّة بن عبد الله القُشَيري من شعراء العصر الأموي، وثمّة من ينسبها بالغلط لقيس بن الملوّح (مجنون ليلى).

وَأهْـلُـكَ إذْ يَحـلُّ الـحَـيُّ نَـجْـداً ... وأنــتَ عـلـى زمـانِـك غـيـر زارِ
شُـهُـورٌ يَنْقَضِينَ ومـا شَـعَـرْنَـا ... بَـأنْـصَـافٍ لَـهُـنَّ ولا سَـرَارِ
فـأمّـا لـيـلُـهـنَّ فـخـيـرُ لـيـلٍ ... وأطـولُ مـا يـكـونُ مـن الـنَّـهـارِ

* * *

مضينا في سفرنا ثلاثة أيام أخرى فوق هذه الأرض النجدية المتموّجة، نقطع من ستين إلى سبعين ميلاً يومياً. كان المنظر واسعاً، ولكنه رتيب بعض الشيء. لا يوجد جبال عالية ولا أنهار ولا بحيرات ولا أودية عميقة هناك؛ فقط تكرار متواصل للنجود الصخرية، والتجاويف والسطحية الرّملية، والقرى المحاطة بأشجار النخيل، وامتدادها واتجاهها يدل على وجود مجارٍ مائية جوفية.

في مساء اليوم الثالث وصلوا إلى القوارة Kowara، الواقعة في أقصى جنوب مقاطعة طلال – وهي قرية كبيرة، تقع على منخفض مليء بالأشجار والمياه. وهنا ما برحوا يجدون النظام والأمن الذي أرساه الحاكم، ونشره في كل أنحاء دولته. غادروا الصباح التالي، في 14 سبتمبر، وعبروا بضع هضاب، تنخفض بشكل فجائي إلى مستوى الأرض، ثم يبرز فوقها فجأة الامتداد الجنوبي للقصيم.

«الآن، ولأول مرة»، يقول پالغريف، «تمكنا إلى حد ما أن نقدر قوة الوهابيين في سيطرتهم على أرض كهذه. امتدّ أمامنا حتى الأفق البعيد سهل واسع جداً، تتناثر فيه البلدات والقرى، كانت الأبراج والبساتين، كلها ترتفع تحت ضوء الظهر الباهر، وتعلن عن الحياة والوفرة والحيوية في كل مكان. إن متوسط عرض هذه المنطقة المزدحمة حوالي ستين ميلاً، وطولها يصل إلى ضعفي ذلك أكثر أو أقل بقليل؛ تقع على انخفاض يصل إلى مئتي قدم عن الهضبة، التي تنتهي هنا كجدار. خمس عشرة قرية كبيرة أو أكثر وحوالي أربع أو خمس بلدات تشكل المراكز التجارية والزراعية للمقاطعة، وسطحها مغطى بكثافة بقرى صغيرة، آبار منعزلة أو حدائق، وتجتازها شبكة طرق لكل الجهات. من هنا تبدأ وتمتد إلى جبل طويق نفسه سلسلة من أبراج المراقبة العالية التي تقدم للسكان وسيلة للرؤية من البعيد لاقتراب أي غزو أو هجوم،

والذي يتعذر عليهم دونها بسبب مستوى سطحهم، وبذلك يستعدون للمقاومة. وبما أنه لا يوجد في جزيرة العرب الوسطى أي جزء أقدم أو تم بناؤه بشكل أفضل ليحقق الحضارة والغنى، فإنه لا يوجد أيضاً أي جزء شكّل نقطة انطلاق أو تهديد لحروب كثيرة، أو شهد تجمعاً لجيوش كبيرة.

«توقفنا للحظة على حافة الهضبة لنستمتع بالمشهد المدهش أمامنا. في الأسفل يمتد سهل واسع؛ وعلى مسافة تبعد عدة أميال رأينا بساتين النخيل الكثيفة في العيون، وضيقت أوراق الأشجار الكثيفة مجال الرؤيا للأبراج والقلعة. وهناك غير بعيد عن يميننا، أي في الغرب، بقعة داكنة واسعة تحدد المساحات المزروعة التي تطوّق مدينة الرَّسّ؛ تتناثر أيضاً قرى أخرى وهَجرات بغزارة على المشهد. على طول الحافة التي وقفنا عليها، وعلى نحو مرئي على مسافات باتجاه السطح في الأسفل، ارتفعت أبراج مراقبة دائرية في القصيم. ولكن وقف أمامنا مباشرة نصب أكثر تميّزاً، يجعل المرء يركز انتباهه ويتساءل حتى بالنسبة لرفاقنا العرب أنفسهم.

«هبطنا بصعوبة الطريق الضيق الذي تمتدّ منعطفاته من سلسلة إلى سلسلة باتجاه الأسفل، عندما رأينا أمامنا عدداً من الصخور الضخمة، مثل صخور الجلمود الضخمة، تتوضع طولياً وبشكل عمودي فوق التربة، بينما يرتفع فوق قمم بعضها كتل مشابهه بشكل عرضي. كانت مرتبة بشكل منحنٍ، مرة يشكل الجزء الظاهر منها قسماً من دائرة كبيرة، وأخرى كثيرة كشظايا تتواجد ملفوفة على الأرض على مسافة قريبة؛ عدد تلك العمودية، حسب ذاكرتي، كان ثمانية أو تسعة. تشكل اثنتان منها، وتبعد أحدهما عن الأخرى حوالي عشرة إلى اثني عشر قدماً، عارضتي بوابة، وتحمل العتبة العلوية الأفقية كتلة طولانية تتوضع بينهما؛ البعض منها قد تجرد من العارضة العلوية، وتدعم البقية قطعة أساسية في تحدٍّ للزمن وفعل الإنسان المخرّب. بدا أحد هذه العضائد العرضية متوازناً بشكل جيد، على أمل أن يثبت الحجر المتقلقل rockiong-stone، سرت بجملي إلى تحته، ثم مددتُ عصاي إلى الأعلى وبطول ذراعي حتى تمكنت من لمسه ودفعه، لكنه لم يتحرك. في حين أن أطوال الجمل والراكب والعصا

مجموعة مع بعضها تدلّ على أن الحجر يقع على ارتفاع خمسة عشر قدماً كاملة عن الأرض.

«تبدو هذه الكتل، نظراً لنوعها، أنها قد نُحتت من جُرف مجاور من حجر الجير، وشُكّلت بخشونة، ولكنها لا تظهر الكثير من آثار الفن، لا يوجد أخاديد ولا فجوات تدل على أهمية قربانية، ولا شيء يوحي بالتصوير أو التزيين. يعزي أهل البلاد تشييدها إلى دارم، وأنه أنشأها بيديه، متصوّرين أنه كان عملاقاً؛ ومن الممكن أيضاً بواسطة بعض أنواع السحر، إذ أنه كان ساحراً. بالاتجاه نحو الرأس، أكد رفاقنا أنه يوجد دائرة حجارة مشابهه، وهي أيضاً ذات أبعاد ضخمة، توجد هناك؛ وأخيراً ذكروا وجود ثالثة باتجاه الجنوب الغربي، التي تقع على حدود الحجاز.

«هنا، كما في معظم أجزاء الجزيرة، المادة الرئيسة في الزراعة هي نخيل التمر. ويوجد لهذه الشجرة الكثير من الأصناف المختلفة، ويمكن للقصيم أن يتباهى بامتلاكه أجود المعروف في كل مكان، ويستثنى فقط الخلاص Khalas في الحَسَا (الأحساء). يصادف فصل النضوج النصف الثاني من شهر أغسطس والنصف الأول من شهر سبتمبر، وبذلك كانت لدينا فرصة ملائمة لتذوق المحصول. هؤلاء الذين يعرفون كما معظم الأوروپيين في بلادهم، التمر من الأنواع المجففة من هذه الثمار المعروضة تحت اللافتة في واجهات المحلات، من الصعب أن يتمكنوا من تصوّر كم هو لذيذ عندما يؤكل طازجاً وفي جزيرة العرب الوسطى. ولا عندما يدفأ المقطوف حديثاً، هذا الخلل المؤصّل في الثمار المحفوظة في أي مكان؛ ولا في غناه، وحجمه، ويجلب التخمة: باختصار، إنه نوع من طعام لذيذ وصحي على حدّ سواء. وكونه رخيصاً في موطنه الأساسي أمر من الممكن أن يثير دهشة اللندني. إن كمية من التّمر الكافية من أجود الأنواع من بساتين بُريدة تملأ منديلاً عربياً كبيراً، أبعاده خمسة عشر إنشاً لكل جهة، وتقريباً لحدّ الانفجار، كلفتنا أنا وبركات مبلغاً متواضعاً عبارة عن ثلاثة فرنكات farthings. علقناه في عارضة سقف شقتنا لنحفظ الثمار الحلوة بعيداً عن النمل، واستمرت لثلاثة أيام متتالية تقطر حلاوة في وعاء السكر على الأرض، قبل

أن نكـون قـد التهمنا المحتويـات، على الرغم من وجوده في كل غداء أو عشـاء طوال هذه الفترة.

«وبعـد مدة وجيزة كنـا تحت الأسـوار الخارجية لبلدة عيـون Eyoon'، وهي بلدة كبيرة نسـبياً تحتوي على الأقل على عشرة آلاف نسمة حسب حدسي التقريبي. منحها موقعها المتوسط، تماماً في نقطة الاتصال بين خطوط المواصلات الشمالية والغربية، أهمية، ولهذا السـبب فهي محصّنة بعناية، وأيضاً للبلاد، وزُوّدت بأبراج مراقبة، تشـبه كثيراً بناء المداخن من حيث الشكل والحجم، إضافة إلى قلعة ضخمة وواسعة. يمكن أن يتوقع قرّائي التشابه، المتناسب، مع معظم المدن والقرى الأخرى في هذه المقاطعة.

«يوجـد بيـن أسـوار المدينة وتلال الرّمـال القريبة مـلاذٌ، حيث خلدنـا للنوم لأربع سـاعات تقريبـاً، حتى بزغ القمر الشـاحب. وأصبـح الجميع في حركـة ثانية، الجمال ترغـي، والرجال يحملون الأمتعة، والطبيب والمتمـرّن معه يمتطيان دابتيهما، الجميع باتجـاه بُريـدة. لكن تلك المدينة بعيـدة، وأخيراً عندما طلع النهـار كان لا يزال أمامهم طريـق طويل ليعبروه. وهو يمتد بين الرّوابي والأودية، وافر بالزراعات المذكورة آنفاً؛ وبعيد شروق الشمس أمضينا ساعة كاملة في عبور بساتين وحقول الغاط Ghat، وهي قريـة غير منظمة، وفيها حزمة من الآبار ترفـد القرية برّي غزير. على الرّوابي المتاخمة – فلا يمكنني تسميتها مرتفعات – استمرّت سلسلة أبراج المراقبة، تتوافق مع الأخرى البعيـدة التـي تعود للقـرى المرئيـة عند إلقاء نظـرة على المنطقة؛ سـمعتُ أسـماءها، ولكنني نسـيتُها فوراً. إن عـدم القدرة على تدوين مثل هذه التفاصيل مباشـرة كان أمراً مزعجـاً جداً بالنسـبة لـي؛ لكن منظر القلـم ودفتر الملاحظات قـد كان حينها بوضوح خـارج المكان تماماً، وقـد أُرغمت على الثقة بالذاكرة التي خانتنـي هنا كما في الكثير من المناسبات الأخرى.

«لقد أرهقنا مسـير لعشـر أو اثنتي عشرة ساعة، وكان الجو قاسياً بشدة، وهي ليست ظاهـرة اسـتثنائية في القصيم، بين الأرض الرّملية المنخفضـة وخط العرض الجنوبي، حيـث يكـون المناخ حاراً أكثر بكثير منه في جبل شـمَّر أو في جبال طويق. ولذلك كنا

مسـرورين جداً عندما كشـف صعود ربـوة منخفضة أمام أعيننا مدينـة بُريدة التي نتوق إليهـا، والتي ترتفع حصونها البيضوية ليظهر في وسـطها سـهل واسـع ومـزروع. كان منظـراً ليلائم تُرنَر[1] Turner. برج مراقبـة هائل، يصل ارتفاعه قرابة المئة قدم، ومئذنة بحجم أصغر قليلاً، وكتلة من الأسـوار المحصنة، التي لـم نكن قد رأينا مثلها سابقاً في جزيـرة العرب، وبسـاتين خضراء فيمـا حولها وأدغال من الإثـل، كل هذا تحت وهج شـمس الظهيرة غير الطبيعية، أعطى منظراً فريداً من نوعه، متجاوزاً كل شـيء كنت قد توقعته سـابقاً، ومشيراً إلى كثافة عالية في السـكان وثراء كبير. كنا تواقين للدخول عبر هـذه البوابات وأن نمشـي في تلك الشـوارع. ولكن كان مايزال أمامنـا وقت كفيل بأن يتعبنا. وعلى بعد فرسخ من المدينة قادنا مرشدنا مبروك خارج الطريق الرئيسية باتجاه اليميـن، صاعديـن وهابطين بعـض التلال الرّمليـة الصغيرة ولكـن المنحدرة، وبعض المنحـدرات الحـارة، حتى السـاعة الثانية من بعد الظهـر تقريباً بعد أن كنا قد انشـوينا نصف انشواء بالشمس، وصلنا إلى بوابة حديقته، وهو لـم يكن متعباً أبداً.

«كان الصباح ساطعاً، مع بعض البرودة، عندما تحرّرنا من متاهة الإثل والمنحدرات الرّمليـة، ودخلنا الطـرق المتقاطعة مع الحديقة التي تلفّ المدينـة، بكل هدوء وأمان. ولكـن اقترابنـا مـن بريدة كان مقـدّراً عليـه أن يزودنـا بالمفاجآت غيـر المتوقعة وغير المرغـوب فيهـا، على الرغم من أنه كان حقاً أقل دهشـة من تلك التـي أقلقتنا عند أول دخولنـا حائـل. كنا قد عبرنا للتـو جانب بئر موجود بقرب زاوية مـن جدران الحديقة، عندما رأينا رجلاً توحي ملابسـه وهيئته أنه سـائق بغال من الشـمال، يسـقي زوجاً من البغال عند البركة التي بجانبه. حدّقتُ به أنا وبركات بدهشة، وكنا بالكاد نصدق مانرى؛ وذلـك لأننـا منذ مغادرتنا غزة باتجاه الصحراء الجنوبية الشـرقية لـم نقابل أحداً يلبس مثـل هذا الملابـس، ولا مثل هذه الحيوانات، فكيف أتوا إلى هنا؟ ولكن لم يكن هناك أي خطأ لا بالرجل ولا بالدواب، وعندما رفع سائق البغال هذا رأسه ليرى المارين به،

---

(1) جوزيف مالورد وليَم تُرنَر (1775-1851) Joseph Mallord William Turner رسام إنكليزي اشتهر بلوحاته الطبيعيّة التي يغلب عليها الطابع الرّومانسي.

حدَّق باتجاهنا أيضاً، وبالتأكيد ميّز فينا شيئاً فاجأه. ولكن اللغز مالبث أن حُلّ..

«فبعد عدّة خطوات إلى الأمام، انفتح طريقنا على سهل واسع يمتد مباشرة تحت أسوار المدينة باتجاه الشمال. هذا السهل الآن مغطى بالخيام وزحمة رجال بألبسة وهيئات أجنبية، كانوا مختلطين مع عرب المدينة والصحراء، نساء وأطفال، يتحدثون ويتشاجرون، يبيعون ويشترون، يروحون ويجيئون، في كل مكان يوجد سلال مملوءة بالتمر والخضراوات، أطباق كبيرة محملة بالبيض والزبدة، حليب ولبن خاثر، لحم معلق على أعمدة، أحزمة من الحطب... إلخ، اصطفت كلها واقفة في صفوف، كان ثمّة خيّالة وجمّالة راكبين بين الجماعات الجالسة حول النار أو المضطجعين على أمتعتهم، وفي وسط هذا الخليط كله يوجد كرة مطلية بالذهب موضوعة فوق خيمة كبيرة مصنوعة بشكل لم أر مثله منذ آخر مرة غادرت فيها الهند، أي ما يقارب أحد عشر عاماً مضت، وأعداد كبيرة من الخيام الأصغر من القماش المخطط، الذي هو بالتأكيد ليس من الطراز العربي، كانت قد تجمعت حولها. إنه مشهد مفعم بالحياة، وخاصة في صباح صافٍ، ولكن يتطلب بعض الشرح بسبب تكوينه الغريب وغير العربي.

«تعود هذه الخيام إلى قافلة الحجّاج العجم الكبيرة، وهم في طريق عودتهم من المدينة إلى مشهد علي[1] عبر طريق القصيم، وذلك كان سبب كل هذه الحشود وهذا الازدحام.

«مضينا منحرفين قليلاً باتجاه الشرق، تاركين المخيم المزدحم على طرفنا والتفتنا لندخل بوّابات المدينة. كما هي الحال بشكل عام في كل مدن جزيرة العرب الكبيرة والقديمة كذلك هنا، فالتحصينات فقط تحيط بالبيوت، والبساتين تمتدّ خارجاً، في بعض الأحيان تكون محميّة - كما في عُنيزة على سبيل المثال - بحزام خارجي ثانٍ من الأسوار والأبراج، ولكن في بعض الأحيان، كما هي الحال في بُريدة، تكون مجردة من أي نوع من أنواع الحماية الجدارية. تتألف المدينة بحد ذاتها بشكل أساسي

(1) ذكرنا أعلاه أن مشهد علي لقب كان يُطلق على مدينة النَّجَف في جنوبي العراق.

من شـوارع، وبيوت، وأسـواق، وبالتالي فلها مظهر مألوف أكثر من الترتيبات الحديثة لقـرى الجـوف وحتى حائل. قطعنا عدة شـوارع، معقولة الكبر ولكنهـا كثيرة الالتواء، وبعدهـا جعلنا الجمال تبرك على الأرض في سـاحة صغيرة أو مكان عام، حيث بقيتُ جالساً بالقرب منها على الأمتعة، أبدّل الأيادي كما يفعل العرب العاديون المسافرين، وبركات مع مبروك ذهبا للبحث عن مكان للإقامة.

«بدت لي النصف ساعة التي أمضيتُها في الحراسة حتى عودة أصحابي من مهمتهم طويلـة جداً، كانت الشـوارع مليئة بالناس، وازدحام كريه مـن الطبقة الدنيا كان يتجمع حولي وحول جمالي مع مرور كل دقيقة، بشكل يظهر الفضول الشعبي والسّوقي الذي مـن الممكن أن نراه فـي كل مكان. ورجع أصحابي أخيـراً ليخبروني بأنهم قد وجدوا مـا كانوا يريـدون. ركلة أو اثنتان جعلـت الجمال منتصبة على أرجلهـا ثانية، وتحركنا لمكان إقامتنا الجديد.

«هـذا البيـت الـذي نتكلم عنه كان لا يبعد أكثر من مسـيرة خمس دقائـق عن البوابة الشـمالية، ويبعد المسـافة نفسـها عن السّـوق الكبير على الطرف الآخر. ولذلك كان موقعـه جيداً. كان عبارة عن غرفيتن كبيرتين في الطابق الأرضي، وثلاث غرف أصغر، بجانب ساحة كبيرة، محاطة بجدران عالية. يقود السلم الملتف والمؤلف من درجات غير عادية والمضاء بشـكل سـيء - مثله مثل كل السـلالم في نَجد - عالياً إلى اتسـاع سـقف مستو، محاطاً بحاجز على ارتفاع ستة أقدام، ومقسماً إلى جزئين بواسطة جدار قاطع، وبهذا يهيّئ مكاناً مناسـباً جداً للإقامة في الصباح والمسـاء، عند الساعات التي لا تلقي فيها الجدران الجانبية الحماية الكافية من الظل لحماية هؤلاء الجالسـين على طولها، إلى جانب كونه مكاناً ممتازاً للنوم في الليل».

أرسـلوا فـي اليـوم التالي لوصولهم رسـالةً إلـى مهنّا، حاكـم بُريـدة، وذلك لطلب مساعدته في العبور إلى نَجد. ولكنه كان مشغولاً جداً في ابتكار طرق لتخليص أموال أكثـر كجزيـة من الحجّـاج العجم ولم يكـن ليعطـي أي انتباه إلى شـخصين لا يوحي لباسـهما ومظهرهمـا بأيّ ثراء. ثبـت فيما بعد أن هذا التجاهل كان حظـاً جيداً. أمضوا

بعدها عدة أيام محاولين إيجاد جمال ومرشدين ولكن دون جدوى.. لم يكن ثمّة أحد يريد أن يتعهّد بهذه المهمة. يبدو الإقليم المركزي لنجد، موطن الوهابيين الحقيقي، بالنسبة لبقية جزيرة العرب شيئاً مثل عرين الأسد، الذي دخله بعض المغامرين ولم يرجع منهم غير القلائل. إن الرجل العجوز في بُريدة، الذي طلب إليه پالغْريف معلومات، أجابه ببساطه: «إنها نجد، التي من دخلها لا يخرج منها ثانية» وهذا فعلاً حقيقي. جبالها، والتي حمتها مرة من اللصوص والمجرمين، وهما في الوقت الحالي متساويان أو حتى أكثر، مدهشة كحصون المتعصبين الذين يعدّون أي إنسان غيرهم ملحداً أو مهرطقاً، والذين يعدّون ذبح الهراطقة والملحدين كالواجب، أو على الأقل أن صاحبه يستحقه.

إضافة إلى هذا الاعتبار عموماً، من توجّس بأن شيئاً أسوأ من مجرد الاستقبال البارد في نجد، فإنّ الحروب وإراقة الدماء، والعدوان والاستبداد، قد ضاعفت الكراهية الأساسية من السكان المحيطين إلى استياء تام وخاص من جرّاء الإساءات التي وقعت، ربما عمداً، حتى أصبحت نجد للجميع ماعدا أبناءها أنفسهم خطرة بشكل مضاعف ومرهوبة بشكل مضاعف أيضاً.

كانت هنالك ظروف أخرى على ما يبدو جعلت وضع پالغْريف أكثر صعوبة، وعلى الرغم من أنه كان محظوظاً في النهاية، فإنّ عصياناً قد ظهر فجأة في مدينة عُنيزة المجاورة وكان يرأسه زامل، وهو زعيم من البلدة ذاتها. كانت المدينة في تلك الفترة محاصرة من قبل الوهابيين، ولم يكونوا قد قبلوا الإذعان بعد بشجاعة، والتعاطف من الناس الذين في كل القصيم كانت في صف زامل، ووجود الجنود الوهابيين فقط في بريدة منع المدينة من التمرّد أيضاً. أرسل المتمرّدون وفداً إلى مكّة وإلى جبل شمَّر أيضاً لطلب المساعدة، ولعل بعض الاحتمال كان قائماً لحدوث ثورة عامة في وسط جزيرة العرب ضد السيادة الوهابية المفروضة. وكان على ما يبدو سيكون الوقت غير مناسب للدخول إلى قلعة نجد. لم يكن پالغْريف خائفاً جداً من أن يُشكّ بأمره بأنه أوروبي، بقدر ماكان خائفاً بأن يُشكّ بأنه جاسوس عثماني. كانت حاجته الأساسية

علـى كل حال هـي المضي قُدُماً بسـلام. وهكذا وصف كيف أن الحـظ حالفه وجعله يتعرّف إلى رجل، كان تقريباً السبب في نجاح كل رحلته فيما بعد:

«كان قد مضى على وصولنا سـتة أيام، وفي الثاني والعشـرين من سبتمبر عند وقت الظهيـرة كنت جالسـاً وحدي كئيباً، محـاولاً إضاعة الوقت بقراءة ديـوان ابن الفارض المتميّـز، أفضـل صديـق لرحلاتـي. وكان بـركات قد خرج بنـاء على طلبـي، والأمل بالنجـاح أقلّ مـن النجاح في الذهاب مـن أول الأرض إلى آخرها والمشـي من فوقها إلى تحتها» حتى لم أكن أتوقع عودته في حال أحسـن من التي خرج فيها. وفجأة! بعد ساعتي غياب رجع بوجه مشرق، ويبشّر بأنباء جيدة.

كانـت فعلاً أخباراً جيدة، ولا يمكن أن يكـون أفضل من هذا. قال حاملها بأنه بينما كان يتجـوّل دون جـدوى فيما بين الشـوارع والأسـواق، خطـر بباله أن يـزور المخيّم العجمـي. وهنـاك وبينما كان شـارداً فيما بيـن الخيام، مثل الذي يغسـل الكلاب، كما يقـول الهنـدوس، لاحظ مكاناً معزولاً عـن الازدحام فيه جماعة صغيـرة من الحجيج يجلسـون جانـب أمتعتهـم علـى الرّمال، بينمـا كانت خيـوط من الدخـان تتصاعد من وسـط الحلقة مشـيرة إلى وجود نار، وفي هذا الوقت من النهار لا تشـير النار إلى شيء غيـر القهـوة. وعلى الرّغم من كون بركات متحضراً فدون شـك كان بدمه وقلبه عربياً، وبالنسـبة للعربي فرؤية القهوة وهي تحضَّر وعدم وضع نفسـه في موقف ليشـارك بها يكون فعلاً تمالكاً للنفس لم يُسـمع به قط. فتقدّم من المجموعة وكان بلا شـك مدعواً للجلـوس والشـرب. كان الاجتمـاع يتألف من رجليـن عجميين ثرييـن، ومعهم ثلاثة أو أربعـة من الرجال المتوسـطين، اللذين يُعدّون نصف خـدم ونصف أصحاب، وهم يرافقون المسـافرين في بغداد أو ماحولهـا، إضافة إلى هجين بين أصل عربي وزنجي، وسيّده، وهذا الأخير كان قائداً للمجموعة، والذي يعطي الشيء الطيّب الرائحة.

اسـتحوذت هذه الشـخصية على كامل انتباه بركات. وجهٌ جميل مميّز، وبالتأكيد له ملامـح لا تنتمي إلى شـبه جزيرة العرب، ذو شـعر طويل متجعد يصـل حتى الكتفين، وعباءة منسـوجة من الحرير، متسـخة بعض الشـيء بسبب السـفر، وغترة من الصناعة

السّورية على الرأس، إن السلوك والهيئة يدلان على ثقافة أعلى ممن هو في طبقته الاجتماعية العادية نفسها ومهنته ذاتها كجمّال، فكل هذه الخصوصيات كانت كافية بأن تجلب الانتباه، وتثير الظن. ولكن عندما ترافقت هذه الخصوصيات كلها مع ترحيب وتحية بالشكل والطريقة الدمشقية أو الحلبية، وهذا الاحترام المفرط والجمّ الذي يُعرف به السّوريون في كل الإمبراطورية التركية، لم يعد لدى بركات أدنى شك بأنه مع أحد من أبناء بلده وأن أحداً ذا شخصية مهمة يقف أمامه.

كانت هذه هي الحقيقة في الواقع. أبو عيسى، والمسمى بهذا الاسم لأنه كان معروفاً به في هذه الأجزاء، على الرغم من أنه في بلده يحمل لقباً آخر، كان مواطناً حلبياً، وابن أحد الأفراد المهمّين في تلك المدينة الجميلة. إن تعليمه والظروف التي مرّ بها في فترة مراهقته، كل ذلك جعله ملمّاً وعلى حدّ سواء مع أهل المدن والرّعاة، بالحضر والبدو، بالعرب والأوروبين. إنه منحدر من سلالة بدوية، بما أن جدّه ينتمي إلى المجادمة، الذين هم أنفسهم فرع من بني خالد، ولكن بالعادات والسلوك كان من أبناء حلب الأصليين، حيث أمضى الجزء الأكبر من طفولته وشبابه. فعندما كان في سن الخامسة عشرة تقريباً تورّط – بغض النظر فيما إذا كان يستحق اللوم أو لا – في مؤامرة كبيرة ضد الحكومة التركية، حدثت أثناء العصيان المسلح عام 1852. ومثله مثل كثيرين غيره كان قد أجبر إلى استباق النتائج بالسفر السريع.

وبعد تجربته للتجارة محاولاً أن يعوّض حظه المنكوب، ولكن مع نجاح قليل، انخرط أبو عيسى في تجارة الخيول بين بلاد فارس وجزيرة العرب، والتي فشلت أيضاً. بعدها ذهب إلى الرّياض، عاصمة نجد، وبواسطة هدايا إلى فيصل، كبير القوم، حصل على منصب مُرشد لقافلة الحجّاج العجمية إلى مكّة، عبر جزيرة العرب. في ذلك الوقت كان له في هذا المنصب ثلاث سنوات، وجمع ثروة ضخمة، بسبب لباقته، وحسن معشره، ونزاهته الشديدة التي جعلته مشهوراً فيما بين الحجّاج.

«استطاع أن يجد في بركات صديقاً من بلده» كما قال بالغريف «استقبله بلباقة ملحوظة، وزوّد نفسه بنباهة بمعلومات حول المكان الذي أتينا منه والمكان الذاهبين

إليـه. كان بـركات فرحاً جداً بـأن يجد أخيراً شـيئاً من الانفراج بعـد كل الصّعاب التي ظهرت لتعيق كل الخطط المسـتقبلية، فلم يلبث أن سـأله فيما إذا كان سـيتولّى قيادتنا إلـى الرّياض. أجاب أبو عيسـى بأنه كان على وشـك الانفصال عـن أصدقائة العجم، ومغادرتهـم سـتبقي جمالاً كافيـة وزيادة بناءً علـى ترتيباته، ولم يكن يوجـد حينها أيّ عائق لطلبه. وأما فيما يتعلق بالوهابيين ورفضهم لاستقبال الغرباء في داخل حدودهم، فقـد أعلمنـا بأنه معروف لهـم جيداً، وبما أننا برفقته فلا ينبغي أن نخاف من شـكوكهم وانتقاداتهم.

كانـت الاتفاقيـة قد تمّت مباشـرة، والمسـافرون ينتظـرون صاحبهـم الجديد للتوّ ليقوم ببعض الترتيبات النهائية مع الحجّاج العجم، الذين كانوا سيسـافرون مباشرة من بُريدة إلى بغداد. وفي أثناء ذلك اسـتغلّ المسـافرون هذا التأخير ليروا أكبر قدر ممكن مـن المكان، وحتى قيامهم برحـل قصيرة ورخيصة في الجوار، وخاصـة باتجاه عُنيزة المدينة المسـوّرة. إن وصف پالغريف لهذا المكان يعرض بأنّ له المعالم العامة نفسها كتلك التي في مدن جزيرة العرب الأخرى، والتي من الممكن أن تكون قد اقتبست من طبيعتها الحقيقية:

«ذهبـت أنا وبركات لشـراء حاجيتنا الصباحية من السـوق، وكانت الشـمس حينها علـى ارتفاع سـاعة من الأفـق، واعتقدنا بأنـه الوقت المناسـب لزيارة سـوق المدينة، والـذي سـيفتح أبوابه قريباً. دخلنا مرة ثانية من بوابـة المدينة، ومررنا بطريقنا أمام باب منزلنـا، حيـث نترك حـزم الأكل، وعدنا إلى الطريـق العام في بُريـدة. وليس بعد وقت طويل وصلنا إلى قوس عال يقطع الطريق، هذه البوابة تفصل السوق عن بقية المنطقة. أول ما رأيناه عند دخولنا كان صفاً طويلاً من دكاكين بيع اللحوم على الطرفين كليهما، وهناك خطّاف سميك معلق عليه لحوم ضأن وجمل، بشكل كدر. ولولا وجود الهواء النقي والمناخ الصحي، لكان من المؤكد انتشار الطاعون هنا، ولكن في جزيرة العرب لا يبدو أن يحدث هذا.

«تعجلنا ومررنا فيما بعد ذلك بسلسـلة من دكاكين الأقمشة والقطن التي تكدست،

وجزء منها محلّي ولكن الجزء الأكبر مستورد، فمن عباءات وغترات من صنع بغداد، على سبيل المثال، وشالات سوريّة وأخفاف مصرية. والأسواق هنا تتبع القانون العام على طول الشرق، وهو بأن تكون جميع المحلات والدكاكين التي لها المواصفات نفسها في مكان واحد، وهو نظام تتفوق مزاياه على عيوبه، على الأقل في مدن صغيرة كهذه. أما في المدن الكبيرة وعواصم أوروپا العظمى فإن امتداد المكان يتطلب بشكل أكيد طريقة تنظيم مختلفة، من الممكن أن تكون سخيفة لسكان هايدپارك الذين لم يجدوا بائعي القبعات في مكان أقرب من البرج. ولكن أنّى لبُريدة أن تُقارن بالمدن الأوروپية أو حتى بتلك ذات المستوى الثاني؟ على كل حال، في وسط الزحام، ليس من الممكن أن تقارن بأي منها.

«إن الشوارع في هذا الوقت من النهار مزدحمة بشكل مدهش، والذي يجعل الوضع أسوأ، وجود جمل ضخم ذي أقدام مفلطحة يأتي من حين إلى آخر، يترنّح متنقلاً من طرف إلى آخر مثله مثل القارب الكبير، مع عارضة طويلة على ظهره تهدّد رؤوس هؤلاء الذين على الطريق، أو بحمولتين كبيرتين من الحطب، يصل حجم كل واحدة منها إلى حجمه، مبعداً الرجال والنساء والأطفال من طريقه، بينما يجثم السائق في الأعلى فوق السّنام، ينظر إلى هذا ساخراً وغير مبالٍ بما يحدث، ما دام الطريق مفتوحاً أمامه. في بعض الأحيان يوجد صف من هذه الدواب، رسن الرأس لكل منها مربوط إلى ثِفر المِذيَلة crupper كالذي بعده، والناس تكون متضايقة جداً عندما تتلاقى معها في المنعطفات الضيقة.

«في خلال هذه العقبات كنا نجد أو نشق طريقنا، حيناً في وسط دكاكين الجلود وصانعي الأحذية، وحينا آخر بين النحّاسين والحدّادين، الذين يمكن لضجيجهم المتحد أن يوقظ الموتى أو أن يقتل الأحياء، إلى أن وصلنا أخيراً إلى ساحة المدينة الرئيسة، والتي هي ليست بالساحة السيئة أيضاً، ولا الغريبة، مع الأخذ بعين الحسبان وجودها في القصيم.

«إن سوق الخضار والفواكه كبير جداً، ويشغله تقريباً النساء، كذلك الأمر في دكاكين

البقالة والبهارات. ولا يبدو الجنس اللطيف في بُريدة أقل ولو بمثقال ذرة من شركائهن الخشنين في أصول التجارة والأمور الاقتصادية. وكما قال الشاعر العربي: (المرأة المانعة ليست بأقل كرماً من الرجل الكريم) وهذا يشابه ما قاله لانس الڤيروني[1] Lance of Verona في تعليقاته على القائمة التي تحتوي على «مواصفات» زوجته المستقبلية.

«تتمتع المدينة بمظهر عام يدل على ازدهار قديم مندثر. توجد بعض البيوت الجديدة، ولكن ثمّة الكثير من البيوت المتهدّمة. كانت الوجوه أيضاً لأغلب من قابلنا جدّية، وأصواتهم ذات طبقة منخفضة. أثواب الحرير محرّمة من الجماعة الحاكمة، والتدخين مسموح به في الداخل فقط، وخفية. يقوم بين الفينة والأخرى الوهابيون المتشدّدون المبعوثون من الرّياض بزيارة لتأهيل ووعظ الناس العصاة، وغير المطيعين للعادات النجدية يُنذرون ويعاقبون في أغلب الأحيان.

«مزيداً عن هذه المدينة، فالشوارع ضيقة، حارّة، ومغبرّة، والنهار طويل جداً، ولكن الحدائق باردة. وكذلك اندفعنا بمغامرة خلال متاهة عبارة عن طرق عمودية وأخرى أفقية حتى وجدنا أنفسنا في شارع عريض يشبه شارعاً عريضاً في فرنسا، يذهب مباشرة بشكل مستقيم ولكن داخل الجدران.

«مشينا بعض الشيء في الظل، واختبأنا وسط نباتات الذرة الكبيرة لندخن غليوناً من التبغ بعيداً عن عيون النّجديين التي تراقبنا، وبعدها تابعنا مسيرنا حتى وصلنا بعد مسافة إلى أسفل سلسلة عالية من الرّمال.

«وبينما كنا في إحدى رحلاتنا القصيرة في الأرياف سلكنا طريق عُنيزة، ولكننا وجدنا أنه من المستحيل الوصول إلى داخل أسوارها، فأرضينا أنفسنا بنظرة خارجية عن بُعد لهذه المدينة الكبيرة والمزدحمة، واستطعنا أن نرى عدد بيوتها وأحجامها،

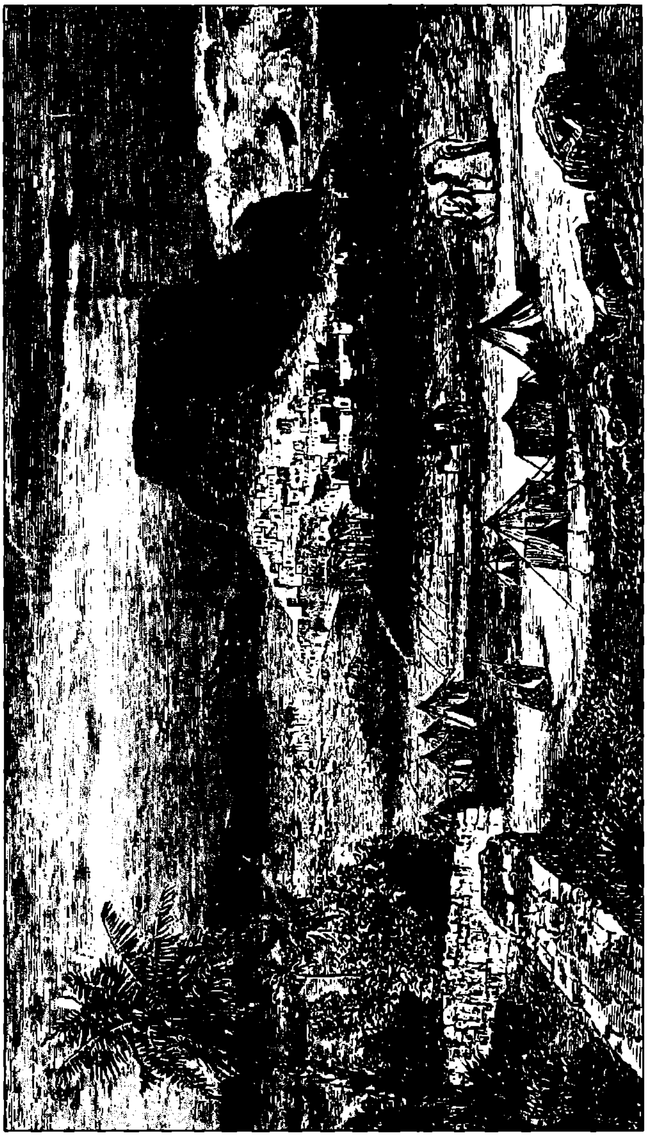
---

(1) إشارة إلى مسرحيّة شكسبير *The Two Gentlemen of Verona* «السّيدان الڤيرونيّان». وصيغة الاسم: لانس أوف ڤيرونا هي بالمنطوق الإنكليزي الذي يقابل الاسم الإيطالي: لانتزو دي ڤيرونا Lanzo di Verona.

واستطعنا من فوق القمم العالية أن نميّز بيت زامل وأسرته. والبيوت فاقت أيّ شيء موجود في بُريدة، فتحصيناتها الخارجية سميكة بشكل كبير، وحزام شجر النخيل الذي بينها وبين المدينة يُعدّ حماية إضافية للمدينة. وعلى الرغم من كل مارأيته فإنه لا يوجد إلا القليل من المباني الحجرية قيد الإنشاء، والتي تبدو وكأنها وبشكل خاص مصنوعة من الطوب غير المشوي، ومع ذلك فإنها حماية هائلة لجزيرة العرب. كل البلاد وما حولها وكل شيء يقع باتجاه الشمال الشرقي على امتداد بُريدة، كان قد خرب بسبب الحرب، وقد لامنا أصحابنا على تهوّرنا في المغامرة ووصولنا إلى هذا البعد، وفي الحقيقة كانت فرصة سانحة لأننا لم نصادف أي معركة ولم نتعرض لأيّة عملية سلب، فالنظام العسكري في القصيم لا يضمن سلامتنا في حال تعرضنا لمثل هذه الحوادث.

«عندما كان الجميع جاهزاً للرحيل الذي طال توقعه، كان الرحيل قد حُدّد بالتأكيد في اليوم الثالث من شهر أكتوبر، الذي يصادف يوم الجمعة، على ما أعتقد، عند أول الليل. منذ أول لقاء لنا أنا وبركات مع مهنّا لم نكن قد لقيناه ثانية، إلا مصادفة، لقاءً كان يترافق مع تحيّة عن بعد في الشارع أو السوق، فلم نكن نرى أيّة حاجة في أن نخصّه بأي وداع، خاصة بعد أن علمنا من هو ومن كان، بذلنا قصارى جهدنا ألا نلفت انظاره إلينا، وبذلك نتجاوز بعض المشاكل الإضافية ونتخلص من دفع ضرائب أخرى، كما أنه لم يذكرنا أمامه أحد. عند طلوع النجوم ودَّعنا مضيفنا وصاحب المنزل أحمد وداعاً أخيراً، وتركنا المدينة برفقة أبي عيسى مرشداً لنا».

* * *



صورة 12: قرية السّويرقيّة

الفصل الثالث عشر

رحلات پالغريف - رحلة إلى الرّياض عاصمة نجد

«امتدّ أمامنا طريقان: الأقصر - ولذلك كان أكثر استعمالاً - يصل إلى الجنوب الشرقي من طرف الشرق ويمرّ من خلال الوشم ووادي حنيفة حتى الرّياض. ولكن هذا الطريق يمرّ من خلال إقليم غالباً ما يزوره في الوقت الحاضر جنود عُنيزة وحلفاؤهم، ولهذا السبب لم يكن أصحابنا متشجعين كثيراً، وعلى الأغلب كانوا خائفين من اتخاذ هذا الطريق. أما الطريق الآخر فلم يكن بالطريق المباشر، ولكنه كان قد أزيل من خارطة العمليات العسكرية، وهو يصل إلى الشمال الغربي إلى زلفي[1]، ومن ثم يدخل إلى إقليم سُدير الذي يقطعه في الجنوب الشرقي أو من الاتجاه الجنوبي، ومن ثم يصل إلى العارض. أصرَّ استشاريو الحرب في الرحلة على اتخاذ الطريق الثاني، ولم نكن آسفين على هذا الخيار، ذلك لأن الطريق الأكثر طولاً هذه تعدنا بالكثير من المناظر التي من الصعب أن تسنح لنا الفرصة ثانية بزيارتها.

«وكان كلُّ واحدٍ منا أنا وبركات قد امتطى جملاً جميلاً بسنام واحد من إصطبل أبي عيسى. كان النائب[2] على جمل رمادي جميل عليه شداد أنيق ذو لون أحمر داكن وذهبي.

---

(1) ترد التسمية لدى پالغريف: زُلفى Zulfah لكن الشائع في تسميتها ما أثبتناه.

(2) كتب محرّر كتاب تايلور: النائب: هو موظف فارسي مُرسَل من الحجّاج العجم ليقدّم إلى فيصل «حاكم نجد» تصريح الاقتطاع الذي يُلزمون بتقديمه عند الوصول إلى بُريدة. كما أنه كان أيضا تحت تصرف أبي عيسى. ورفقته كان فيها إلى حد ما فائدة لپالغريف، حيث أن مهمته كان لها سبب آخر لإخفائه أو على الأقل تخفيف ظهوره فيما بعد عند وصوله إلى الرّياض.

«كان المكّيان قد تقاسما فيما بينهما دابّة سوداء ذات ظهر طويل، أما الباقون فقد ركبوا على جمالٍ عادية أو جمال بسنام واحد، وذلك لأن الطريق أمامنا كانت غير مناسبة بأي شكل من الأشكال للخيول في هذا الوقت من العام.

«كانت طريقنا تمتدّ في القصيم والتي هي عبارة عن هضبة، حيث عبرناها حتى غروب الشمس. كان المنظر غايةً في الجمال، إذ أنه كان ذا مدىً بعيد ومتغايراً بالارتفاعات بين عالٍ ومنخفض وعرض واسع وهضاب معشوشبة، مع بعض المجموعات من الأشجار التي انتصبت متناثرة هنا وهناك، كما يوجد ضمن المنظر نهر وهو ما يُعدّ أمنية غالية في الصحراء العربية. من الممكن للشخص أن يتخيل نفسه في الريف بجانب جزء من أحد مجاري نهر الرّاين المنخفضة، إذ أنه من المحتمل للقراء أن يفترضوا بأنه لا يوجد خضرة كما التي في أوروبا، ومقارنتي هنا فقط من ناحية المنظر العام. لا يوجد أي نهر أقرب إلى القصيم سوى الشط (الفُرات) والذي يبعد بضع مئات من الفراسخ، وكانت عيوننا قد تعوّدت رؤية البرك الخادعة من السّراب والتي تجلب فكرة عابرة باحتمال وجود شيء لعله يرد عنا الحرّ والجفاف.

«استمرّينا بالسفر حتى الليل، وبعدها وصلنا إلى هضبة طبيعة أرضها مختلفة عن تلك الأرض الجافة التي كانت تحت أقدامنا سابقاً. وهنا بدأت النّفود، حيث تتجه من الجنوب الغربي حتى الشمال الشرقي وبعدها إلى الشمال، وهي عدّة أجزاء مابين القصيم والوشم وسُدير. كنت قد ذكرت شيئاً عن هذه الأجزاء الرّملية سابقاً عندما وصفت مرورنا منذ ثلاثة أشهر بين الجوف وشمَّر.

«وقفنا على طرف شريط الصحراء هذا بعض الوقت لنأكل وجبة عشاء سريعة، ولنشرب بعض القهوة العربية والشاي العجمي. ولكن السفر في هذه الرّمال تحت لهيب حرارة الشمس قادر على إهلاك الإنسان والحيوان، ولذلك كان قرار أبي عيسى بأن نقطع الجزء الأكبر في برودة ساعات الليل اللطيفة.

«كانت الليلة عبارة عن ليلة متعبة، فقد صعدنا وهبطنا أمواجاً من الرّمال التي غالباً ما كانت تغوص الجمال فيها حتى ركبها، وهناك كان من الواجب على الراكبين أن

يترجّلوا ليساعدوا هذه الجمال.

«وبحلول النهار ظهرت للتوّ جليّاً معالم المنطقة التي كنا مسافرين فيها، فهي تشبه إلى حدٍ بعيد النّفود شمال جبل شمَّر، ولكن التموّج هنا كان أكثر علواً وأكثر انخفاضاً، والرّمال كانت أخف وأقل ثباتاً. وفي أغلب المناطق لم تكن جذور الشجيرات ولا الحشائش قادرة على الثبات، أما القلة الأخرى من النباتات فكانت تصارع للبقاء، ولم يكن يوجد أثر لأيّ إنسان في أي مكان. كانت الجمال تسير ببطئ، والعجم لم يكونوا متعودين على هذه المشاهد حيث كانوا مكتبئين وصامتين ومتعبين، وهذا ليس بالشيء الغريب. وأخيراً وقبل الظهيرة بوقت قصير حيث بدأت حرارة الشمس تصبح غير قابلة للاحتمال، وصلنا إلى حافة حفرة ضخمة، التي من المؤكد أن محيطها يبلغ ثلاثة أو أربعة أميال، حيث كانت أمواج الرّمال تسقط فيها من جميع الجوانب، تاركة في الوسط حفرة أصغر يبلغ عمقها حوالي سبعمئة إلى ثمانمئة قدم، إذ أنه كان بإمكاننا رؤية وميض أبيض لحجر كلسي في قاعها، ومجموعة صغيرة من البيوت والأشجار والحدائق التي كانت منعزلة بشكل غير متوقع في قلب الصحراء.

«هذه كانت القرية الصغيرة والواحة التي تدعى الوُسَيط، وقد سميّت كذلك؛ لأنها تشكل نقطة مركزية بين الأقاليم الثلاثة «القصيم، سُدير، الوشم» إلا أنها لا تنتمي إلى أيّ منها، ولا يزورها عادة عابرو السبيل، ذلك ما أخبرنا به القاطنون هناك، وهم أناس بسيطون يعيشون في مجتمع شبه بدائي؛ وذلك لأنهم لا يتصلون إلا نادراً بالعالم الخارجي، حتى إنهم غير مطلعين على الطريقة الشائعة للصلاة الإسلامية، على الرغم من أنهم يسكنون وسط المنطقة الوهابية.

«وصلنا إلى قاع الوادي عبر طريق طويل ملتف متجه نحو الأسفل، وعند وصولنا خرج الرجال والأولاد ليحملقوا بالعجم، وببيعهم الفواكه وحليب النّوق تماماً بضعفي أسعارها، فأثبتوا لنا عدم سذاجتهم التامّة الظاهرة على شكلهم.

«بالنسبة لنا فقد عدّونا مثل العرب، وقد استمتعنا بالضيافة المجانية – على الرّغم من أنهم كانوا ملزمين بأن يجعلوها محدودة – ومن ثم ظهر على النائب بعض الغيرة،

وعبَّـر عن امتعاضـه بوصف العرب بالجاحدين؛ لأنهم لا يحسـنون اسـتقبال ومعاملة الحجّاج العائدين من بيت الله أمثالهم بالشكل اللائق والكريم.

«لم يكن بالأمر السهل الخروج من هذه الحفرة، وخطر ببالي العبارة اللاتينية «النزول سهل... إلخ»، لم يكن هناك أيّ طريق واضحة للصعود إلى أعلى بالاتجاه المطلوب، و، كان كلُ واحـدٍ يحـاول أن يدفع دابته المتخبطة عند الوصـول إلى أماكن تكون فيها المنحدرات الرّملية ثابتة ومن الممكن المشي فيها. جمال وأناس كانو يسقطون أرضاً ويتدحرجون إلى أسـفل المنحدر، حتى أن البعض كانوا يبكون من الاسـتياء وآخرون كانـوا أكثر نجاحـاً فكانوا يضحكون من انزعاج أصحابهم. كان أبو عيسـى يركض من جماعة إلى أخرى محاولاً توجيههم وإبقاءهم متجمعين، حتى وصلنا أخيراً وبمشـيئة السماء إلى الحافة العليا من جهة الشمال.

«كان أمامنـا شـيء يبـدو كأنـه عاصفـة من اللهيب تحت أشـعة شـمس بعـد الظهر الحمـراء، وخلالهـا تابعنـا طريقنا إلى ما قبل حوالي سـاعة من غروب الشـمس حيث هبطنـا في طريـق كالأخدود. انفتح بعدهـا على طريق هابط طويل، اسـتطعنا من آخره أن نرى الجزء التجاري والمهم من مدينة زلفي. انتصب خلفها شيء كالجدار الشاهق العلـو وكان جبـل طويق، الـذي كنا قد سـمعنا عنه مـراراً، والآن نراه أمـام أعيننا. ولا حاجـة لأذكـر مقدار الفرحة والسـرور التي اسـتقبلنا بها رؤية هذا الجبـال، والذي هو قلب وعقدة الوصل في أرض جزيرة العرب، وأي شيء آخر سنراه فيما بعد يمكن على الأغلب عده من رحلة العودة.

«إننا نعدّ الآن أننا قد قطعنا النفود، ووطئت أقدامنا الوادي العظيم الذي يشكل خط الوصل الرئيسي بين نَجد والشمال، حتى إنه يصل إلى دجلة وبغداد.

«قطعنـا طول مدينة زلفي بالكامل عبر عدة شـوارع، والتي كانـت قد اختفت نتيجة السيول الشتوية التي أحياناً كثيرة تصب غضبها العارم والسريع في هذا الوادي.

«امتدّ أمامنا باتجاه الجنوب الشرقي تجويف طويل، كانت النّفود على يميننا وعلى

يسارنا جبل طويق وإقليم سُدير. كان هواء الجبل لطيفاً، وكانت رحلة هذا اليوم ممتعة للغاية مقارنة مع سابقتها. تابعنا مسيرنا إلى أسفل الوادي حتى ما بعد الظهر، وعندها تحوّلنا جانباً داخل ممر ضيق يتجه إلى أعلى بزاوية حادّة باتجاه الشمال الشرقي، وهكذا دخلنا بين مرتفعات جبل طويق.

«تتكوّن نَجد بشكل أساسي من هذا الجبل. إنها سلسلة جبال عريضة ومسطحة، أو بالأحرى هضبة واسعة تتخذ شكلاً كهلال ضخم. وإذا سُمح لي بإعطاء تقدير تقريبي لارتفاع الجزء الأساسي من هذه الهضبة، فسيكون تقديري مبنياً من جهة على الاخضرار، والمناخ وبعض الظروف المحليّة الأخرى، ومن جهة أخرى على التقدير التقريبي للارتفاع بحد ذاته، وعلى الانحدار اللاحق والموجود في الطرف الآخر أو طرف البحر، يمكنني القول بأن الارتفاع يتراوح بين ألف إلى ألفي قدم فوق مستوى سطح شبه الجزيرة المحيطة، وبذلك يكون على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم على أكثر تقدير عن سطح البحر. توجد أعلى مرتفعات هذه السلسلة في منطقة سُدير، والتي ينبغي لنا المرور بها قريباً، المركز والامتداد الجنوب غربي بالتأكيد هو أخفض. وجبل طويق هو العقدة المتوسطة في جزيرة العرب، يمكننا القول مثله كمثل جبل القفقاس، وما يزال كما كان في معظم الأوقات الماضية نقطة التحول لغالبيّة أو تقريباً لكل شبه جزيرة العرب في العلاقات السياسية والوطنية.

«المناخ في الجزء الشمالي من جبل طويق، سواءٌ كان مرتفعاً أو وادياً فإنه متوافق مع مناخ إقليم سُدير، إذ أنه على الأرجح واحد من أكثر الأماكن الصحّية في العالم، ومن الممكن أن نستثني من ذلك جبل شمَّر وحده. أما المناطق المذكورة سابقاً فقد تشابهت كثيراً بجفاف الجو، والقاطنون في سُدير ومثلهم القاطنون في شمَّر يتميّزون بلون بشرتهم المائلة للحمرة، والقوام المتين. ولكن عندما نقترب من مركز هلال الجبل، حيث تكون كل مستوياته منخفضة، نجد أن التأثير القوي القادم من المدى الجنوبي يجعل طقسه أقرب للمنطقة الاستوائية، فالهواء يصبح أهدأ ومريحاً للأعصاب، وينعكس المناخ غير الصحّي بصورة واضحة على الوجوه الشاحبة والهزيلة للسكان.

«استطعنا بعد يومين الوصول إلى الهضبة الكبيرة، والتي كان لي وصف مسبق لها قبل عدة صفحات.

«وفي حوالي وقت الظهيرة توقفنا في سهل مغطى ببقايا الأشجار لنشعل ناراً ونحضِّر القهوة. وبعدها تابعنا طريقنا نحو الشرق، وقليلاً نحو الشمال، وكنا نتقابل مع فلاحين أو مسافرين من حين لآخر، ولكن قد يجد الأوروبيون هذه الطرق موحشة جداً مقارنة مع تلك الموجودة في بلادنا. من أكثر الأشياء التي أعجبتني الطاعة الكلية والنظام الأمني الصّارم المطبّق من الحكومة المركزية، وهكذا فمن النادر وجود عملية سرقة حتى ولو صغيرة في هذه الأقاليم، وحتى قطّاع الطرق كانوا شيئاً غير وارد مطلقاً. وأخيراً، وبالوقت نفسه من بعد الظهر الذي وصلنا به إلى الغاط في اليوم السابق، وصلنا إلى المَجْمَعة والتي كانت سابقاً عاصمة الإقليم، وما تزال تُعدّ المكان المهم بالنسبة لتعداد السكان وذلك حسب ماسمعنا ورأينا حيث يوجد فيها مابين عشرة آلاف إلى أحد عشر ألف ساكن.

«كنا قد استقيظنا باكراً في اليوم التالي، وذلك لأن هواء الليل كان نشطاً وبضع ساعات من النوم كانت قد كفتنا.

«بعد شروق الشمس أعتقد بأننا أتينا على ظاهرة طبيعية ليس لها مثيل في وسط جزيرة العرب، حيث كان يوجد نبع ماء كبير تجري منه الماء مشكّلة جدولاً عميقاً مع ضفاف مخضوضرة وضفادع تصدر نقيقاً من بين الأعشاب التي حوله. فتحنا أعيننا بدهشة حيث كانت أول مرة نرى شيئاً كهذا منذ مغادرتنا لوادي الجوف. على الرغم من أن المسافة التي كان فيها حياة في هذا الجدول كانت قصيرة والتي كانت بمقدار مسيرة أربع أو خمس ساعات إلى جلاجل، حيث انحسرت الخضرة في منتصف هذه الضاحية.

«لم نتجاوز بعيداً عن مضارب مطير عندما أطلت علينا جدران التّويم، وهي بلدة كبيرة تحوي بين اثني عشر ألفاً إلى خمسة عشر ألف ساكن، وفقاً للإحصائيات المستخدمة هنا، والتي أتّبعها للحصول على المعلومات الأكثر دقة. البيوت هنا مبنية

بشـكل متـراصّ، تكون عادة مؤلفة مـن طابقين وبعض الأحيان من ثلاثـة، يبلغ ارتفاع الغرف غالباً في الطابق السـفلي خمسـة عشـر أو ستة عشـر قدماً، والطابق العلوي من عشرة إلى عشرين قدماً، بينما يكون السطح محاطاً بجدران صمّاء بارتفاع ستة أقدام أو أكثر، حتى يصبح ارتفاع المبنى جيداً، ويعطي مظهراً لا بأس به.

«فـي صباح اليوم التالي، وعلى بعد مسـافة قصيرة من التّويـم، مررنا عبر قرية كبيرة أخرى لها جدران كالأسـوار التي تكون فوق القلاع، وعلى الجانب الآخر من الطريق يوجـد قلعـة مربعة الشـكل، تبدو وكأنها من القرون الوسـطى، هذه القرية كان اسـمها حفـر. وبعدهـا بحوالـي سـاعتين وصلنا إلـى تمير، وهي بلـدة صغيرة منعزلـة، تحفل بالجـدران المحطمـة أكثر من البيوت، وبالقرب منهـا كان يوجد صخرة بيضاء طويلة، متوَّجـة ببقايـا بديعة من حصـن قديم كان لمراقبة المـكان. وهنا أقمنـا احتفال الفطور تحت ظلال هذه الآثار. قرّرت أنا وبركات أن نجرّب حظنا في القرية نفسها، فلم يظهر لنا أي حارس عند بوابتها، فدخلنا دون أي ممانعة، وتجوّلنا فيما بين الممرّات الصامتة وأكوام القمامة، وقمنا بمحاولات فاشـلة لنجد ما يقودنا إلى بعض الحليب والتمر في هـذه المدينة الميتة. وأخيراً رأينا قروياً هزيلاً يبـدو ويلبس كالصيدلي في قصة روميو، وبريبة منه سـألناه عن وجود أي شـيء صالح للأكل مقابل مال أو خدمة، وعلى الرغم مـن ذلك اعتـذر لندرة وجود ما نسـأل عنه لعدم وجود أي شـيء كهـذا تحت تصرفه. وأضاف في البيت الفلاني لا بدّ أن يكون موجوداً شـيء جيد، وبعدها سـبقنا في عملية البحث. وفعلاً إنه لبيتٌ كبير ولكن الأبواب كانت مغلقة، فطرقنا الباب إنما دون فائدة فلم يكن يوجد في البيت أحدٌ.

«كان لنـا هـذا الرجل قـدوة في الشـجاعة، زحفنا معـاً من خلال فجوة فـي الجدار الطيني، ووجدنا أنفسنا في وسط غرف فارغة وحديقة خلفية مهجورة. قال لنا مرشدنا هذا بأن الجميع قد خرجوا للحقول وكان من المتوقع فقط وجود بعض النسوة، وبعدها انفصلنـا عنه بحال ليسـت أفضل من التي كنا عليها قبـل لقائه. رأينا بعدها من على بُعد بستان نخيل، ولم نكن نتوقع أن يكون ممكناً بقاء أي شيء من التمر فيه، وبدأنا رحلتنا

إليه من خلال حقول القش. ولكن عند وصولنا وجدنا جنتنا هذه محاطة بأسوار عاليه، ولا توجد أيّة بوابة ظاهرة. وبينما كنا واقفين على هذه الحال خارجها مثل شيطان Milton واقفاً على باب الجنة، ولكننا لم نكن قادرين على أن نفعل مثله ونتخطى جميع العقبات بقفزة واحدة، ظهر لنا فجأة صبي صلُبي Solibah جميل الهيئة، يلبس ملابس رثّة، مشيته تتراوح بين المشي والرقص العبثي البعيد عن قبيلته. كان سؤالنا الأول له: «هل تستطيع أن تخبرنا بالطريق الذي يوصلنا إلى الداخل؟» مشيرين إلى الحديقة التي أمامنا، فكان جوابه الأول: «هل أغني لكم أغنية؟» أجبناه: «لا نريد أن نسمع أغنياتك ولكن نريد تمراً، كيف نستطيع أن نصل إليه؟» فأجاب هذا الوغد الصغير بإبتسامة عريضة: «أو هل تريدون أن أريكم رقصة» وفي الحال بدأ بالرقص على الطريقة العربية مستهزئاً بنفاد صبرنا الواضح علينا. وأخيراً تعطّف علينا وأرانا الطريق، التي لم تكن تناسب إلا ولداً مختصاً بسرقة بساتين الفاكهة، مثله تماماً، حيث كانت الطريق إلى الداخل موجودة أبعد قليلاً من حيث كنا، فتسلّق الحائط ببراعة وخبرة وساعدنا بأن نلحق به، وكذلك فعلنا ولكن بنيّة أصفى منه، وعندما أصبحنا في الداخل وجدنا أنفسنا وسط أشجار وظلال ومياه. وإثر ذلك أطلق الصبي الهزيل الذي معنا صرخةً ظهر بعدها مباشرة رجلٌ شكله يشبه أبانا آدم كان قد وُضع في هذه الحديقة ليزينها، غير أنه لم يكن عجوزاً وإنما شاباً، كما كان آدم على الأرجح عندما كان في الجنة. كنا خائفين بعض الشيء من الاستقبال الفظّ والذي كنا فعلاً نستحقه لوجودنا المشبوه به، ولكن المزارع كان سلوكه أفضل من غيره من أبناء عشيرته، فبعد أن رحَّب بنا بطريقة جدّ محترمة، عرض خدماته تحت تصرفنا. حينها عرضنا بأن نشتري كمية من التمر لنحملها معنا في طريقنا القادم، حينها قادنا المزارع إلى بناء صغير حيث تتكدس ثلاثة أو أربعة أنواع من هذه الثمار، أحمر وأصفر، مدوَّر أو متطاول، موضوعة بعضها فوق بعض وطلب إلينا أن نختار. وعند هذه التوصية ملأنا كيساً كبيراً كنا قد أحضرناه معنا لهذا الغرض، ملأناه بالتمر الممتاز المتورّد اللون، وأعطيناه مقابله شيئاً من المال ورَحَّب بنا تماماً كأي مكان آخر. وبعد ذلك استأذنّاه وعدنا أدراجنا، ولكن هذه المرة عبر باب الحديقة الرئيس وعبرنا بعدها حقول القش، ومررنا من تحت جدران القرية

المتكسّرة حتى وصلنا إلى أصحابنا الذين وجدناهم قلقين لطول غيابنا.

استغرقت رحلة المسافرين نحو الجنوب ثلاثة أيام زيادة، مرّوا فيها من خلال الوديان التي تتفرّع من جبل طويق، وخيّموا بالقرب من بعض المدن الصغيرة أثناء الليل. قال پالغريف: «وفي الصباح الباكر من اليوم الرابع، مررنا من تحت مزارع الرّوضة في أسفل الوادي، والتي هي الآن جافة وخالية - ولكن في الماضي كانت تفيض بخير أنساب جزيرة العرب - كما مررنا من خلال ممر ضيق ومحاط بجدران عالية يفضي إلى قلعة الأرض الكبيرة.

«أشرقت الشمس ونوَّرت المنظر المطل على المنحدرين الأجردين من الطرفين كليهما، مع كتل ضخمة من الصخور المحطمة والأخشاب المتكسرة تحتها، في الوقت الذي كانت أسرابٌ من طيور الحجل تنطلق من موطئ أقدامنا، وغزالٌ يعدو هارباً عبر ممرات ضيقة تتجه يمنة ويسرة، أو عجاجٌ من الغبار الذي يعلن عن اقتراب جماعات من الفلاحين أو الفرسان الخيّالة الذين يمرّون ذهاباً وإياباً، والحدائق والقرى الصغيرة التي تبدو من خلال الشقوق الجانبية أو الفتحات الموجودة في تعرّجات ممرات الوادي نفسه. وقبل حلول الظهيرة كنا قد وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى الملقى والذي يعني «نقطة الالتقاء» فاسمها مستمد من موقعها. هنا ينقسم الوادي على شكل Y فاصلاً بين فرعين: الأول يتجه جنوباً إلى الدِّرعيّة، والآخر يتجه جنوب شرق عبر مركز الإقليم، ويتصل مع العاصمة الرّياض.

«كانت تأملات أبي عيسى العميقة تخبرنا بأننا سنصل إلى الرّياض في المساء القريب ولكن كان قد بقي ثمانية فراسخ تفصل الملقى عن العاصمة، وعندما انتهى النائب من عملياته التجميلية، لم تُبقِ لنا الظلال المتجهة شرقاً أيّ أمل بالوصول إلى الرّياض قبل حلول الليل. على كل حال كنا قد باشرنا مسيرتنا واتخذنا فرع الوادي الذي يقود إلى الدِّرعيّة، ولكن قبل الوصول إليها خرجنا ثانية من الوادي، واتبعنا طريقاً أقصر عبر الهضاب التي كانت على جهة اليسار. كان طريقنا يتقاطع مع صف من الأبراج، التي كانت قد بنيت بأمر من إبراهيم پاشا لتكون مركزاً للحرس لحماية هذا

الموقع المهم. وعلى صفها انتصبت الجدران الوحيدة ذات الأحجار الكبيرة والمربعة الشكل، الأبراج التي نسميها أحياناً مارتيللو Martello القصيرة والكبيرة والمدورة الشكل.

«امتدت أشعة شمس المغيب فوق السّهل، ووصلنا إلى بقايا الدِّرعية، التي تملأ عرض أسفل الوادي. وجدران القصر مصنوعة من الآجرّ غير المشوي مثلها مثل الباقي، انتصبت قريبةً من أسفل الحافة اليسرى أو الشمالية، لكن القصر غير مسقوف وغير مسكون، وبالقرب وعلى المدى الواسع نحو الأسفل يوجد جزء يظهر فيه المكان الذي كان فيه مسجد ضخم، وبجانبه محل السوق، الذي هو برج فوق قمّة معزولة وأعتقد أنه كان مكان السكن لآل سعود، عندما كانوا مجرد رؤساء عشيرة فقط، وذلك قبل أن يمتدّ نفوذهم وينتقلوا إلى قصورهم الملكية الضخمة. وما زالت جدران الحماية الخارجية تقريباً لم تصب بأي خراب على طول مداها، مع أبراج الهجوم والحصون المتوهجة بالضياء الغربي، وفي أماكن أخرى كانت المدفعية المصرية، أو تعاقب السنين قد سوَّتها مع الأرض، إن الكثير من بيوت المدينة ماتزال قائمة داخلها، ولكنها غير مسكونة، وكانت خطوط الشوارع من البوابة إلى البوابة متميزةً وكأنها على أرض ملساء.

«ومن القياس الضخم لبوابة المدينة (الذي يبلغ طوله ميلاً ونصف، وليس بأقل من ذلك عرضاً) ومن البيوت المتراصّة جنباً إلى جنب، أستطيع أن أقدر إمكانية احتوائها على أكثر من أربعين ألف ساكن. إن الحدائق تمتد خارجاً، وما تزال تتموج بالحياة في مكان كفَّ الإنسان عن العيش فيه، بجمالها الكامل والخلاب، مشكّلة نطاقاً أخضر غامقاً فيما حول الآثار الرمادية. وبالرّغم من أن النجديين ليس لديهم النية في أن تبنى وتسكن من جديد، ودُمّرت بشكل كامل، ونقلوا جميع المراكز الحكومية مع التجمع السكاني الكبير إلى الرّياض، فهم لا يعتقدون أنه من الضروري التخلي عن الزروع الغنية والحقول المرويّة بشكل جيد وهي التابعة للعاصمة القديمة، وهكذا فإننا نجد مجموعة صغيرة من المزارعين يسكنون في أكواخ وقرى مبعثرة بالقرب من الجدران

لحماية الموجود من الدِّرعيّة المنكوبة.

«وبينما كنا ننظر بتمعّن من فوق هذا العلوّ المطلّ إلى المنظر الذي أمامنا المليء بالذكريات، غابت الشمس، وبدأ الظلام بالانتشار. وبشكل طبعي اقترحنا استراحة قصيرة، ولكن أبا عيسى لم يُصغ إلينا، وأصرّ على أن الحديقة العائدة لعبد الرّحمن الذي ذكر سابقاً كالحفيد الوهابي الأول، كانت على بُعد قليل أمامنا، ومن الأفضل أن نهيّئ أنفسنا لاستراحة الليل بدلاً من الاستراحة فيما بين الآثار.

«في الحقيقة، تتحمّل الرحلة من الدِّرعيّة إلى المكان المقصود ثلاث ساعات من السفر السريع، ولكن دليلنا كان لا يرغب في أن ندخل الدِّرعيّة برفقة العجم والسّوريين والشيعة والمسيحيين، وكان قد اعترف لي بذلك فيما بعد. وذلك إما بسبب إحدى التأثيرات المحلية العجيبة التي بقيت على الرغم من التغيير العرقي، وإعطاء لون واحد مستمر للساكنين المتتابعين للمنطقة نفسها، أو قد تكون بسبب مشاهدتهم المستمرة لمجدهم المتراجع وانتصار أعدائهم، حيث تُعدّ الكمية القليلة من الناس الساكنين في الدِّرعية هذه من أشرس وأكثر الناس تشدّداً، وليس هناك أحد يضاهيهم في ذلك ولا العارض نفسها. وبناءً عليه تابعنا مسيرنا باتجاه المرتفعات، وفي آخر الليل نزلنا في وطاءة صغيرة، حيث كانت هناك حديقة كبيرة، وفيها يوجد بيت عبد الرّحمن الريفي.

«لم نحاول أن ندخل البيت، ففي ساعة مثل هذه لم يكن يوجد أيّ أحد متحمّس لاستقبالنا. ولكن كان يوجد بالقرب منطقة مسقوفة في الحديقة تكفي للمسافرين الذين كانوا متعبين جداً وبحاجة ماسّة للنوم، وكان هذا المكان لقية على الرغم من الكلاب وبنات آوى، الموجودة في كل مكان وبأعداد كثيرة في نَجد.

«كان يبعد هذا المكان الذي نحن فيه عن العاصمة مسافة أربعة أميال. انقسم فريقنا في صباح اليوم التالي، فالنائب ومعاونوه بقوا في الخلف، بينما تقدّمت أنا وبركات وأبو عيسى عليهم إلى المدينة، حيث كان على مرشدنا أن يُخطر القصر باقتراب قدوم صاحب المقام العجمي، وذلك لأن الاحتفاء بقدومه لعله سيبدأ من منتصف الطريق.

«بناءً على طلبنا بقي أيضاً المكّيان في الخلف، إذ لم نكن نرغب بأن تشكل رفقتهما لنا أي تأثير مُبهم على ظهورنا الأول.

«واصلنا مسيرتنا باتجاه الشمال فيما يقارب الساعة، خلال أراض قاحلة ومتموّجة، ولم نكن قادرين على رؤية ما وراء هذه الأراضي الريفية لأيّة مسافة. وأخيراً استطعنا الوصول إلى ارتفاع عال، وباجتيازه استطعنا فجأة رؤية منظر كامل للرياض، وهي المقصد الرئيسي من رحلتنا الطويلة، عاصمة نجد ونصف الأراضي العربية، ومركز جميع المراكز.

«امتدّ أمامنا وادٍ جاف مفتوح، وفي مقدّمة المنظر مباشرة وتحت المنحدر المفروش بالحصى الذي نقف على قمته، كانت توجد العاصمة، وهي كبيرة ومربعة الشكل، متوّجة ببروج عالية وأسوار قوية للحماية، والكثير من الأسطح والشرفات، حيث كان يعلوها بتوهّج قبة القلعة الفيصيلة الضخمة وغير العادية، وبالقرب منها يرتفع القصر النادر والأقل توهجاً منها، الذي بناه وسكنه ابنه الأكبر (عبد الله). كما يوجد أيضاً مبانٍ صخمة أخرى ذات مظهر متميّز تطل هنا وهناك من خلال متاهة الأسطح الرمادية، ولكن لم نكن قد عرفنا بعد أي شيء عن ساكنيها أو محتوياتها.

«إنها محاطة بسهل فيما حولها على مساحة ثلاثة أميال من كل الجوانب، ولكن على الأخصّ في الجانب الغربي والجنوبي يتموَّج بحرٌ واسع من أشجار النخيل فوق الحقول الخضراء والحدائق الغنّاء، فيما كان صوت نواعير المياه يُسمع كغناء ودندنة حتى إننا كنا قادرين على سماعه من المكان الذي كنا واقفين فيه، على بعد ربع ميل أو أكثر من أقرب أسوار المدينة إلينا.

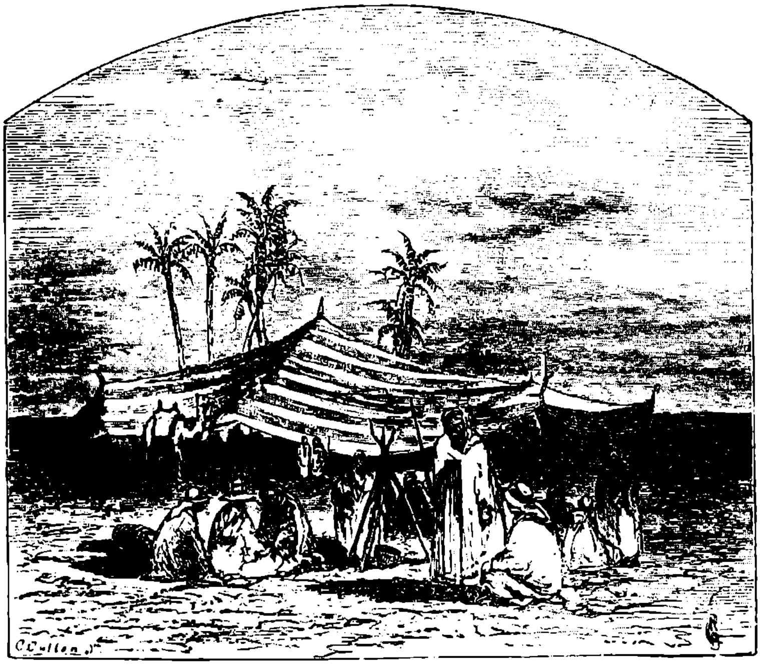
«على الجانب الآخر باتجاه الجنوب، كان الوادي ينتهي إلى سهول واسعة وأكثر خصوبة من أرض اليمامة التي اكتظت بكثافة بالبساتين والقرى، والتي من بينها توجد مدينة منفوحة الكبيرة، وهي أصغر بقليل من مدينة الرّياض بحد ذاتها، لكنها متميّزة بوضوح. وتبدو بعد ذلك في المدى الهضاب الزرقاء، التي هي سلسلة هضاب اليمامة المدبّبة، والتي شهدت منذ ما يقارب الثلاثمئة عام امتشاق - عمرو بن كلثوم الشمَّري -

السيوف في صفوف المعركة، وخلفهم كانت صحراء مترامية الأطراف من المستحيل قياس مساحتها لكبرها، وتسمى صحراء الجنوب أو الدهناء.

«يضيق هذا الوادي من جهة الغرب كلما اتجهنا الى الأمام ويلتفّ باتجاه الدّرعية، بينما توجد باتجاه الجنوب الغربي تلال الأفلاج المنخضة والتي هي الحدّ الفاصل بينه وبين وادي الدّواسر. وعلى البعد باتجاه الشرق يوجد خط أزرق طويل يحدّد القمم الأخيرة من جبل طويق، والتي تمنع رؤية أرض الحَسَا (الأحساء) المنخفضة وشواطئ الخليج العربي.

«في جميع البلدان التي كنت قد زرتها وهي كثيرة، قلّما كنت أرى بقاعاً طبيعية تعادل هذه من حيث الجمال والعراقة والغنى الذي يبهج العين ويسرّ الخاطر على حدّ سواء. وإذا كان أحد القراء قد مرَّ بمحاذاة دمشق من جانب جبال لبنان وألقى نظرةً على الغوطة من المرتفعات التي فوق المزّة، يمكن له أن يأخذ فكرة تقريبية عن منظر وادي الرّياض من الناحية الشمالية. لعل هذه تكون فقط أعرض وأكثر تنوعاً، وقد يكون المنظر العام أكثر اتساعاً والجبال أكثر وضوحاً، غير أن المزيج بين الجفاف الاستوائي والاخضرار الغني، الناجمين عن الكثافة السكانية العالية والدروب الصحراوية، فوحدها جزيرة العرب هي القادرة على تقديمها، مقارنة مع ما يبدو مألوفاً في سوريا ورتيباً في إيطاليا».

* * *



AN ARAB ENCAMPMENT.

صورة 13: بعض مضارب العرب

الفصل الرابع عشر

رحلات بالغريف - مغامرات في الرّياض

«أوقفنا جمالنا أنا وبركات بضع دقائق على المرتفع لندرس ولنستمتع بهذا المشهد الفخم، ولننسى القلق الذي لازمنا بسبب اقترابنا من عرين الأسد. إن أبا عيسى وعلى الرغم من أنه على اطلاع مسبق على المنظر، قد أراد أن يستريح معنا ليشير ويسمّي المعالم الأساسية للمنظر، وأن يرينا الطريق التي تقود إلى بيته في الحَسَا (الأحساء). بعدها نزلنا المنحدر واخترقنا أسوار أولى المزارع التي تحيط بالمدينة.

«وأخيراً وصلنا إلى ساحة على شكل مربع كبير مفتوح، جانبها الأيمن الشمالي مؤلف من دكاكين ومخازن، بينما كان جانبها الأيسر مقراً ضخماً للملكية النّجدية، ومقابلنا باتجاه الغرب هناك ممرّ طويل مغطى، حُمِل عالياً على أعمدة هزيلة، يقطع عرض الساحة ويصل من القصر إلى المسجد الكبير، وهكذا يرتبط مباشرة بداخل القلعة ويهيّئ لفيصل المسنّ ممراً شخصياً وغير ظاهر للعيان فيستطيع أن يتنقل متى شاء من مكان سكنه إلى مكان العمل الرسمي أثناء صلوات الجمعة، دون أن يعرّض نفسه أثناء طريقة إلى فضول العامة، أو إمكانية خطر الغدر والخيانة. وذلك بسبب ما حصل لأبيه وأخي جدِّه، اللذين سبقاه في هذا المنصب على العرش، وكل واحد منهما طُعن بخنجر بيد قاتل مأجور أثناء قيامه بالعبادات في أماكن عامة، مما جعل فيصلاً يأخذ حذره دائماً من هذه الناحية وليس في وقت الصلاة فحسب.

«وراء صف الأعمدة هذه يوجد دكاكين ومخازن أخرى تشكل نهاية المربع، أو

بالأحرى متوازي الأضلاع، إذ أن طوله يبلغ تقريباً مئتي خطوة، وعلى الأغلب يبلغ عرضه أكثر من نصف طوله. وفي منتصف المكان وتحت ظل جدران القصر البعيدة، جلست خمسون أو ستون امرأة تقريباً، كل واحده معها كمية من الخبز والتمر والحليب والخضار أو حطب الوقود وضعته أمامها للبيع.

«ولكننا لم نتوقف لنلقي نظرة ولا حتى ألقينا أي اهتمام لكل هذا، فكان كل ما يشغل بالنا ويأخذ جلّ تفكيرنا هو لقاؤنا الأول وتعريفنا بالعائلة الملكية وأصحاب المناصب الرفيعة. وهكذا مشينا جنباً إلى جنب جدار عالٍ طويل يخرج من مركز القلعة، ويشبه إلى حد بعيد الحصن أكثر من مكان للسكن، حتى وصلنا إلى بوابة ضيقة ومنخفضة، والتي هي المدخل الوحيد إلى القصر. تغوص عميقاً مابين الحصون بأبوابٍ ضخمة قابلة للطيّ مربوطة بحديد، إلا أنها كانت مفتوحةً في هذا الوقت من النهار، لتؤدّي إلى مدخل مظلم، يمكن جداً أن يبدو للناظر وكأنه دهليز سجن، كما يوجد عدد من الحراس بعضهم أبيض اللون والأخر أسود، لكنهم جميعاً يحملون سيوفاً ويوجدون بكثافة تقريباً في كل الطريق، لم تكن تبدو جذابة لمن هم في الخارج وخاصة للأجانب. كما كان يوجد مقاعد أرضية طويلة مصطفة على الجدران الجانبية، لتقدم للزائرين مكان انتظار ملائم، وهناك أخذنا قسطاً من الراحة على بعد قليل من بوابة القصر، ولكن أبا عيسى دخل مباشرة ليعلن عن قدومنا، وعن اقتراب النائب.

«أوّل من اقترب منا وحيّانا كان شخصاً طويلاً وهزيلاً شاحب الوجه، رزين ولكنه دمث الطبع إلى حدٍّ ما، ويتمتّع بملامح ماكرة. كان يلبس لباساً أنيقاً جداً، وبالطبع لم يكن في لباسه أيّ أثر لقماش الحرير المحرّم، كما كانت يبدو عليه سيماء المكانة الرّفيعة التي تظهر من خلال الدّماثة والاحترام. وهذا كان (عبد العزيز) الذي إذا أردت أن أعطيه لقباً أفضل، فيجدر بي أن أسميه وزير الخارجية، وهذه تكون الترجمة التقريبية لمنصبه الرسمي.

«جاء بوقار وبصحبته بعض المرافقين من القصر وجلس إلى جانبنا. وبدأ بعدها الاستجواب المعتاد والمتضمّن من أين ولماذا، مع ابتسامة ولطف وإظهار للترحيب

بنا. بعد سماعه أجوبتنا والتي هي طبعاً نفسها التي نعطيها في كل الأماكن الأخرى، دعانا للدخول إلى منطقة أخرى، وقدَّم لنا قهوته الملكية وضيافته، بينما كان يعدنا باتصال قريب وسريع مع الملك ذاته خلال النهار.

«وإذا كان أحد القراء قد رأى (والآخرون يتمنّون بلا شك أن يروه) قصر التويلري في باريس، فيمكن أن يعرف أن مدى قصر فيصل بأكمله يساوي ثلثي ذلك البناء والارتفاع أخفض منه بقليل، هذا إذا استثنينا السطح الهرمي المدبّب أو المطافئ المميّزة للقصر الفرنسي. ولكن من ناحية الزخرفة فالقبّة الپاريسية زخرفتها أجمل؛ وذلك لأنه يوجد شيء من المبالغة في الزخرفة المعمارية في هذا اللوفر الوهابي.

«تم بذل الكثير من التركيز والاهتمام للتقوية والحماية من الداخل ومن الخارج، وعلى الأقل فالمنظر الخارجي لهذا النيوغيت[1] Newgate يتمتع بحماية مماثلة لتلك التي يتمتع بها بشكل عام قصر فيصل.

«في هذه الأثناء كان (أبو عيسى) قد ذهب بصحبة المُرشدين المرسلين من القصر للقاء النائب وتعريفه بمكان السكن الذي جُهِز لاستقباله. كان العجمي مدهوشاً جداً لعدم وجود أحد من العائلة الملكية بين القادمين، أو أحدٍ ذي لقب رفيع أو منصب مهمّ، وزادت دهشته عندما لم يؤذن له مباشرةً بالدخول على حضرة فيصل وإنما اقتيد بصمت على انفراد إلى غرفة الضيوف المكان نفسه الذي تم استقبالنا فيه، والعشاء الذي قُدّم له لم يكن أفخم من ذاك الذي قدّم لنا ولو بقليل، وبعد أن هدأ، طُلِب إليه أن يدعو لفيصل ويعود إلى مكان إقامته بينما يقرّر الملك مواعيد اليوم ويتكرّم عليه بتحديد ساعة معينة يسمح له فيها بمقابلته.

«بعد ذلك تنازل وزير الخارجية وجاء شخصياً، وأعلمنا بابتسامة عذبة أن مكان إقامتنا المؤقتة جاهز، وأنّ أبا عيسى سوف يقودنا إلى هناك دون أي تأخير. بعدها سألنا فيما إن كان بالإمكان إخبارنا عن رغبة الملك[2] ورضاه عن إقامتنا وعملنا في المدينة.

---

(1) الكاتب هنا يشبّه البناء بسجن Newgate في لندن.

(2) يصرّ الكاتب على استخدام لقب الملك في حديثه عن فيصل بن تركي بن عبد الله آل سعود،

وذلك لأنه كان قد تم أول تعريف لنا كما ينبغي، وفق أفضل الطرق الوهابية، وبأننا قد أتينا إلى الرّياض طالبين رضا الله وبعده رضا فيصل، ولهذا طلبنا إلى الله ومن ثم إلى فيصل الإذن بأن نمارس أعمالنا الطبّية في المدينة تحت حماية الله وبجوار فيصل. وحسب نصيحة دوغبيري (Dogberry): «ينبغي ذكر الله أولاً لأن الله يحمي، ولكن الله يجب أن يذكر قبل سواه» فهنا نستطيع أن نفهم المغزى من هذه الرسالة أنه مهما كانت الرغبة أو الطلب فإن الألوهية يجب أن تكون في المقدمة. ليس هذا فحسب، بل حتى إن اسم المذكور لاحقاً من المخلوقات ينبغي ألا يرتبط بأي شكل من الأشكال مع اسم الخالق بحرف العطف «الواو»، لأن ذلك يدلّ ضمناً على المساواة بين الاثنين وهذا يُعدّ انتهاكاً للمعتقدات الدينية بالقول أو الاعتقاد.

«وهكذا فإن الفصل يجب أن يكون بـ«ثم» أو «من بعد» أو «على مسافة» عوضاً عن حرف العطف «الواو»، حيث يتعرّض من يفعل هذا إلى المساءلة القانونية وفقاً لأحكام القانون.

«قال بركات: إن الرجل الذي يزور نجداً دون أن يكون متخصصاً في أصول القواعد اللغوية يكون سيء الحظ، فعند هؤلاء المدراء قد يكلف الخطأ التلميذ رأسه.

«وبالعودة إلى موضوعنا، فإن عبد العزيز رجل سياسي محنك، فقد أجاب على استفسارنا الثاني بضبابية وعدم تأكد من الموافقة والرّعاية.

«في هذه الأثناء كان النائب وقافلته يمشون بغضب شديد باتجاه مكان إقامته، وأبو عيسى أعطى جمالنا رفسة، جعلتها تنهضون وتُساق أمامنا إلى مكان إقامتنا.

* * *

في خلال يوم أو اثنين، اكتشف المسافرون صدى وصول قافلتهم التي كانت موجودة في الفناء. كان الملك العجوز فيصل الآن في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه، وما زال يعتقد بجميع الأعراف والمعتقدات التي كانت لدى الوهابيين القدامى، ولذا

بينما كان لقبه الرّسمي الشائع: الإمام.

فالظهور المفاجئ للسّوريين، والاشتباه بأن يكون هناك مسيحيين وعجم ومكّيين في عاصمته كان له الأثر الكبير عليه. ففي الحال ترك المكان، وأعلن إقامته المؤقته في بيت خارج المدينة، وأرسل حرساً قوياً معه تمركز حول البيت، إلى حين أن يتاح وقت لموظفي المحكمة لاختبار هؤلاء الغرباء واكتشاف نواياهم الخفية وعقب ذلك إبلاغ الملك بها.

كان الجاسوس الأول أفغانياً وصارماً وذكياً، يتظاهر بالتحوّل إلى المذهب الوهابي، ولكنه لم يكتشف شيئاً وبناءً عليه قدّم تقريراً غير مرغوب فيه. أماالثاني فكان رجلاً ذا حماس وهو واحد من لجنة مؤلفة من اثنين وعشرين محققاً، اختيرت من الملك لممارسة الرّقابة المستمرة على السكان، تحت طائلة معاقبتهم عند رغبتهم بخرق أو مناهضة النظام الوهابي. وقد أعطى پالغريڤ الشرح التالي على زيارته:

«عبّود، هكذا كان اسمه، حتى إنني لم ألتق أي أحد يحمل مثل هذا الاسم في كل جزيرة العرب، ولكنه اسم شائع في سوريا ولبنان، كان له أسلوب جاسوسي مختلفاً وأكثر تأثيراً من عبد الحميد الذي كان قبله. تظاهر أنه يعرف بأننا محمّديين (مسلمين) ودخل ذات مرة في أحاديث دينية تتعلق بطبيعة الإسلام الحقيقية، صفاؤه أو مثالبه، وسأل كثيراً عن أساليب التدريس المتبعة حالياً في دمشق وعن العادات والتقاليد في دمشق والشمال، وكان جلياً بأنه يحاول الإمساك بنا من كلماتنا، لكن ولحسن الحظ فقد قابل نظيره، فلكل استشهاد كان يأتي به من القرآن كنا نرد عليه باثنين، وننفي عن أنفسنا بشكل ودّي وكخبراء كل ما قد يُنسب إلينا من الإشراك من الأمم الأخرى وأصحاب البدع، بالاستشهاد بتفسير البيضاوي Beydowee وقصص الحديث، حتى ربح زائرنا ونال ثقة بالنفس جعلته يبدأ يفرد شراعه في بحر المناقشة، وبهذه الطريقة جعل من نفسه مثقفاً مماثلاً، ومثيراً لاهتمام الرجال اللذين لا يبغون شيئاً أكثر من تعلم شيء من العقائد من أكثر الأساتذة المتحمسين لها، لا بل الحماسة بعينها.

«وسرعان ما انتهى به الأمر بفترة وجيزة، إلى أن أصبح نصف صديق، وأبدى أسفه على حالنا، مثلنا كمثل الدمشقيين الآخرين، حيث ما زالت الظلمة في الرواق

الخارجي، ولم يخف عنا أمله، بفتح نافذة في رواقنا لإنارته بشكل أفضل».

في اليوم التالي، في فترة ما قبل الظهر، وبينما كان المسافرون يسيرون حول دكاكين التسوق، قابلوا الوزير عبد العزيز، الذي كان قد رجع إلى العاصمة في صباح ذلك اليوم. وبوجه مبتسم وبمزاج طيّب أخذهم إلى الجانب، وأعلمهم بأن الملك لا يعدّ الرّياض المكان المناسب لنشاطاتهم الطبية، ومن الأفضل أن يتمّوا رحلتهم إلى الهفوف، المكان الذي يجدر بأبي عيسى أن يقودهم مباشرة إليه، وبأن الملك سوف يجهّز كلاً منهم بجمل وطقم من الملابس الجديدة وبعض المال.

ولم يكن لپالغريف إلا أن يردَّ على هذه المقترحات بأن لديه الرغبة الكبيرة بأن يستفيد من بضعة أسابيع من الممارسة الطبّية في الرّياض، لما لنجاحه فيها الأثر الكبير في سرعة انتشار سمعته في الهفوف، في حين أن مغادرته قد تحرمه من أيّة سمعة حسنة في أي مكان آخر لاحقاً، فوعد الوزير بأن يبدي مطلبه إلى فيصل، غير أنه لم يعطه الكثير من الأمل بالعودة بالجواب المرجو. جاء الأمر ثانية بالمغاردة، وعندها كمحاولة أخيرة أرسل پالغريف للوزيرين رطلاً من الخشب الفواح، الذي يُحرق في جزيرة العرب كالأقراص الفواحة، ويقدم هدايا للطبقة العليا في المجتمع.

في اليوم التالي تسلّم إذناً بأن يبقى فترة أطول في الرّياض وأن يمارس مهنته، وبناءً على ذلك اتخذ مسكناً آخر، ولم يكن قريباً من القصر وعلى بعد مسافة مقبولة من إحدى بوابات المدينة. وقبل وصف المكان أعطى التعليق التالي على القهوة العربية المشهورة: «أول شيء من الواجب أن نعرف بأن على الرغم من أن للقهوة اسماً واحداً، فهي في الواقع مختلفة الأنواع، فليس من الممكن عدّ كل أنواع حبوب القهوة مؤهلة للتصنيف العالي الذي يسري على الأنواع الأخرى. والقهوة الأفضل «وليقل الناقدون ما يشاؤون» هي القهوة اليمنية، المعروفة باسم المُخا "Mokha" وذلك نسبة إلى المكان الرئيس التي تأتي منه.

«يجدر بي الآن أن أكون آسفاً على تسبّبي في دعوى قضائية للتشهير أو لتشويه السّمعة من تجار الجملة لدينا أو تجار المفرّق، فلو كانت العبارة «ليس من» سابقة

لعبارة «مرفأ البحر الأحمر» وموجودة على الماركات غير المعدودة في واجهات دكاكين لندن، لأمكن أن يكون لهم مصداقية استيراد أكبر مما يصرّحون به حالياً.

«إن كمية صغيرة جداً جداً من قهوة المُخا أو حبوب اليمن، صغيرة لدرجة أنها لا تستحق الذكر تجد طريقها باتجاه غرب القسطنطينية. فجزيرة العرب وسوريا ومصر تستهلك كامل ثلثي الإنتاج، والباقي تقريباً مخصص للاستهلاك في تركية وأرمينيا وليس هناك أحد من هؤلاء يؤخر استلام حصته من القهوة الأفضل والأنقى. وقبل أن تصل إلى ميناء الإسكندرية أو حيفا أو بيروت.. إلخ، لتصديرها إلى أماكن أبعد فإن المُخا تعبأ في أكياس كبيرة، وفي أثناء طريقها تُنقى أول مرة وتُنقى مرة ثانية حبّة حبّة، وكل مايمكن أن يحصلوا عليه من البذور القاسية والمدورة ونصف الشفافة والخضراء المائلة للبني هي التي تستحق فعلاً التحميص والطحن، فهي تنقّى بأصابع خبيرة، والكمية القليلة الباقية من الحبوب المسطحة والداكنة والمائلة للبياض هي وحدها تقريباً التي تذهب إلى السفينة للشحن.

«وعملية الانتقاء هذه هي عملية مستمرة وثابتة، حتى إن التدرّج النظامي لنوعية قهوة المُخا يمكن أن يُلاحَظ بحسب الدرجات على الخريطة، فإن قهوة اليمن هذه حتى داخل جزيرة العرب نفسها مقسّمة إلى حصص كلما اقتربنا أو ابعتدنا عن وادي نجد وجوار مكّة حيث يبدأ من هناك التقسيم لهذا السوق. وقد شهدتُ أنا بنفسي عدة مرات عملية التنقية هذه، فالعملية تتم بمنتهى الجدية والحذر والدقة، وهذا ذكّرني بالكدّ والاجتهاد اللذين يتمتع بهما الباحثون الأميركيون عن الألماس عند تفحص سيل ذرات الرّمال لإيجاد الأحجار الثمينة.

«وبهذه الطريقة تُنتقى حبوب القهوة الصالحة للاستعمال الخارجي، وتغادر أرضها باتجاه ثلاثة خطوط للتصدير، واحد منها على البحر الأحمر والثاني لداخل الحجاز والثالث للقصيم. نهاية الخط الأول تكون في مصر ونهاية الثاني تكون في سوريا، بينما الثالث تكون في نجد وديار شمَّر. وهكذا تكون مصر وسوريا (من بين جميع البلدان التي تقع خارج حدود جزيرة العرب) أفضل المزوَّدين بمنتوجات الخاصة،

ومع ذلك وتحت القوانين الموضوعة فإن القسطنطينية والشمال تحصل على حصتها القليلة من خلال الإسكندرية أو المرافئ السّورية. ولكن هذه المرحلة الأخيرة من التنقل نادراً ماتحمل الحبوب الأصلية، إلا إذا حصل تدخّل واتخذت تدابير خاصة لصداقات شخصية أو اهتمامات معينة. وعندما يكون الاهتمام فقط بمجرد تحقيق البيع او التجارة، فإن نوعيةً أدنى أو مغشوشة ولكنها نوعاً ما قريبة من النوعية الأدنى، عادة ما يُستعاض بها في مخازن مختلفة على الساحل، إلى غاية أن ما يُصدّر من القهوة ذات علامة المُخا إلى أوروبا والغرب والتي هي من نتاج شجيرات اليمن الأصلي مثله كمثل تحضير ثمار شجر البَقّم logwood من قبل بائعي النبيذ من المستوى الرابع على أنه نبيذ كروم جزيرة أوپورتو Oporto الصافي.

«النوع الثاني من البنّ والذي يفضله البعض عن ذاك الموجود في اليَمَن، ولكن برأيي المتواضع هو أقل قيمةً منه، ينمو في الحبشة (إثيوپيا)، وثمار هذا النوع أكبر ومختلفة إلى حدٍ ما، ولها نكهة أقل حدة. وعلى الرغم من ذلك فإنه نوع ممتاز من القهوة، فإذا ما طرحتْها الأرض الغنية فهذا يعني أن الإنسان قد تركها لتستمتع بفوائد خصوبتها الطبيعية، وتصبح على الأغلب هدفاً للحراثة الكاملة والتجارة.

«وهنا تتوقف قائمة أنواع القهوة على الأقل بناءً على رأي الأوروبيين وتبدأ قائمة البقول.

«عندما كنا ما نزال في الجوف، كنت قد وصفت بشكل دقيق وكافٍ كيف تُحضّر هذه الثمار للاستخدام المثالي، فالعملية على كل حال لا تختلف في نجد عن أي مكان آخر في جزيرة العرب. ولكن في نَجد من الشائع إضافة بعض الفصوص من بهار الزعفران أو ما شابه، ويُفسّر هذا بسهولة بالرّغبة بأخذ ما يوفّره التبغ المنشط من مصادر أخرى. وسبب ثانٍ لعدم التدخين بين العرب هو القوة الزائدة لمغلي قهوتهم في نجد، والشيء الاستثنائي والقليل الحدوث لديهم هو استعمال فناجين قهوة أكبر، كما هي العادة لدينا. وبالتأكيد فإنّ الرّجال عندما لا يشعرون بالمتعة أو بالقليل منها يحتسون فنجاناً آخر».

يعطي پالغريف التصوير المدهش التالي واصفاً عاصمة الوهابيين: «لففنا العمامةَ على رأسنا - تماماً كما يفعل العرب الأصليون - بشكل دائري حول ذقوننا، ولبسنا العباءة السوداء ذات المظهر الرّزين، وأخذ كل واحد منا عصا طويلة بيده، وشققنا الشوارع الضيقة المتوسطة بين منزلنا والسوق بخطىً صغيرة وكأننا في جنازة، وصرنا نتكلم بصوت منخفض، وكان المارّون بنا يحيّونا أو نحييهم، ومن المعروف أن الجماعة الأقل عدداً تسبق بالتحية للأكثر عدداً والراكب يحيي الماشي، والماشي يحيّي الواقف، والواقف يحيي الجالس وهكذا، ولكن يجب ألا يحيي رجل امرأة أبداً، والاختلاف في الأعمار أو في المرتبات بين الرجال لا يدخل في القواعد العامة التي تتعلق بالتحية. وإذا حصل وكان هؤلاء الذين بادرناهم بالسلام من معارفنا أو مرضى، أو من أصحاب النفسيات المنفتحة، فكانت تحيّتنا تُردّ في حينها. ولكن إذا كان لهم لسوء الحظ علاقة بالجماعة التقليديّة المتشددة فكنا نُقابَل بنظرة دونية وبشيء من العبوس في ردِّهم لتحيتنا، حيث كنا نبتسم على طريقة مالڤوليو[1] Malvolio ونتابع طريقنا.

«وأخيراً وصلنا إلى السوق، الذي كان مليئاً بالنسوة والقرويين، الذين يبيعون تماماً الأشياء التي نريد شراءها، فإلى جانب اللحم كان هناك حطب الوقود والحليب... إلخ.

«وفيما حولنا كان يوجد الزبائن الذين جاؤوا بمهمة معينة مثلنا. اخترنا سلةً شهية من التمر، وبدأنا المساومة مع امرأة غير جميلة جالسة بجانب بضائعها الريفية. وجدنا السعر غالياً جداً، أجابت: «بحق من حمى فيصل إنني خاسرة بهذا السعر» ولكننا أصرّينا، فأجابت: «بحق من أعطى فيصل طول العمر لا أستطيع أن أخفض السعر» لم يكن لدينا أي شيء نستطيع أن نعارض به هذا الإصرار الهائل وبالتالي كان لنا إما أن

(1) مالڤوليو إحدى شخصيات الأديب المسرحي الشهير شكسپير في مسرحية «الليلة الثانية عشرة» *Twelfth Night* بدور المضيف في دار أوليڤيا، وتتسم شخصيته بالاستقامة واحتقار المرح والتلاعب.

نقبل أو أن نتمم طريقنا.

«إن نصف الدكاكين وخاصة تلك التي تحتوي على مواد تموينية ومعدات ترتيب المنزل وأكشاك صانعي الأحذية ودكاكين الحدادين كانت مفتوحةً ومزدحمة؛ وذلك لأنَّ العاصمة متمركزةٌ في وسط الإمبراطورية[1] وهي دائماً حافلة بالغرباء، الذين يأتون لقضاء حاجات عديدة. ولكن كان الازدحام حول دكاكين بائعي اللحم هو الأكبر من قبل الناس والكلاب. لا أشك أن القراء يعرفون أن الحيوانات الشاردة الوحيدة المسموحة في الشرق هي الكلاب. هذا والنجديون هم أكثر أكلاً للّحم، ولا غرابة في هذا، إذا أخذنا بعين الحسبان تدنّي سعر اللحم (إذ أن الخروف السمين الجيد يبلغ سعره على الأكثر خمسة شلنات، وعلى الأغلب أقل) والشهية الكبيرة لساكني الجبال. أتمنى لو أن أنظمة الشرطة في المدينة تطبق قوانين النظافة على هذه المسالخ الكثيرة بشكل أفضل، فكل القمامة تركت لتغطي الأرض على مساحة ياردين على الأقل. ولكن الكلاب والهواء الجاف كانا يخففان الإزعاج كثيراً، وإن الملاحظة التي لاحظتها من قبل في حائل وبُريدة كانت تعبر عن حقيقة كل وسط جزيرة العرب.

«قررت أنا وبركات متابعة مسيرنا خلال المدينة. والرّياض مقسمة إلى أربعة أحياء: أولها الحي الشمالي الشرقي، الذي يتبع لقصور العائلة الملكية وبيوت الموظفين الرسميين والناس الأغنياء من المالكين ورجال الدولة. وهنا المساكن مرتفعة بشكل عام، والشوارع مستقيمة بشكل معقول، وليست شديدة الضيق، لكن مستوى الأرض منخفض، وعلى ما أظن أنه أخفض موضع صحي على الإطلاق.

«ثم الشمال الغربي وهو القسم الذي نسكن فيه، يوجد فيه عدد غير اعتيادي من البيوت، تختلف بالحجم ومتدرجة من الأفضل إلى الأسوأ، فهنا يسكن الغرباء وغالباً بعض الشخصيات المختلفة التي لا تحبّذ السكن في المدن الكبرى، وعلى الرّغم من أن فيها قوانين صارمة وملتزمة بشكل عام. وهنا يلاحَظ بشكل عام قلة الولاء،

---

(1) غريب إصرار الكاتب على استخدام تعابير الملك والمملكة والإمبراطوريّة، بينما تسميتها الحقيقيّة: الدّولة السّعوديّة الثانية، ولقب فيصل بن تركي بن عبد الله آل سعود كان: الإمام.

وإخفاء عقائد غير عقيدة ابن عبد الوهاب، ويميل الناس هنا إلى طريقة العرب القدماء وعاداتهم وتقاليدهم (الدّين والدولة) في حال كان جاز لنا استعارة عبارتنا هذه[1]، وهنا تجد رؤساء القرى، ويجد البدويون وأبناء بلدة زلفي والقرويون مأوى لهم، وإن كان بالإمكان أن تجد التبغ يُدخّن ويباع فستجده هنا، وتجد التمسك بالدّين هنا واهناً إلى حدّ ما. على كل حال لا أريد أن أدع القراء يعتقدون أن كل من يعيش بجوارنا ذو سمعة سيئة.

«ثم حوّلنا نظرنا بكل سرور عن المنظر الكئيب لنستمتع بالنظر إلى الحيّ الجنوبي الغربي، حيث اختار المتديّنون والتقليديّون أن يسكنوا في هذا الحي من الرّياض حيث يسكن أكثر الناس حيوية ونشاطاً، هنا يسكن النجديون الجيدون والذين يصلون خمس مرات في اليوم، والنّخبة الصافية من الوهابيين. وفوق هذا كله هنا يسكن المؤسّسون الأساسيون الذين لا يزالون على قيد الحياة من العائلة التي أسست الدّعوة العظيمة، وهم ذرّية عبد الوهاب، إذ أنهم أفلتوا من السيف المصري وتحرّروا من أي تلوث أجنبي. مساجد بدائية وبسيطة ومكان فسيح، حيث العقيدة العظيمة - وهذا ليس محصوراً فقط في الرّياض - التي تقول بأننا نحن فقط على صواب وكل الآخرين على خطأ، والتي تغرس يومياً في عقول العامة، مبتهجين لظفرهم بالجنة والتي ليست لأحد غيرهم، مصلًّى صغير، آبار للوضوء، ومحاريب متجهة نحو الكعبة مزخرفة في كل جوانبها، تجدها في كل مساحة فارغة أو بستان. الشوارع في هذا الجزء مفتوحة، والهواء صحّي جداً، وهكذا فالتجلّي غير المرئي ينعم بمزايا إلهية ملموسة ومحسوسة. أعزائي القراء لا تعتقدوا أنني أسخر أو أخترع أشياء وهمية، فإنني أنقل لكم فقط التعابير والكلمات التي يستخدمها الوهابيون[2] عند وصف شكل هذا الحي من مدينتهم. إن هذا الجزء من المدينة واسع ومزدهر ومليء بالناس وهو مركز للدعوة

---

(1) العبارة التي استخدمها الكاتب أصلاً: الكنيسة والدّولة، لكنها ستبدو هنا في النصّ المعرّب غريبة وغير مفهومة.

(2) عبارة الوهابيين والوهابيّة يستعملهما الكتّاب الغربيون على الدّوام بشكل مغلوط، مكان عبارة: الدّعوة السّلفيّة.

الوهابية المتشدّدة، ويتميز بورعه وبالوهابية الحقيقية.

«توجد حول المدينة أسوار، تتمايز بارتفاعاتها بين عشرين إلى ثلاثين قدماً، وهي قوية وفي حالة جيدة، ومحمية بخنادق عميقة وسدود. توجد خلفها البساتين وهي مشابهة جداً لتلك التي في القصيم من حيث الترتيب والنتاج، غير أنها مختلفة عنها بالمستوى، فالتي هنا تتميز بمستوى أرض أعلى. ومباشرة باتجاه الجنوب توجد اليمامة، حيث يمكن ملاحظة التغير بالغطاء الطبيعي للأرض حيث يصبح مائلاً أكثر للمنظر الاستوائي، سأكتفي بهذا حول هذه المنطقة ولن أضيف المزيد في الوقت الحاضر.

«بناءً على وعد، نفّذ أبو عيسى مهمّته بأن يأتي لنا بمرضى وزبائن، وعندما أشرق علينا صباح اليوم التالي في بيتنا الجديد أتى إلينا بمريض وكان نعمةً من السماء. لم يكن هذا الرجل سوى جوهر، الخازن الذي يعمل لدى فيصل، ولدى الإمبراطورية الوهابية. قد يتفاجأ القرّاء الآن عندما يعلمون بأن هذا الموظف ذو بشرة شديدة السواد، أو بالأحرى زنجياً، ولم يكن عبداً حيث كان والد الملك الحالي قد حرّره من الأتراك. كان طويلاً وبالنسبة للزنوج يُعدّ وسيماً، يبلغ من العمر حوالي الخمسة وأربعين عاماً، يلبس لباساً مدهشاً في الأناقة، لا يمكن أن تفرقه عن الأثرياء الأفارقة أبداً، مهما كانت معتقداتهم النظرية فكان مطوقاً بسيف ذي يد مذهبة. ولكن كان قد قال بأنَّ الذهبَ غير جائز إذا ما استخدم مثل جزء من اللباس أو مثل قطعة حلي كاملة، ولكن يمكن أن يستخدم دون أي تأنيب للضمير في تزيين الأسلحة.

«بعد مراسم الترحاب وتقديم القهوة أخذت مريضي الأسود إلى غرفة المعاينة، حيث كان الكثير من الأسئلة والظنون، وذلك لأن الزنوج أجوبتهم أقل وضوحاً من العرب، استطعت الحصول على التوضيح المطلوب بما يخص حالته. كان المرض مؤلماً فعلاً، ولحسن الحظ كان قابلاً للعلاج بدواء بسيط، فكنت قادراً على أن أعده في اللحظة نفسها بتحسن ملحوظ خلال أسبوعين، وفي ثلاثة أسابيع بإمكانه الوفاء بوعده وأن يبدأ سفره إلى البحرين. أضفت ذلك وأنا بكامل الثقة ولم يكن بمقدوري

أن أفكّر بالمساومة أو بوضع تسعيرة محدّدة، الأجر لعلاجي يجب أن يترك لكرمه. بعدها همَّ بالرحيل، وأعيد إلى جناحه في القصر برفقة تابعيه السود والأدنى رتبةً منه.

كان الزائر التالي عبد الكريم، وهو أكبر النبلاء في نجد، ويرتبط بالعائلة الحاكمة، وهو من أفضل الوهابيين، قوي وذكي، رجل سيء وخطير، يكرهه الناس ويخافونه. كان لزيارته تميزٌ خاص لدى پالغريف، وعلى الرغم من الخطر الإضافي فقد قرّر هذا الثاني أن يحصل منه على معلومات عن المعتقدات الوهابية بقدر ما يستطيع، وذلك لأنه في أغلب الظن يرغب بإعطاء بعض المعلومات وفي الحقيقة لأنه وجده متكلماً. في أحد الأيام سأله پالغريف بأن يعرّف الفرق بين كبائر الإثم وصغائره وتلك التي يتم العقاب عليها في الحياة الآخرة، أو على الأقل التي تستحق العقاب، والأخرى التي يتم العقاب عليها في الحياة الدنيا.

لم يكن لدى عبد الكريم أدنى شك بأنه أمام تلميذ مخلص ولا يستطيع أن يرفض مدّ يد المساعدة لهذا الرجل الغريق، وهكذا أخذ نفساً عميقاً وبصوت جليل ومهيب نطق ما أوحي اليه قائلاً: «الأولى من كبائر الإثم هي إعطاء شرف التنبؤ لمخلوق. قد يلاحظ بأن المسلمين العاديين الذين كل عقيدتهم قائمة على الشفاعة، سواء من محمّد أو من علي، قد صُنّفت عند الوهابية بالشِّرك الصريح والواضح. فشيخ دمشقي كان ليتجنّب الغلط ويجيب: هذا إلحاد.

«طبعاً أجبته: «فداحة إثم كهذا لا تحتمل الشك أبداً، ولكن إذا كان هذا الأول فمن المؤكد وجود ثانٍ، فما هو؟

« «شرب المُنكر» وبالإنكليزية: «تدخين التبغ» كان الجواب دون أيّ تردّد.

«ثم أضفت: «والقتل والزنا وشهادة الزور؟».

«فأجاب: «إن الله غفور رحيم، هذه ما هي إلا ذنوب صغيرة».

«ثم تابعت: «وهكذا يوجد فقط إثمان كبيران، الشرك بالله والتدخين» على الرغم من أنه كان من الصعب المتابعة أكثر من ذلك. وأجابني عبد الكريم وبجدّية وحزم

كبيريـن بـأن نعم هذه هـي الحالة. وبسـماع ذلك واصلت حديثي بتواضع لأسـتعطف صاحبي هذا ليشـرح لي الشـرّ الخاص الموجود في أوراق التبغ، علّـي أزداد كرهاً لها وأتجنبها أكثر بعد ذلك.

«وبنـاء على ذلك تابـع تعليمي قائلا: أولاً كل المواد المسـكرة ممنوعة في القرآن، وبما أن التبغ مادة مسكرة فالتبغ محرّم.

«ألمحـت لـه بطريقة غير مباشـرة بأن التبغ ليس مادةً مسـكرة وفقـاً للتجربة، ولكن الـذي فأجأني أن صديقي هذا كانت له تجربة أيضاً من جانبه، وكان لديه أكثر القصص رعباً حول رجال سـقطوا أرضاً سـكارى حتى الموت بعد نفخـة تدخين واحدة، وعن حالة آخرين السـيئة ووضعهم السـيء وإدمانهم بسبب استخدامهم له. لم تكن قصصه هذه بلا مسـوّغ مثلما يمكـن أن يتخيل المرء، إذ أن نوع التبـغ الوحيد المعروف حينما وجـد كان في جنوب نجد، حيث توجد عُمان وهو نوع قوي جداً، حتى إنني شـخصياً ذُهلـت وتأثـرت نوعاً ما غير مرة لتأثيره التخديري غير العـادي وذلك عندما جرَّبته في أحد مقاهي البحرين».

جمـع بالغريف تقريراً كامـلاً عن أقاليم نجد وعن القبائل التـي تعيش فيها، ونتيجة تصريحه كان تمثيل كل شيء لعله أن يمتع القارئ.

وللاختصـار نستطيع أن نقـول بـأن الإمبراطوريـة الوهابية ماهـي إلا حكومة متينة ومنظمـة تنظيمـاً جيـداً، حيـث المركزيـة مفهومة بشـكل جيـد ومطبقـة تمامـاً، إذ أن مصادرها الرئيسة وطرق التواصل هي القوّة والتعصب. إذ أن هناك لا يوجد أي تفتيش دسـتوري علـى الملك أو علـى تابعيه، ما عدا ما اسـتعدت الضـرورة لتطبيقه بناء على أحكام القرآن. وإذا أردنا أن نصف الجو العام فهو حكم اسـتبدادي مطلق من النواحي الفكرية والأخلاقية والدينية والحركية.

هـذه الإمبراطورية قادرة على مدّ حدودها، ولهذا فهي خطرة على جيرانها، والذين منهم من اختفى فعلاً ومن المؤكد سـيختفي المزيد إذا ما مُنعت بشـكل أو بآخر. وهي

غير قادرة على التقدم الداخلي، ومعادية للتجارة، وغير مرحبة بالفن، وحتى بالزراعة، وفي أحسن الأحوال متعصبة وعدوانية، فلا تستطيع أن تفيد نفسها ولا غيرها، بينما الهدوء والنظام الذي ينتشر بعض الأحيان على أراضيها يوصف في *Ubi solitudinem faciunt pacem appellant* الذي يرد مراراً لدى المؤرخين الرّومان.

«وبالنتيجة، وفيما يلي أذكر قائمة رقميةً، أخذت جزءاً منها من سجلات الحكومة في الرّياض، وجزءاً آخر من المعلومات العامة، متضمنة الأقاليم وعدد المدن الرئيسة أو القرى، وتعداد السكان، والقوة العسكرية، في كل مكان في الإمبراطورية الوهابية.

	الأقاليم	مدن أو قرى	تعداد السكان	التجمع العسكري
I	العارض	15	110,000	6000
II	اليمامة	32	140,000	4500
III	الحريق	16	45,000	3000
IV	الأفلاج	12	14,000	1200
V	وادي الدّواسر	50	100,000	4000
VI	السليل	14	30,000	1400
VII	الوشم	20	80,000	4000
VIII	سدير	25	140,000	5200
IX	القصيم	60	300,000	11000
X	الأحساء	50	160,000	7000
XI	القطيف	22	100,000	--------
		316	1,219,000	47300

وبعد فترة، كان بالغريف قد أُرسل في طلبه من قبل عبد الله، وهو الابن الأكبر للملك فيصل، والذي ادّعى أنه يتمنى أن يتعلم شيئاً من فنون الطب. فأدى ذلك إلى اجتماع نظامي، أعان المسافرين على الأقل على تعلّم عدة أشياء بما يتعلق بالحكومة الوهابية.

والنتيجة الأخرى المهمة كانت فرصة زيارة الإصطبلات الملكية، حيث توجد نماذج من أشهر سلالات الأحصنة في نجد. وحول هذا أُعطي الوصف الممتع التالي:

«كانت الإصطبلات تقع خارج المدينة تقريباً، وتحديداً باتجاه الشمال الشرقي قليلاً إلى الشمال من الطريق الذي اتبعناه عن وصولنا، وليس ببعيدٍ عن بستان (عبد الرّحمن الوهابي). فقد غطّت مساحة كبيرة مربعة تبلغ تقريباً 150 يارداً من كل جانب، ومفتوحة من المنتصف، مع عازل طويل ممدود على الجدران الداخلية، وتحت هذا الغطاء توجد الأحصنة، كان عددها مايقارب الثلاثمئة عندما شاهدتُها، تُربط أثناء الليل وتترك لتمدّد أرجلها فتجري بسعادة أثناء النهار في منتصف الباحة. ولذلك كان العدد الأكبر منها غير مربوط وبعضها فقط كان مربوطاً في حظيرته، البعض منها وليس الكثير كان عليه دثار الخيول. ولم تتركها قطرات الندى الكثيفة التي توجد في وادي حنيفة دون أذى في هواء الليل المفتوح، وكان قيل لي أيضاً إن الرياح الشمالية تؤذي بعض الأحيان الحيوانات هنا، وتأثيرها ليس بأقل من تأثير الرياح الأرضية من حين لآخر على الإخوة في الهند، وفيما يقارب نصف عدد الأفراس الملكية موجود أمامي، والباقي كان في الخارج على العشب، فكامل مجموع أفراس فيصل يبلغ حوالي ستمئة أو أكثر.

«ليس هناك أحد من العرب يحلم أن يربط الخيل من رقبته، فالحبل يحل محل الرّسن، واحدة من رجلَي الخيل الخلفية مطوقة من الأسفل فوق الحافر بخاتم حديدي خفيف، مزود بقفل وموصول بسلسلة حديدية بطول قدمين تقريباً، تنتهي بحبل مربوط إلى الأرض على بعد مسافة ما بوتدٍ حديدي[1]، وهي طريقة مألوفة جداً.

«ولكن بهذه الطريقة يكون الحصان مزعوجاً وقلقاً، لذلك تقيّد واحدة من رجليه الأماميتين بالطريقة نفسها. ومعروف أن العناد المتكرّر والرعونة المستمرة أقل بكثير لدى أحصنة جزيرة العرب من تلك التي في أوروبا، ولهذا السبب تجد الخيول المخصية هنا نادرة جداً، لدرجة أنها غير معروفة. ولم أستطع أن أجد أي تحيّز موجود

(1) يعرف هذا القيد بالعربية بالشّكال.

ضـد العملية بحد ذاتها، إنها نـادراً ما تُطبّق، لأنها غير ضرورية، ولأنها بالطبع سـتقلل من قيمة الخيل.

«وبالعودة إلى الخيول التي أمامي، فلم أرَ أو أتخيّل مجموعةً من خيول جميلة مثل هذه. فقامتها كانت فعلاً منخفضة بعض الشيء، ولا أعتقد أن ارتفاعها وهي واقفة تماماً يبلغ أكثر من خمسـة عشـر شـبراً، وكمعدل يبدو لي حوالي الأربعة عشـر، إنها مختارة بعناية، وقوامها رشـيق حتى على ما يبدو أن ذات الأحجام الضخمة نادرة جداً أو حتى غير موجودة وتُعدّ عيباً. ومن الملاحظ بشـدة أناقة وجمال شـكل انحدار المنطقة التي تصل كتفها بفخذها والتي تجعل المرء «ككلمات الشاعر العربي» يصبح مهووساً بها. لظهورها بروز خفيف جداً شـكله كشـكل السـرج، وهـو ليس أكثر مـن انحناء طفيف يوحـي بالمرونة دون أي علامة على الضعف، رؤوسـها عريضـة في الأعلى ويتناقص عرضهـا تدريجيـاً باتجاه الأنف الذي يصبح ناعماً جداً لدرجـة أنه من الممكن تحقيق العبارة: «الشرب من وعاء صغير جداً» فهل هذا النوع من الأوعية موجود في نجد؟

«الشـكل الأجمـل والأكثـر أناقة لمنظـر إفـرادي، عين كبيـرة، أذن صغيـرة وحادّة كالشوكة، قوائم أمامية وخلفية كأنها مصنوعة بمطرقة حديدية، رشيقة تماماً ومع ذلك لها شـكل مفتول وقـوي، غاية في الترتيب وتنتهي بحافر دائري الشـكل، وهو الشـيء الضروري لأرض قاسـية، الذيل مثبت أو بالأحرى منبثق بشـكل مقوّس مثالي، مغطى بنعومة وبرّاق وخفيف، شـعر الرقبة طويل ولكنه ليس طويلاً جداً وليس ثقيلاً، تمشـي بخطا رشيقة وكأنها تقول: انظر إليّ ألستُ رائعة الجمال؟ منظرها يسوغ الشهرة والقيمة والقصائد الشعرية. اللون الغالب فيها كان الكستنائي أو الرمادي، بينما تقل ذات اللون البنـي الفاتـح المائل للحمرة، أواللون الحديدي، أوالأبيض أو الأسـود، والألوان غير الموجـودة نهائياً هي البني الفاتح المائل للحُمـرة الكامل، أو الذي عليه نقط بنية مائلة للحمرة أو الملون بلونين. ولكن وبعد هذا كله إذا سُئلت ما الشـيء المميز في خيول نجد؟ فسـأجيب بأنه انحدار الكتف والأناقة غير المتناهية في الساق، والفخذ الممتلئ ذو الشـكل الدائـري، وعلى الرغم من أن كل الأجزاء الأخرى تتميز بأناقة وتناسـق لم

يشاهد مثلها من قبل (على الأقل لم يُشاهد من قبلي شخصياً) في أي مكان آخر.

«تقدّر خيول نجد خاصة لسرعتها العالية وقوة تحملها للتعب، وفعلاً في هذه المزيّة الأخيرة لا يمكن لأي خيل آخر أن يضاهيها. فأن تمضي أربعاً وعشرين ساعة على الطريق دون شرب ودون أن تتعب فهذا بالتأكيد شيءٌ عظيم، ولكن أن تحتفظ بالتقشف نفسه وبالأداء نفسه تحت أشعة الشمس العربية المحرقة لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة مستمرة فأعتقد أنه شيء مميز لحيوان ذي أصالة. علاوة على أن لديها رقة لا أستطيع وصفها بكلمات، فمن المعروف أنه من الممكن قيادتها دون شكيمة أو لجام، ولكن فقط بالشعور والطاعة للركبة والفخذ، وبالإحساس الخفيف للرسن وصوت الراكب، متغلبة على أيِّ أفضل حصان أوروبي مدرَّب في مدرسة الأحصنة، على الرغم من تزويده بشكيمة ولجام وأشياء أخرى.

ومراراً ما ركبتُ متونها بدعوة من مالكيها، دون سرج أو لجام أو رِكاب، فدفعتُها إلى سرعة عدوها حتى الذروة، ودرتُ بها بشكل دائري، وكبحتُها للتوقّف التام وهي في أوج جريانها، وهذا كله دون أي أدنى صعوبة أو أقل نقص في التواصل بين حركة الحصان ورغبتي الشخصية، إن الرّاكب على ظهورها يشعر نفسه فعلاً وكأنه النصف البشري من المخلوق الذي نصفه حصان ونصفه إنسان، وليس مخلوقاً مختلفاً.

* * *

خلال الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر، تجهّزَ النائب الفارسي الذي كان قد تثقف بعض الشيء من خلال تجاربه في نجد، للرحيل إلى بغداد، وفي الوقت نفسه كان فيصل يقوم بتحضيرات كبيرة لجمع جيش لإخضاع مدينة عُنيزة (وهي بجانب بُريدة)، التي كانت ما تزال ترفض الإذعان سلمياً. كان الجنود يُستدعون من الساحل الشرقي والأقاليم المجاورة، وكان سعود الابن الثاني لفيصل قد أُمِر بأن يجمعهم معاً في العاصمة، وعندها ستعطى القيادة لعبد الله، الابن الأكبر. وعندها كانت الفرصة الوحيدة لپالغريف بأن يرى ملك الوهابيين العجوز.

«وصل سعود بسرعة، ومعه ما يقارب المئتي فارس، أما الباقي من رجاله فكانوا حوالي الألفين، وكانوا يركبون الجمال. وعندما دخلوا الرّياض، كانت هي المرة الأولى والأخيرة خلال زيارتنا التي ظهر فيها الملك فيصل عند بوابة القصر. كانت منظراً يستحق الرّسم، فهناك جلس هذا العجوز الأعمى المستبد السمين عاجزاً، ولكنه لا زال ذا هيبة، بجبهته العريضة والكبيرة، ولحيته البيضاء، ومظهره المهيب، متستراً ببساطة الوهابية، وكان السيف ذو اليد نصف المذهبة على جنبه وهو الحلية الوحيدة المميزة. وبجانبه يوجد الوزراء، وموظفو البلاط الملكي، وجمع من أنبل وأثرى المواطنين، وكان عبد الله وريث العرش هو الوحيد الغائب. ظهر علينا سعود بمظهر ضابط في وحدة من وحدات الجيش الأوروبي، مغطى بشال فاخر من الكشمير، وغطاء من الذهب المصنوع باتقان، بينما كان الناس كلهم يتبعون حاشيته الذين كانوا يلبسون الأحمر ورماحهم فوق أكتافهم، وسيوفهم معلقة إلى الأسفل، وكذلك كانت البندقية معلقة بحامل خلف السّرج لكل جندي، وخنجر من صنع إقليم حريق Hareek مشحوذ يلمع في كل حزام. أتى الجنود العاديون بعدها على جمال أو هجن، بعضهم يحمل فقط رماحاً، وبعضهم الآخر يحمل رماحاً وأسلحة، إلى أن امتلأت الساحة الكبيرة برجال مسلحين ومتفرجين ينظرون باهتمام، وجاء الجنود جميعاً وتوقفوا أمام الحاكم العظيم المستبدّ، ترجّل سعود وانحنى وقبّل يد والده.

«حمى الله فيصلاً، نصر الله جيشَ الإسلام» كانت هذه الصيحات تصدر من كل مكان، وكل الوجوه اشتعلت بابتسامه عريضة تعبّر عن الحماس الشديد والقوة الكامنة.

«نهض فيصل من كرسيه، ووضع ابنه إلى جانبه لدقيقة أخرى، ثم دخلا القصرَ معاً».

* * *



صورة 14: موت في الصّحراء

الفصل الخامس عشر

رحلات پالغريف - هروبه إلى الساحل الغربي

«ليس من السهل دائماً على الغريب الدّخول إلى الرّياض، ولكن الأصعب من ذلك هو الخروج منها، حتى (رينارد) Reynard بذاته سيحجم على أن يغامر بالدخول إلى هذا العرين الملكي، فالوجود في عاصمة نجد له معنيان حتميان ما عدا الخروج لهؤلاء الذين يمكن أن تكون قد فقدت الثقة بهم، الأولى والأكثر جاهزية هي تلك التي شدَّد القول فيها: *Stone-dead hath no fellow* «الميت ليس له صاحب». ولكن في حال جعلت الظروف روابط الموت غير ملائمة، فإنّ الرّوابط بين هَيمان Hymen (إله الزواج عند اليونان) والإقامة في الرّياض قد تحلّ محلّها، وهذا ما يحصل أحياناً. وبهذه العملية الأخيرة والأكثر رهافةً بين الاثنتين قرَّر عبد لله أن يستبقينا[1].

«بناء على ذلك في صباح أحد الأيام وصل إلى مكان إقامتنا أحد العاملين في القصر، أتانا بوجه مبتسم ينذر بوجود أشياء جيدة يمكن استخدامها عند الحاجة، والكثير من الكلام الجميل. وبعد أن سأل عن صحتنا وراحتنا وأمورنا... إلخ، أضاف بأن عبد الله فكَّر بأنه ربما أن يكون لدينا رغبة في شراء شيء من هنا أو هناك، وألحَّ علينا أن نقبل هدية صغيرة. وكانت عبارة عن مقدار من المال، كمية كبيرة بمقدار ضعفي ما يمكن

---

(1) يحلو لپالغريف استخدام تعابير متحذلقة، وهو يعني أن الإقامة في الرّياض تتحسن بالزواج وعدم البقاء الغريب أعزب. وسيبيّن پالغريف أدناه كيف عرض عليه عبد الله مالاً وداراً وكذلك تزويجه، على اعتبارهم يظنونه عربياً من الشام كما يدّعي.

أن يقــدّم هديــةً وديةً، وهــي تماماً أربع ريــالات عوضاً عن اثنين. وبعدها همَّ الرســول بالذهاب.

«كان أبو عيسى موجوداً في الاجتماع فقال: خُذ حذرك، ثمّة شيء ما غير طبيعي. ففي بعد ظهر ذلك اليوم أرسل لي عبد الله نفس غزارة المديح وبوعود كثيرة مؤكداً بأنه من غير الممكن مجرد التفكير أن يدع الرّياض تخسر طبيباً مهمّاً، لذا يجدر بي أن أتخذ مقراً دائماً للإقامة في العاصمة، حيث أستطيع أن أعتمد على رعايته، وعلى كل الأشياء الجيدة التي كان سابقاً قد وفرّها وأن يعطيني منزلاً وحديقة معيّنين مع رعاية منزلية مناسبة، ووجهاً جميلاً يبقى مصاحباً لي، وانتهى بدعوتي للذهاب دون أي تأخير ورؤية البيت الجديد الذي يناسبني فأشتريه.

«حاولتُ طويلاً أن أرفض، وتحدثت عن زيارة في الشتاء للساحل وعن عودتي في الربيع، حاولت أولاً أن أتحججَ بعذرٍ كاذبٍ تلو الأخر، ولكن لم ينفع أي منها، وتابع عبد الله مصرّاً. ولأتخلص منه وافقت على الذهاب لرؤية المنزل، ومن أجل الحجج التبريريّة الشاعريّة Calypso التي أنويها، كنت جاهزاً بمناقشة استنبطتُها من القانون الإسلامي، لأجعله غير مقبول أبداً، ولكن شرحها يتطلب مساحةً أكبر من هذه الصفحات.

«كان فصل الشتاء يباشر بالبدء، حيث كان الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر، وأول عاصفة رعدية شهدناها في منتصف جزيرة العرب كانت علامة إنذار بتحول درجة الحرارة إلى البرودة في وادي حنيفة. هطلت الأمطار بغزارة وسببت سيولاً في مجاري الوادي المائية الجافة، محوّلة هذه الفجوات الكبيرة إلى أحواض مؤقتة، لم يكن قد ظهر أي من الجداول ولم يوجد أي تخطيط ليوصلها إلى البحر؛ وذلك لأنه من المستحيل فعلاً وصولها وذلك لأن هذا الجزء من هضبة نَجد كان مطوّقاً من جهة الغرب بأقليم طويق. رحَّب السكان بالأمطار الوفيرة التي تعد بعام وافر الخصوبة، بينما تسببت نفس الأمطار في عُنيزة بمظهر واحد ممتاز على الأقل، أتحدّى القراء أن يحزروا ما هو. فالجيوش المتعادية بقيادة زامل ومحمّد بن سعود تلاقت وجهاً لوجه،

وفي لحظة اللقاء المحتدم نفسها، انفجرت العاصفة بالهطول فوقهم، مانعة الطرفين كليهما اللذين أخرجا بنادقهما المجهزة للقتال من إطلاق الرّصاص وإراقة الدماء.

«كان عبد الله الذي كان يكره أخاه الثاني سعود وله الكثير من الأعداء اللدودين في العاصمة، قد علم بالمصادفة بأن پالغريف استخدم سمّاً مميتاً هو (السّتريكنين) Strychnine في صنع علاج فعّال، وقتها وظّف كلَّ قوة الإقناع التي لديه في السعي للحصول على بعض من هذا العقار، ولكن پالغريف شكك في نواياه الحقيقية، ورفض بشدة أن يعطيه أياً منه. فظهر غضبه وحنقه فجأة وبشدة على محياه منذراً بالشر للمسافر، الذي انتهز الفرصة الأولى للرجوع إلى منزله.

«وهناك دعاني أنا وبركات وأبا عيسى مباشرة لعقد اجتماع لنتباحث فيما حدث وما يجدر بنا فعله. وأنه من المؤكد أن نزاعاً سوف يحدث، ومن الخطر انتظاره، ولم نكن قادرين على مغادرة المدينة بشكل آمن وسريع، ودون تصريح ما، فاتفقنا على أن نبقى هادئين وحذرين بضعة أيام أخرى، لنختبر ما يحدث في القصر، ونوصل تحياتنا لقصر فيصل، ونحصل على كلمة طيبة من محبوب (وهي ليست بالعملية الصعبة) وبعدها نذهب خلسة خارجاً دون أن نثير الانتباه. ولكن لم يكن قدرنا أن نخرجَ بسهولة».

وفي ساعة متأخرة من مساء يوم الحادي والعشرين من نوفمبر، استدعي پالغريف إلى قصر عبد الله، رفض الرسول أن يرافقه أيّ من بركات أو أبي عيسى، كان الأمر يبدو استثنائياً والرفض كان أمراً غير مطروح للنقاش، تبع پالغريف الرسول، وبدخولهم إلى غرفة الاستقبال وجَدَ عبد الله وعبد اللطيف خليفة الوهابيين ومحبوب وبعض الرجال الآخرين، كانوا كلهم صامتين ولم يردّوا عليه تحيته الأولى. قال پالغريف: «حييت عبد الله الذي أجاب بصوت خافت، وأعطاني إشارة توحي أن أجلس على بعد مسافة صغيرة منه، وعلى نفس الجانب من الأريكة. ويمكن للقراء أن يفترضوا كيف كانت حالتي حيث لم تكن اللحظة المناسبة لجلوس ودّي متجاور.

«بعد تبادل لحظات الصمت، التفت عبد الله نصف التفافة نحوي، وبنظرة سوداوية وصوت جهوري قال: «أنا أعرف حق المعرفة الآن بأنكما لستما طبيبين، أنتم نصرانيّان

وجاسوسان ومحرّضان على الثورة، وقد أتيتما إلى هنا لتخرّبوا ديننا ومنطقتنا نيابة عن أولئك الذين أرسلوكما. عقوبة أمثالكما هي الموت كما تعرفان، وقرَّرت أن أطبق هذا دون أي تأخير».

«فكرت بالقول: «مَن يلقى تهديداً يمتدّ به العمر» ولم أجد أي صعوبة في إظهار الهدوء الذي كنت فعلاً أشعر به، نظرت إلى وجهه بهدوء وأجبت: «أستغفرُ الله» (نطقتها باللغة العربية) وهذه هي العبارة الشائعة التي يُردّ بها على أحد قد قال شيئاً ليس في محله مطلقاً.

«بدأ بالقول: «الجواب هذا لم يكن متوقعاً» وأضاف: وكيف؟

«فأجبت: لأنك قلت شيئاً منافياً للعقل والمنطق، نصرانيّان نعم هذا صحيح، وأمّا جاسوسان ومحرّضان على الثورة، فكأننا لم نكن معروفين من الناس كلهم في مدينتك بكوننا طبيبين مسالمين لا أكثر ولا أقل! وبعدها تتحدّث بأنك تريد أن ترسلني للموت! كلا لا تستطيع ولا حتى تجرؤ.

«فأجاب عبد الله: ولكنني أستطيع وأجرؤ، ومن يستطيع أن يمنعني؟ وستعرف بأن هذا ليس لمصلحتك.

«أجبته مكرراً: لا تستطيع ولا تجرؤ، نحن هنا ضيوف والدك وضيوفك لشهر أو أكثر، وعُرفنا على هذا الأساس وتمّ استقبالنا على هذا الأساس. ما الأمر الذي ارتكبناه الذي يسوِّغ اختراق قانون حُسن الضيافة في نجد؟

«وتابعت: من المستحيل أن تفعل هذا الذي تقول: إن مجرد التفكير ولو لبرهة بأن هذا هو القرار السليم الذي يمكن اتخاذه، فالخزي وسوء السمعة الذي سيصيبك من فعلتك سيكون أكبر من أن تتحمله.

«بقي يفكر دقيقة وبعدها قال: إذا أراد أحد ما أن يعرف مَنْ فعلها، فعندي الحل لهذا ويمكن التخلص منكم دون أي كلام أو إشاعات. هؤلاء الذين تحت أمري باستطاعتهم اتخاذ الوقت والمكان المناسبين لهذا العمل، دون حتى أن يُذكر اسمي في العملية.

«كانت الفرصة حينها بالتأكيد لمصلحتي، فاستغليتها وقلت مع ضحكة صغيرة: ولا حتى هذا بمقدورك فعله، ألم أصبح معروفاً من والدك، وكل أولئك الذين في القصر؟ ولأخيك سعود دون البقية؟ أليست الحقيقة أن زيارتي الحالية هذه لك معروفة لكل من هو خارج البوابات؟ ثم أضفت مع نظرة خاطفة لمحبوب: «أو أنه لا يوجد أحد هنا مَنْ يستطيع أن ينقل ما قلته للتو؟ من الأفضل لك أن تترك هذا الهراء، هل تعاملني معاملة طفل عمره أربعة أيام من العمر؟!».

«دمدم وأعاد تهديده مرة ثانية. فاجبته رافعاً صوتي ليسمع من أول الغرفة إلى آخرها: فليشهد كل الموجودين هنا، بأن إذا حدث لي أو لرفاقي أي مكروه أو حظ عاثر من الرّياض وحتى سواحل الخليج العربي، فإن عبد الله هو السبب فيه، والنتائج من الواجب أن تكون عليه أسوأ مما يتوقع أو يحلم به.

«لم يجب الأمير حينها بأي شيء، والجميع لبثوا صامتين، وفيما أبقى محبوب عينيه مثبتتين على موقد النار، كان عبد اللطيف يحدّق أكثر ولم ينطق بحرف.

«صاح عبد الله بالخدم «هات القهوة». وقبل أن تمرّ دقيقة واحدة كان عبداً أسود يقترب مع فنجان قهوة بيده، فنجان واحد فقط. وبإشارة ثانية من سيده جاء إلى أمامي وقدّمه لي.

«بالطبع احتمال سيء للغاية يمكن أن يُتوقع من هذا المشروب غير العادي والوحيد. ولكنني فكرت بأنه من المستحيل أن تكون قد حُضِّرت العملية بهذا الشكل المتقن، إلى جانب أن السبب الرئيس لغضبه كان تحديداً يتعلق بالرفض في إعطاء السمّ، تلك الحقيقة التي تدلّ على أنه ليس لديه أيّ منه جاهز للاستعمال.

«ثم قلت: بسم الله (باللغه العربية) وأخذتُ الفنجان ونظرت بحدّة إلى عبد الله وشربته وقلت بعدها للخادم: «صُبّ لي واحداً آخر» وهذا ما فعل، شربت الآخر وقلت له: «الآن بإمكانك أخذ الفنجان».

«كان التأثير المطلوب فعلاً محققاً. فوجه عبد الله كان يوحي بالهزيمة، بينما كان

بقية الموجودين يتهامسون مع بعضهم. التفت الأمير إلى عبد اللطيف وبدأ بالحديث معه عن الخطر المحدق بالبلاد من الجواسيس، وعن التخطيط الشرير للكفار لهدم مملكة المسلمين. شارك كل من القاضي Kadee وأصحابه في المحادثة، وتحدثوا عن قصة الدرويش الخرافي المسافر الذي قتل في الدّرعيّة، وعن آخرين (لكن لا أستطيع أن أتذكر من قال - يمكن أن يكون الفارسي - الذي قال إن عبد الله يعرف أيضاً أنه متآمر، ولكنه هرب إلى مسقط، فنجا من عقوبة جرائمه)، ثم جاء ذكرنا للتو وبدؤوا بالتعليق علينا، وأخيراً تحدّث محبوب، ولكن حديثه كان للسخرية وذلك من عدم الفهم. فقال: إن القضية بحدّ ذاتها مستبعدة، وحتى لو كانت كذلك فما الأذى الذي يمكن أن يأتي عنهم؟ مشير إليَّ أنا وأصحابي.

هنا أخذتُ زمام الحديث، ونتجت محادثة عامة، كنت أبذل قصارى جهدي خلالها أوضح بأن فكرة الجواسيس والجاسوسية التي اتهمت بها تصرفاتنا المسالمة وطبعنا الهادئ سبّبت شيئاً من النقمة، فبعد كل الأفعال الحسنة والخدمات التي قدَّمناها في القصر والمدينة نُقابل بهذا الجزاء السيء، واقتبست من القرآن شيئاً حول الإساءة إلى المشتبه بهم دون أدلة، والإجبار بعدم الحكم عليهم بأنهم مسيئون دون أدلة واضحة. لم يجب عبد الله أيّ جواب مباشر، ومهما كان رأي الآخرين فلن يستطيعوا مساندة مسألة قد تخلى عنها سيدهم.

«إن الذي أمتعني، هو أن الأمير الوهابي ضرب قريباً جداً رأس المسمار الصحيح، وكنت أردعه لأنني توقعت الأشياء بشكل جيد. ولكنه لم ينجح في ذلك، وكانت متعتي هي أن أرى ذلك، على الرغم من أن مافي قلبه لم يغيّر رأيه فينا، فقد كان خائفاً بما فيه الكفاية ليقدم تأجيلاً أكيداً لما يريده، ولهذا أصبح موضوع هروبنا يمكن تحقيقه.

«استمر هذا النوع من الحديث لفترة، واحتفظت بمكاني عن قصد لأظهر عدم الاهتمام الناتج عن البراءة، إلى أن أشار محبوب إلي بإشارة والتي تعني أنه بإمكاني العودة بأمان، وهنا استأذنت عبد الله بالرّحيل وتركت القصر دون أي مرافقة. كان الوقت حينها حوالي منتصف الليل، ومن غير الممكن رؤية أي ضوء في أي بيت، ولا

أي صوت يُسمع في الشوارع، كانت السماء أيضاً معتمة جداً وملبدة بالغيوم، حتى جاءني شعور ولأول مرة بالوحدة المرعبة يتسلل إليّ، وأعترف بإنني التفت برأسي إلى الوراء غير مرة لأرى أنه لا يوجد أحد يتبعني متأبطاً الشيطان (كما يقول العرب)، ولكن لم يكن هناك أحد. ووصلت بعدها إلى الزقاق الهادئ والباب المنخفض حيث كانت ومضة من خلال الشقوق تظهر الارتقاب القلق لأصحابي، الذين فتحوا الباب مبتهجين لرؤيتي وأنا عائد صحيحاً وسليماً من الاجتماع الحرج.

«كانت خطتنا المستقبلية قد جُهزت سريعاً، فقررنا أن نبقى يوماً أو يومين في الرّياض مخافة أن يعبّر الرحيل السّريع عن الخوف، وهذا سوف يشجعهم على اللحاق بنا، ولكن خلال هذه المدّة سنتجنب القصر والتجول في الحدائق أو في الليل، وسنبقى في المنزل أكثر ما يمكن. سيتمكن أبو عيسى أثناء ذلك من تجهيز جماله، ويضعها في الساحة التابعة للمنزل لتكون جاهزةً للتحميل فوراً.

«كانت مجموعة من المسافرين تنوي الرّحيل من الرّياض إلى الحَسَا (الأحساء) بعد عدة أيام. فأعلمهم أبو عيسى رغبته بأن يرافقهم إلى الهفوف بينما كنا من المفترض أن نذهب شمالاً إلى سُدير، التي غادر إليها النائب مؤخراً بعد وداع متبادل وعهود بأن نحفظ صداقتنا، وأن نلتقي مجدداً. انهمك مبيريك الخادم الأسود لدى أبي عيسى بتجهيز الجمال للرحلة الطويلة بإطعامها البرسيم والجلبان، وهما ينموان بكثرة هنا، ونحن تابعنا هواياتنا الطبّية ولكن بحذر وهدوء ودون مغادرة البيت كثيراً.

«أتينا خلال فترة بعد ظهر اليوم الرابع والعشرين بثلاثة من جمال أبي عيسى إلى الساحة، أغلقنا الباب الخارجي، وبدأنا الحزم والتحميل، ثم انتظرنا حتى حلول وقت صلاة المغرب حتى استدعى صوت المؤذن كل الوهابيين الصالحين إلى عدة مساجد، ولم يكن رجال حرس المدينة مستثنين، وبعد مرور حوالي عشر دقائق، وبافتراض أن الكل مشغول في صلاته، فتحنا بابنا وألقى مبيريك نظرةً إلى جهتَي الشارع لنتأكد أنه لا يوجد أحد فيما حولنا، وقدنا الجمال خارجاً. رافقنا أبو عيسى وتجنبنا الشارع العام الكبير، واتخذنا طريقنا عبر الممرات والحارات الجانبية باتجاه بوابة المدينة الصغيرة،

التـي هي الأقرب إلى بيتنا، والمفتوحة على الشـمال. صادفنـا بطريقنا أحد المتأخرين عـن الصـلاة في طريقه إلى المسـجد، ودعانا بمـروره للصلاة، ولكن أبا عيسـى أجابه دون تردّد: «لقد انتهينا لتوّنا من الصلاة» وخوفاً منه أن يتأخر هو نفسـه عن الصلاة وأن يتعرض فيما بعد للتوبيخ والعقوبة، أسرع إلى أقرب مصلًّى تاركاً الطريق وراءه خالياً. لـم يكـن يوجد أحد عند البوابـة للمراقبة فاجتزنا عتبتها والتففنا إلـى الجنوب الغربي، ووصلنـا تحـت حُمرة الأفق التي لا تدوم طويلاً إلى مجال من الهضاب الصغيرة، التي احتمينـا وراءهـا حتى ظهور النجـوم، وجنح الليل (كما تصف القصائد العربية) ينشـر ظلمته فوق المدينة والبلاد.

«إلـى حدّ ما الآن كل شـيء جيد، لكن المصاعـب القادمة كانت ماتـزال بانتظارنا. وكان فـي غايـة الضـرورة أن نبارح نجـداً دون أن يشـاهدنا أحد، وأن نضـع الصحراء بيننا وبين المنطقة الوهابية والعاصمة، والشـيء الذي لا يقلّ ضرورة هو أنّ أبا عيسـى كانـت له علاقـة قوية بالموضوع، ولكن أمـام الرّياض وحكومتهـا كان ينبغي أن يظهر بعدم تورطه في رحيلنا غير الرسـمي ولا حتى بأي شـيء له علاقة بتحركنا نحو الأمام. وقُصـارى القـول، كان من الواجب أن يكون بيننا وبينـه انفصال واضح في الطريق قبل أن نجتمع ثانية ونتمم المتبقي من اكتشافاتنا.

«ولتحقيق هذا ولنضمن سلامتنا ولكي نناى عن عيون الوهابيين، اتفقنا على أنه قبل شـروق شـمس اليوم التالي يجدر بأبي عيسـى أن يعود إلى المدينة وإلى محل إقامته، وكأن شـيئاً لم يحدث، ويبقى هناك بانتظار مغادرة سـير القافلة المذكورة سـابقاً، التي تتألـف علـى الغالب من رجال من الحَسَـا والقطيـف، والتي قد أصبـح فيها الآن أحد للهفـوف. هـذه التركيبة كانت متوقعة أن تبدأ خلال ثلاثة أيـام على الأكثر، بينما ينبغي لصديقنـا أن يُظهر نفسـهِ بوضوح في قصر فيصل وعبد الله، وإذا سُـئل عنا يجدر به أن يجيب بضبابية، و بطريقة عفوية كشخص لم يكن لديه أيُّ اهتمام بنا، ونحن من الواجب علينـا فـي هذه الفترة أن نبذل قصارى جهدنا في المضي فـي طريقنا بقيادة مبيريك إلى وادي سُليل 'Soley وهناك نختبئ في مكان معين حتى يأتي أبو عيسى ويأخذنا معه.

«كان هذا قد رُتب له، وعند استراحة الفجر شرع أبو عيسى في الرحيل، وكنت أنا وبركات ومبيريك نمتطي جمالنا التي كانت متجهة صوب الجنوب الشرقي، تاركة مجال الهضاب بيننا وبين الرّياض، التي لم نعد نراها قطّ. كان طريقنا يقودنا فوق أرض متموجة هي امتداد لوادي حنيفة، حتى وصلنا بعد مسيرة أربع ساعات قبالة بوابات منفوحة التي تُعدّ مدينة، محاطة بالبساتين ولا تقلُّ من حيث الامتداد والخصوبة عن تلك التي في الرّياض، ولكن حصونها التي كانت في يوم مضى قويةً قد فُككت وهُدمت بسبب غيرة من يجاور العاصمة.

«وصلنا بعد الالتفاف هنا وهناك إلى النقطة التي عيّنها أبوعيسى لتكون مكان اختبائنا. فكانت عبارة عن تجويف صغير في الرّمال، يقع تقريباً في مكان غير مألوف، في منتصف الهضاب والشجيرات الجافة، دون ماء، ولكننا كنا قد أخذنا الكفاية منه ووضعناه في جلد ماعز ليبقينا أحياء مدة ثلاثة أيام. توقفنا هنا وقررنا أن نكون صبورين ومتفائلين.

«مضى يومان كئيبان بما فيه الكفاية. لم نستطع عمل شيء غير أن نكون توّاقين لوصول دليلنا، كما لم نستطع أن نكون غير خائفين بأكثر من نسبة ضئيلة. عثر علينا مرة أو مرتين حيوان شارد، وكان متفاجئاً جداً من إقامتنا في في مكانٍ جافٍ كهذا. مضت الساعات وكان اقتراب اليوم الثالث يجلب معه الكثير من التوقع والتلهف، اللذين ما زالا بازدياد بينما كانت الشمس تغيب، وحتى آخر لحظة من غروبها لم يكن أحد قد ظهر بعد، ولكنه عندما خيّم الظلام تماماً حيث كنا جالسين مجموعة يائسةً بجانب شعلة النار الصغيرة لتردّ عنا قشعريرة الليل جاء أبوعيسى فجأة، وتغيّر كل شيء من سؤال وجواب إلى ابتهاج وضحك.

«وفي يوم الثامن والعشرين من نوفمبر بدأنا مسيرتنا باكراً خلال واد يعمّه ضباب خفيف، أصبح واحداً من صحبة طريقنا.

«كانت جميع البقاع في صباح اليوم التالي، من هضاب ووديان، وأشجار وشجيرات، كلها قد التفّت بدثار من الضباب الكثيف، قد يناسب أن يكون في

مقاطعة سَري (Surrey) وليس في جزيرة العرب. كان هذا الضباب ذو اللون الحليبي كثيفاً جداً لدرجة أنه لا يمكن الرؤية من خلاله، حتى إننا فقدنا طريقنا، وبقينا نمشي عشوائياً، نصرخ ونصيح لنقود دوابنا تارة إلى هنا وتارة إلى هناك، فوق الأراضي الوعرة وبين الشجيرات المتشابكة، حتى جمعت الشمس قواها وانقشع هذا الضباب الكثيف عارضاً لنا الطريق على بُعد مسافة جيدة على يميننا. وقبل أن نمشي فيه لمسافة بعيدة رأينا عجاجاً أسود يتقدم من الشرق باتجاهنا. كان هذا هو الرّتل الأول من جنود الحَسَا في طريقهم إلى الرّياض، لم يكن عددهم أقل من أربعمئة أو خمسمائة. يمشون تماماً مثل باقي العرب الأصليين دون أي تنظيم أوترتيب، يعدون ويمشون ويتمهلون وينشدون ويصرخون، فرادى أو جماعات كالغلام العاشق. تبادلنا بعض كلمات التحية مع هؤلاء الشبّان النشيطين، الذين اعترفوا دون تردّد أو خجل أنهم يتمنون لو أنهم بقوا في منازلهم، وهذا ما يؤكد أن الحاجة فقط هي التي تأخذهم إلى ساح القتال وليس أياً من الحماسة العسكرية أو الدينية. ضحكنا وتمنينا لهم بأن يقطعوا رؤوس زملائهم أو أن يقطع رؤوسَهم زملاؤهم، ذلك الذي أضحكهم أيضاً وتصايحوا وتابعوا طريقهم.

«تابعنا طريقنا قدماً، ولكن عبر أراض ذات مناظر مختلفة عن تلك التي قطعناها في اليوم السابق، واستمتعنا بالبهجة الموجودة على الهضاب والتلال، حتى وصلنا إلى أسفل منحدر أبيض شاهق، يشبه إلى حد بعيد ذاك الذي في دوڤر (Dover) ولكن بدلاً من أن يوجد البحر عند أسفل هذه الصخور الشامخة كانت تطل على وادٍ عريض مليء بالأشجار وتوجد فيه مجارٍ كعلامات لعدة مواسم شتاء قاسية جارفة متجهة من الشرق إلى الغرب، ولكن لا يجري أيٌّ منها الآن. استقرّينا هنا وأمضينا ليلة عادية، وكان أكثر شيء مزعجاً قشعريرة شهر نوفمبر الأكيدة، كان أقل سوءاً هنا من ضفاف نهر آيير (Ayr) على الرغم من كوننا عند خط العرض 25 درجة وليس 56 درجة.

«كنا قد استيقظنا وبدأنا المسير، قبل أن يتلاشى ضوء النجوم من سماء الصباح البارد، وذلك لطول المسافة التي كانت أمامنا، وعند شروق الشمس وقفنا فوق آخر وأعلى قمّة من قمم جبل طويق، هذه الجبال الطويلة تشكل جداراً كلسياً يحيط بنَجد

ويسنده من جهة الشرق، وفيما وراءه توجد الصحراء وبعدها الساحل.

«بعد ثلاث ساعات من المسير على طريق مسطح بدأنا بالنزول، ليس سريعاً ولكن بضع درجات، ووصلنا عند الظهيرة إلى مكان وحيد مجوف في سطح الأرض، إنه حوض طبيعي ضخم، حُفِر في الصخر الكلسي، مع علامات تشبه خنادق عميقة تؤدي جميعها إليه من كل جانب. في قاع هذه الحفرة التي تشبه فوهة البركان كان يوجد حزمة أو أكثر من الينابيع، وهي ذات تدفق غزير جداً ولم تكن غالباً تفيض على المكان، وبحيرة صغيرة كانت الماء فيها صافياً وجيداً، ولكن لم يكن يوجد غيره على طول الطريق من هنا وحتى الحَسَا.

«تابعنا مسيرنا بقية اليوم بنزولنا البطيء على هذا المنحدر الذي كان قاحلاً للغاية وغير حيّ ومملاً، فذكَّرني بالمرتفع المفروش بالحصى بالقرب من مَعان على الجانب الآخر من شبه الجزيرة، الذي عبرناه تماماً قبل سبعة أشهر من الآن. حان وقت المغيب، وجاء وقت المساء، فودَّ الكثير من المسافرين أن يستريحوا ولكن أبا عيسى أصرَّ على متابعة المسير، كنا هنا على بعد بضعة مئات من الأقدام تحت القمّة التي كانت خلفنا، وكان الهواء دافئاً وثقيلاً، عندها لاحظنا أن الأرض التي ما زالت حتى الآن قاسية تحت أقدامنا بدأت تتغير خطوة بعد الأخرى إلى رمال خفيفة، تتسلل على الأرض الصخرية. كانت في البدء رقيقة وضحلة، ومن ثم عميقة، قبل أن تظهر التموّجات والتلال الصفة المميزة للأرض وعندما يصبح عمق الرّمال عدة وحدات قياس. كانت دوابنا تخوض الأرض بصعوبة في هذا السطح الطري، وكانت الليلة معتمة ولكن ذات نجوم، وكنا نرى بصعوبة وسط هذه العزلة ومضات بيضاء لأطياف الكثبان الرّملية مرتفعة حولنا من كل الجوانب، ولكن لا أثر أو إشارة لأي طريق.

«كانت تلك هي الدَّهناء الكبرى، أو الصحراء الحمراء التي هي مصدر خوف حتى للبدو الرُّحّل، ولم يعبرها قبل أي عابر سبيل عادي قط دون أن ينتهي به الأمر على الأغلب إلى حادث مميت. إن الرّمال خفيفة جداً وهبّات الهواء دائمة التغيّر هي التي تشكلها وتعيد تشكيلها مرة أخرى يومياً إلى هضاب ووديان غير مستقرّة، ولا يبقى

أيّ آثار لمسافرين سابقين ليتبعها المسافرون اللاحقون، في حين أن الحرارة الشديدة والشمس الساطعة تنعكس على كل الجوانب مشكلة قحطاً وضيقاً يربك المغامر ويحيّره، حتى يفقد اتجاهاته ويهيم صاعداً هابطاً بشكل عشوائي وسط عزلة كبيرة ستصبح قبره عمّا قريب. هلك الكثيرون بهذه الطريقة، حتى إن قافلة بكاملها عُرف أنها اختفت في الدهناء دون أي أثر، لا بل إن القصص الشعبية العربية عن الأرواح الشريرة حملت قصصاً عن غرباء أو غيلان التهمتهم، نجمت عن نصف التصديق من بين الكثير من العادات في مكان آخر للضحك على مثل هذا الخيال.

«وبعد حوالي ثلاث ساعات من السفر في الليل أو بالأحرى الخوض في التموجات الرّملية، إلى أن كانت الدواب والرّجال على حد سواء جاهزين للغوص من الإرهاق، نشب نزاع حاد بين أبي عيسى وراعي الغنم، حيث راح كل منهما يقترح اتجاهاً مختلفاً للمسير. وقفنا كلنا دقيقة، ورفعنا أعيننا الثقيلة من الدوّار والتعب، وذلك لنرى أيّ الفريقين المتخاصمين كان على صواب. سأستغرق وقتاً طويلاً كي أنسى الانطباع الذي شعرتُ به في تلك اللحظة. كانت توجد فوقنا سماء سوداء عميقة، مرصّعة بنجوم ضخمة متألقة تاركة الجميع ومحدّقة بالعرب، بينما كان في مكان آخر شعاع من شيء ضخم ثالث يأتي هنا ليصبح الأول بين الفراغ الصافي المليء بالضباب والهواء الجاف، وتتراءى فيما حولنا تلال عالية، تطبق علينا ببياضها من الأمام والخلف مشكلة حدوداً خارجية لأشكال كالأشباح، وتحت أقدامنا الرّمال الميتة، بينما كان الصمت الذي يرين في كل مكان وكأنه ينتمي إلى بعض العوالم الخيالية الغريبة التي لا يمكن للإنسان أن يصل إليها.

«هذه هي الصحراء الكبرى من نَجد إلى حضرموت. وفي الحقيقة هم لا يعدّون هذا المكان الشاسع ربعاً كبيراً من شبه الجزيرة، لأن لديهم المجال الحرّ وغير المتنازع عليه من الواحات التي نادراً ما توجد، حيث الأعشاب والشجيرات وأقزام النخيل توجد فيما حول بعض الينابيع ذات المياه الشحيحة والمالحة. هذه الواحات متعدّدة وكافية لتحمي بدوياً شارداً أو اثنين من البرودة، كما أنها ليست كافية لتكوّن علامة

حدود لأي طريق نظامي يعبر منتصف الدَّهناء، ومن الجسم الرئيس تتفرّع ذراع طويلة وعريضة وهي التي كنا نقطعها الآن.

«إنها ليلة تخييم أخرى، فوق السهل الأبيض المنحدر مرة ثانية.

«كان قد مرَّ ثلاثةُ أيام ونصف منذ آخر مرة زُوِّدنا فيها بالماء، وكان أبو عيسى متلهفاً للوصول إلى نهاية الرحلة دون تأخير. وعندما أحاطتنا العتمة كنا قد وصلنا إلى أبعد ارتفاع من أراضي الحَسَا. هنا أطلينا على سهول الحَسَا، ولكننا لم نستطع تمييز أي شيء من خلال الأشعة الخادعة لشروق القمر، وكأننا كنا ننظر إلى محيط كبير حليبي اللون. بعد ساعة من الراحة تناولنا فيها طعام العشاء عدنا للتجوال، فتارة نصعد وتارة نهبط فوق الممرّات والصخور الشامخة، إلى أن نزلت بنا درب لولبيّة (Corkscrew) طرف البحر شديد الانحدار من الجبل، لما يقارب الألف قدم، ووضعتنا تماماً فوق المستوى المنخفض للحَسَا، ومع الدفء، والهواء الرّطب الآتي من شط البحر.

«شعَّتِ الأرض باللون الأبيض من القمر، وأعطت أساساً متيناً لجمالنا، التي جدّدت خفة حركتها، والتي كانت تتشاطر الفرح مع ركابها على الأكثر، وتفهم أن الباقي أصبح قليلاً. كنا كلنا في الحقيقة متشوقين لنجد أنفسنا في بيت ومنطقة مأهولة، على الرغم من أن مدينة الهفوف التي هي هدفنا المقصود، كانت على بعد خمسة عشر ميلاً باتجاه الشمال الشرقي، فتابعنا بجدّ للوصول إلى المدينة. كان يجدر بنا في الحقيقة الوصول إلى هناك جميعاً سالمين قبل الفجر، وحتى الآن لم تكن قد حدثت أيّة حادثة عادية واحدة لتأخر العدد الكبير من أصحابنا.

«منعتنا بعد فترة قصيرة الصخور الشاهقة التي خلفنا من رؤية الصحراء ومنتصف جزيرة العرب ربما لسنين أو ربما إلى الأبد، بينما كان أمامنا وما حولنا تمتدّ التموّجات غير الواضحة والقطع الصغيرة من سهل الحَسَا (الأحساء) الكبير، في حين وعلى الضفة المزحلقة على بعد مسافة قصيرة إلى الأمام تبيّن لنا جزء من رقع سوداء كبيرة، وهي ذات تباين قوي في الألوان مع البياض البرّاق للأرض المحيطة، وفي الوقت نفسه جذب انتباهنا المرور السريع والغريب لزنبور، كان بالقرب على موازاة الأرض، بينما

كانت جمالنا تقفز مجفلة وكأن ضرباً من الجنون قد أصابها. سبب كل هذا كان جماعة كبيرة من الجراد، ظهرت عن شمالها تتجول من مكان ولادتها في الدَّهناء، كانت قد امتدت بعيداً وبشكل عريض وقد كنا أزعجنا طلائعها. تستقرّ هذه الحشرات عادةً على الأرض بعد غروب الشمس، وهناك تصبح نصف مخدّرة بسبب قشعريرة الليل، فتنتظر أشعة الصباح، التي تدفئها مرة ثانية وتعيدها إلى الحياة والحركة. عملت جمالنا عمل الشمس في هذه المرة، ومن الصعب القول أيهما كان الأكثر خوفاً، الجمال أم الجراد. كان فعلاً شيئاً مضحكاً أن نرى دابة ضخمة تفقد اتزانها بسبب الخوف من حشرة لا حول لها ولا قوة، حتى إنها لا تلسع، فمن بين كل المخلوقات لا أحد يوازي سفينة الصحراء في جبنها.

«إن مجموعة الحشرات التي أمامنا كانت هبةً من الله لأصدقائنا العرب، لا يمكن تجاهلها بأي وضع.

«إن العطش، الإرهاق، كل هذا كان قد نُسي، وقفز الراكبون من ظهور الجمال الجافلة، هذا يفرش عباءته، والآخر يفرش خُرج السّرج، والثالث يفرش قميصه، فوق مخلوقات تعيسة الحظ لوجبة اليوم التالي. طار بعضها بعيداً مقرقعاً من خلال أقدامنا، وأُمسك البعض الآخر منها واحتُجِز داخل الثياب والأكياس. فعربة لمّ الأنقاض في كورنيش (Cornish) أثناء عملها في لمّ أنقاض سفينة كبيرة لا تعادل همّة راعي الأغنام وأصحابه في لمّ الجراد.

«من ناحية أخرى شعرت أنا وبركات بعدم الاهتمام في عملية الصيد، ولم يكن لدينا تلك الرّغبة بأن نحوّل ملابسنا وتجهيزاتنا إلى أوعية لألعاب صغيرة حية.

«ما يزال أبوعيسى لحسن الحظ محتفظاً بنسبة جيدة من ثقافة شمال سوريا ليحمل أفكارنا نفسها أيضاً. وبناء على ذلك تركنا زملاءنا منهمكين في العمل، وحوَّلنا جمالنا الجافلة التي ما زالت بمراس صعب باتجاه الهفوف، وانطلقنا بسرعة قصوى فوق السهول.

«لـم يكـن قد اقتـرب النهار بعـد حينما رأينـا أمامنا في صـف غير واضـح المعالـم خطوطاً سـوداء طويلة من بسـاتين التمر الكبيرة التي تحيط بالهذوف. ومن ثم افترشت الأرض بمـزارع الأرز والـذرة، وتركنـا على يميننـا قلعة معزولة (ويمكـن وصفها في ضـوء النهار) واجتزنا بعض المنازل المبعثرة مع حدائقها، مقتربين من أسـوار المدينة المحطمـة، ودخلنا من البوابة الجنوبية، التي كانت مفتوحةً وغير محروسـة. بعد ذلك ببضع شوارع ظهر أمامنا باب منزل أبي عيسى، مكاننا المقصود للراحة.

«كان الوقت ما يزال ليلاً، كان كل شـيء صامتاً في الشـارع والبيت، وعند المدخل الـذي وقفنـا عنده، فعـلاً لم يكن هناك أحد غير سـيّد المنزل يسـتطيع أن يفكّر في قرع الباب في ساعةٍ كهذه، ولـم يكن قدوم أبي عيسى متوقعاً في هذه الساعة المحدّدة.

«اسـتطاع بكثير من الصعوبة أن يوقظ السـاكنين، وبالقرب سـمع صوتاً لسـيدة كان حـاداً وممزوجاً بنبرة سـعادة وترحاب، وأخيراً فُتح الباب، ودعانا أبو عيسـى إلى ممرّ مظلم، حيث كان المشـعل الزيتي تقدماً ملحوظاً، وبه قادنا إلى القهوة. هنا أشـعلنا ناراً وبعد وجبة طعام خفيفة وسـريعة، ذهب الجميع إلى النوم، ولم يسـتيقظ أحد إلى قبل ظهر اليوم التالي».

* * *

الفصل السادس عشر

رحلات پالغريف - غرب جزيرة العرب

«كانـت إقامتنا في الهفوف ممتعةً ومُسـرّة للغاية، ولـم نخُض في حوادث شـخصية وهـروب صعب، كالقصص التي حصلت معنا فـي الرّياض وفي أماكن أخرى، ولكننا خضنا في معلومات مكتسـبة هنا، وشـخصية رواية لكل شـيء ممـا حولنا، من طبيعة، أو فـن، أو إنسـان. كان أبو عيسـى متلهفاً جداً لنـرى أكبر قدر ممكن مـن البلد، وجهَّز لنا كل الوسـائل المطلوبة لفعل هذا، بينما كان السـقف الذي على سـطح بيته والحذر الـذي اتخذه أو اقترحه منع عنا كل أخطار أو مضايقات كالتي تعرضنا لها في المراحل السـابقة من الرحلة. إلى جانب أن الطباع العامة لسـكان الحَسَـا مختلفة جداً عن طباع النـاس الذيـن قابلناهم فـي نَجد وحتى في شـمَّر والجوف، فطباعهم هنا مهيئة بشـكل أفضل لتجعل الغريب يشعر نفسه وكأنه في بيته. كان سكان ساحل البحر يتطلعون إلى أراضٍ أجنبيـة والمحيط للمعيشـة والتجـارة، فمن العادة أن ترى فيما بينهم باسـتمرار أناسـاً مختلفيـن عنهم بالملبس وأسـلوب العيـش والتديّن، كان كثيرٌ منهم قد سـبق له السّـفر أو الارتحـال إلى البصرة وبغـداد والبحرين وعُمان، وحتى إنـه يوجد منهم من سـافر أبعـد من ذلـك، إنهم عـادة أحرار مـن ذلك الشـعور نصـف المتعجب ونصف الشـكاك الـذي يصادفه الغريب في الوسـط المعـزول المطوّق بالصحـراء. باختصار، فـإنَّ الخبرة هي مـن أفضل المعلمين والتـي تكفي لتُخلّص الناس مـن دروس الجهل والتعصب، والتخاصم الداخلي.

«تحتوي الهفوف المتسـعة والدائرية خلال الجيل الأخير على ثلاثين ألف نسـمة، تضاءلوا الآن ليصلوا إلى ثلاثة وعشـرين ألفاً أو أربعة وعشـرين ألفاً، مقسمة إلى ثلاثة أجزاء أو أحياء. والجزء العام من المدينة هو ذاك الذي له شكل بيضوي كبير. أما الساحة الشعبية فهي فراغ مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالي ثلاثمئة يارد ومثلها عرضاً، يشكل «الكـوت» نقطة تلاقي هذه الأقسـام التي تمتدّ على شـمالها الشـرقي، و«الرّفعة» على الشمال الغربي والغرب و«النَّعاثِل» على الشرق والجنوب. وفي هذا الجزء الأخير كان يوجـد منزلنا الحالي، وعـلاوة على ذلك، فإنه يقع في أبعد جـزء ممكن من «الكوت» ونفوذهـا الطاغـي، بينما كان أيضاً بعيـداً بما فيه الكفاية من «الرّفعة» الجار المشـاغب جـداً، وهو مركز الحركة ضد الوهابية، الاسـم الذي وحده أثار عـدم الثقة والتمرّد في عقول النجديين.

«إن الكوت بحدّ ذاتها قلعة واسعة، محاطة بخندق عميق، وأسوار وأبراج بارتفاعات وسـماكات غير عادية، مبنية بالطوب، مع مزج داخلي بسـيط من الحجر، وهي من بناء حـكّام القرامطة القدماء، وهي تقريباً مربعة، يبلغ طولها حوالي ثلث ميل وعرضها ربع ميل.

«فـي الجانـب المقابل من المربـع، الذي يصبح تابعـاً للرّفعة، يكون محل السـوق المقبـب أو القيسـارية، الاسـم الـذي يجب من الآن فصاعداً أن يسـمى بـه أيّ بناء من هذا النوع حتى مَسـقط نفسـها، وعلى الرّغم من أن اللاتينية[1] وجدت طريقها عبر شبه

(1) يبتعد بالغريف في تأويل هذه التسمية، فيظن أن أصلها من: Caesarea قيصريّة. وهذه العبارة شاعت في بلاد الشام في القرون الوسطى وانتقلت إلى باقي الأقطار العربية، بغض النظر عن علاقات جزيرة العرب في الماضي بالرّومان أو البيزنطيين. يذكرنا ذلك بعبارة «الفُندُق» Fondaco الإيطاليّة التي تعني: مؤسسة تجاريّة، نسبة إلى الوكالات التجارية التي أنشأتها الجمهوريات البحريّة الإيطاليّة في المشرق بالقرون الوسطى: فلورنسا وڤينيسيا وجنوا. فدرجت تسمية التجار الڤينيسيين في مصر وبلاد الشام «البنادقة»، وسُميت مدينتهم بالتالي «البندقيّة» بدلاً من ڤينيسيا، وما زال هذا الاسم المغلوط قائماً إلى اليوم لم يبادر إلى تصويبه أحد! ثم من جهة أخرى دخلت عبارة «الفُندُق» العربيّة بمعنى النُّزل، وما زالت فيها إلى يومنا هذا.

الجزيـرة إلى أراض كانت لها على ما يبدو بعض العلاقـات التجارية مع الإمبراطورية الرّومانيـة أو البيزنطيـة، لكـن لا يسـعني أن أصدّق هذا بسـهولة. والقيسـارية هذه لها شـكل قنطرة بشـكل برميل طويل مقبب، مع مدخل في النهايتيـن كليهما، أما الأبواب المتمفصلة التي يجب أن تحمي المداخل الموجودة هنا في الهفوف كانت فقد أُزيلت، وربما تكون موجودة في أي مكان آخر.

«تتألـف الجوانـب مـن دكاكين متلاصقة بشـكل عـام، لتجنـب الكلفـة الزائدة، أو علـى الأقل ما يُعدّ هنا مكلفاً، وهكذا ترى الأسـلحة والثياب المطرزة والحلي الذهبية والفضية والحاجيات المشـابهة لذلك متوفرة في القيسـارية. ويلتف حولها عدة أزقة، سُـقفت بسـعف النخيـل لتردّ الحـرارة، وبخصـوص الأشـياء المشـابهة الممكنة، من الممكن أن نرى في المحلات منتوجات البحرين وعُمان وبلاد فارس والهند معروضة للبيع، مختلطة مع المنتوجات المصنوعة محلياً، كما توجد هنا أيضاً مشاغل ومحلات حدادة ونجارة وأكشـاك صانعي أحذية وما شـابه ذلك. كما تقوم في السـاحة المفتوحة نفسها عدّة أكشاك لبيع التمور والخضار والخشب والجراد المملّح وكميات قليلة من أنواع عديدة.

«تغطـي «الرّفعـة» أو الجـزء النبيـل امتداداً كبيـراً، ولعله يمكن أن يشـكل الجزء الأكبر من الأماكن الجميلة للسـكن. ويعود سـبب الأناقة النسـبية فـي الفن المعماري للمسـاكن في الهفوف إلى استخدام الأقواس، فبعد فاصل طويل من معان إلى الحَسَا، عـاد للظهـور أخيراً للتو وأعطى لبناء هذا الإقليم الإشـراق والتنـوع غير المعروف في تلال نجد وشـَّمر الكئيبة والرتيبة. وثمّة تحسّـن آخر وهو أن الأسـوار، سواءٌ كانت من اللِّبـن أو الحجـر أو من خليـط الاثنيـن وهـو السّـائد غالبـاً، قـد كُسـيت هنا بطبقة رقيقة من الجصّ الأبيض، والذي يشـبه كثيراً Chunam المسـتخدم في جنوب الهند، كمـا أنه مزخـرف وخُطّط ليكون علـى المداخـل والنوافذ، وبعض الأحيـان يُرى مثل ذلك.

«أمّـا النَّعائِـل فهـي أكبر الأجزاء، وتشـكل بالفعل نصـف المدينة، وتكمل شـكلها

البيضوي. يوجد فيها كل أوصاف المساكن التي يمكن أن تتوقعها ما بين غني وفقير أو عالٍ ومنخفض أو قصر وكوخ.

«هنا أيضاً بالقرب من الكوت ترى سياسة الموالاة لفيصل لأنَّ فيصلاً بنى المسجد الأكبر.

«ولكن يمكن أن يشعر القرّاء بعد مرافقتي إلى هذا الحدّ بالعطش، بسبب الحرارة وحتى في شهر ديسمبر وهي فعلاً شديدة، والسماء خالية من الغيوم وكأننا في يونيو أو يوليو. فدعونا نتحوّل داخلاً إلى الجانب داخل مزرعة معشوشبة، حيث يوجد نصف حزمة من الجواميس التي ترطب جلودها البشعة من حوض ماء، وتشرب بعض الشيء من الماء الذي يعطيه. إذ يمكن أن نرى الماء دافئاً أو تقريباً ساخناً. لا يدهشنّكم ذلك، فكل ينابيع النوافير والآبار في الحَسَا كذلك، تختلف عن بعضها بالزيادة والنقصان، ففي بعضها من الصعب أن يغطس الإنسان يده فيها، قد تجد آخرين أقل من الحرارة الطبيعية وفوقها، ودون شك فالطعم الكبريتي واضح بين حين وآخر. وفي الحقيقة من أقصى شمال هذا الإقليم نزولاً حتى أقصى حدوده الجنوبية، تجد في كل مكان نفس هذه العلامة على النار الباطنية. وكذلك فإن الصخور البازلتية والبركانية هنا علامة أخرى على القوة البركانية.

«تتمتع منتوجات الحَسَا بالكثرة والتنوّع، فنباتات العرب الرتيبة التي هي النخيل والإثل الدائمان نراها مختلفة هنا، ففيما خلا الإثل والنخيل توجد أنواع أخرى من النباتات غير معروفة في نَجد وشمَّر. أجل نخيل التمر يبقى هو المسيطر ولكنه لا يحقق التميز الكبير. وإذا كان النَّبَق Nabak مع أوراقه الدائرية الشكل وثمار التفاح الصغيرة الحامضة هو الشجيرة الأكثر شيوعاً وسط جزيرة العرب، فهي تغدو في الحَسَا شجرة نادرة، وكذلك فالبَبّاي Papay أيضاً معروفة جداً وفي الأكثر في الجزء الغربي من شبه الجزيرة تظهر بندرة وتتفرع في النمو مع بعض الأشجار الأخرى والمعروفة على الشاطئ من كوتش Cutch إلى بومباي Bombay. والنيلة تُزرع هنا أيضاً ولو أنها ليست متوافرة للبيع أو التجارة. وينمو القطن بوفرة أكثر من اليمامة،

وحقـول الأرز تكثر، وقصب السـكر يزرع غالبـاً، ولو أنني أعتقد أنهم لا يسـتخدمونه لاستخراج السكر.

«يبيـع الفلاحون في الحَسَـا القصب بالحزم في الأسـواق، ويأخذه المشـترون إلى منازلهم ليقضموه في أوقات الراحة في بيوتهم. كما أنّ الذُّرة البيضاء، والذّرة الصفراء، والدُّخـن، والبيقيـة والجُلبـان مـن كل الأنواع، والفجـل، والبصل، والثـوم، والبقول، وباختصـار تقريبـاً جميع أنـواع الحبوب والبقول باسـتثناء الشـعير (أو على الأقل فلم أسـمع أو أرَ أيـاً منـه)، تغطي الحقـول، وتحـت إدارة أفضل يمكن أن تتضاعف عشـر مرات.

«وكما أشرت مسبقاً فطقس الحَسَا مختلفٌ جداً عن ذاك الذي في الأراضي العليا، وليس بنفس النفع للصحة والنشـاط الحركي. وهنا الطبيب مثلي، إذا سـمح لي القراء بتسمية نفسي كذلك، يكون له عمل أكثر وأجر أكبر، أما بالنسبة لموضوع الأجر فيعود ذلـك إلـى وجود مبلغ أكبر مـن المال الجاهز للتـداول، والقيمة الأعلـى توضع للعلم الطبي من الناس الأذكياء الذين هم أكثر ثقافةً من أولئك الذين في نَجد وجوارها.

«بالنسبة للمظهر فسكان الحَسَا بشكل عام ذوو أحجام جيدة ونسب متكافئة، ولكن يوجد بعض الشـحوب في الوجـه، وبنية عضلية أقل من تلك التـي لدى أهل الداخل، وملامحهـم عاديـة، أقـل تحديداً من أولئـك الذين في نجـد ولا تظهر نفـس الملامح نصف السّاميّة. وعلى العكس يوجد فيها شيء ما يذكِّر الناظر إليها براجپوت Rajpoot أو غوجراتي Guzeratee. وهم مولعون جداً بالقصائد والأدب.

«لقد قلت مسـبقاً إن محاولتنا في الحَسَـا كانت بأن نشـاهِد ولا نُشـاهَد، ولهذا كان علينا أن نبقي أوقاتنا خالية قدر ما نستطيع من أي حوادث أو مشاكل. فإذا لم يتيسّر هذا سوف نعود في الاتجاه المعاكس الذي سيقودنا إلى تراجع حتمي وحياة غير مستحبة.

«أخـذ أبو عيسـى من البداية مهمة وصلنا بأفضل وأكثـر العائلات ثقافةً في المدينة، ولـم تأخد مهنتي في الطب صيتاً أوسـع لممارسـتها أو نجاحاً أكبر من الذي أخذته هنا

في الهفوف. كانت هناك دعوات ودّية، مرة إلى العشاء ومرة إلى الغداء وكانت تحصل يومياً، وكنا نجلس إلى طاولات حيث السّمك، وليس الرّوبيان المملح فقط، قد بيّنا مجاورتنا للساحل، وأما فتائل الشُّعيريّة vermicelli وأنواع أخرى من الفطائر، فهي تعطي شعوراً بالمذاق العجمي للطبخ. كان التدخين في الداخل شائعاً، ولكن النّرجيلة كانت في أغلب الأحيان هي البديل، وهذا فيه المصلحة الأكبر، والسيجار العربي القصير. وليست العطور أقل استخداماً من نجد.

«قضينا ما يقارب الأسبوع في المدينة عندما دخل أبو عيسى الغرفة الجانبية حيث كنت أنا وبركات نستمتع بوقت من الهدوء، ونحاول أن ننسخَ قصيدةً نبطية، وأغلق الباب خلفه. وبعدها أعلن لنا بوجهٍ وصوتٍ قلقين جداً بأن اثنين من موظفي مديرية نجد والتابعين للكوت قد وصلا إلى القهوة، تحت ذريعة الاستشارة الطبية، ولكن في الحقيقة ليتعرّفا إلى الغرباء. وضعنا عباءاتنا (وهي المقياس الأول لآداب السّلوك، الذي يوازيه غسل اليدين والوجه في أوروبا) وتقدّمنا أمام باحثينا بهيئة الواعي البريء والعلم المقدس. وتلى ذلك المحادثة، وتحدثنا بشكل علمي عن شكل الشخص السريع الغضب والدموي، وعن العروق الموجودة في الرأس، والأدوية الهندية، مع استشهادات مناسبة جداً من القرآن وبعض الأقوال الملكية لفيصل، وكان أبو عيسى واقفاً بجانبه للمتعة. وبعد أن أخذ الجواسيس بعض الوصفات لطريقة عمل كريّات الخبز bread pill والماء المعطّر، تركوا البيت بالكياسة نفسها التي جاؤوا بها. وأصدقاؤنا أيضاً الذين أصبحوا الآن كُثراً، بدؤوا يتوقعون ماذا عسانا فعلاً أن نكون، يعود جزء من ذلك لشكلنا ويعود جزء آخر إلى الشخصيات المعروفة التي استضفناها (وفقاً لمقولة هوميروس القديمة: الجنّة دائماً تجمع الناس المتشابهين) وقد حاولوا فرادى ومجتمعين بأقصى جهدهم أن يذرّوا الرّماد في أعين الوهابيين، فمضى كل شيء بشكل ودّي وسَلس. فليبارك الله مهنة الطب! لم يكن لأحد مثل هذه الفرص بأن يكون له كل هذا الأمن في كل مكان والثقة والصداقة.

«ينبغي لي قبل أن نترك الحَسَا أن أضيفَ بعض الملاحظات لأتمم الصورة المعطاة

عن الإقليم وعن سكانه. فعدم وجود الفرصة المناسبة سابقاً لإدخالهم، جاء بهم إلى هذا المكان من قصتي.

«ليعلم أعزائي القراء أن الحجابَ والقيود الأخرى المفروضة على الجنس الناعم من التعاليم الدّينية القاسية، ولن أقول أكثر من ذلك، أقل عمومية ويتمّ التغاضي عنها عموماً في الحَسَا. بينما إضافة إلى ذلك فإن سيدات المكان يتمتعن بنصيبهنّ الملحوظ من هبة الجمال الطبيعية، حيث لا يوجد معاهد أو مواد تجميل يمكن أن توفّر لهم ذلك، وأقصد بذلك جمال الوجه والأناقة في القوام. يمكن لي أن أغامرَ بمهمة حساسة ومثيرة بعض الشيء للاستياء وذلك بإنشاء معيار جمال للجزيرة العربية، وفقط للجزيرة العربية، فنساء البدو يكن على الدرجة صفر من هذا المقياس أو درجة واحد على أبعد تقدير، ودرجة واحدة أعلى تمثل نساء نجد، ثم بعدهن تُصنّف نساء شمَّر، واللواتي يتغلبن عليهن نساء الجوف. وتمثل نساء الحَسَا الجميلات الدرجة الخامسة أو السادسة، أما السابعة فتكون لنساء قطر، وأخيراً وبشكل مفاجئ يرتفع المقياس عشر درجات على الأقل إلى الدرجة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة التي تعطى إلى جميلات عُمان المتفوقات على الجميع. نادراً ما ذكر الشعراء العرب الجمال في نَجد بشوق، ولم أر هناك امرأةً فتنتني، ولكنني كنت هارباً وقتها من الإقليم. يحمل الكل شهادةً لغياب النساء الحسناوات في اليَمَن، وينبغي لي أن أحمل شكاً أكبر من أيّ من الاثنين حول العِرق المهجّن والبشرة الغامقة التي لها النصيب الأكبر من التفاخر في حضرموت. ولكن لاحظت في الحَسَا تحسناً واضحاً في هذه النقطة المهمة، والتي هي دليل مقبول للمسافر الواصل من نجد، والذي سيكون بعد ذلك مسروراً ليجد القصائد المحلية (Calypsos) متحدثة وفيها الكثير أيضاً زيادةً عن القصائد اللواتي تتغزّل بأولئك اللواتي تركهنّ وراءه في سُدير والعارض.

«لم يترك أبو عيسى خلال إقامتنا في الهفوف أياً من الطرق المجربة من فنون الإقناع والبلاغة والبيان العربية ليقنعني بزيارة عُمان، مؤكداً لي مراراً وتكراراً بأن كل ما قد رأيناه حتى الآن وحتى في منطقته المفضلة الحَسَا، لم يكن ليقارن بما بقي لنراه في

ذلك البلد البعيد. كان صاحبي متعباً من الرحلة الطويلة، وكان يفكر بالمسافة الطويلة التي تمتدّ بينه وبين بيته السّوري الهادئ والمريح دون تتبع الحلفاء إليه، وكان ميالاً ولكن بشكل قليل جداً إلى رحلة استطلاعية إضافية. أما الرجال الإنكليز على العكس فقد كانوا جوّالين عن طيب خاطر وبحكم العادة، وكنت شخصياً قرّرتُ حينها أن أزورَ عُمان وأن أتحمّل كل المخاطر المرافقة لذلك، سواء أتى بركات معي أو لم يأتِ. في هذه الأثناء كنا قد وضعنا خطتنا للمرحلة المقبلة من طريقنا. سنغادر أنا وصديقي الهفوف سوية، تاركين أبا عيسى وراءنا لفترة أسبوع أو أسبوعين في الحَسَا، بينما نكون قد تجولنا شمالاً إلى القطيف، وهناك نستقلّ سفينة إلى مدينة المنامة في البحرين، المكان الذي سنجتمع فيه بأبي عيسى. كان سببنا الأساسي من فصل تحركاتنا في الزمان والجهة أن نتجنّب ظهورنا الواضح وأن نتصرف بحكمة، إذ أننا ماكنا نزال في أرض تحت سيطرة الحكومة الوهابية الحافلة بالعيون والمراسلين الوهابيين، خاصة بعد التهديد الذي تلقيناه في الرّياض. وكانت ترتيبات السفر إلى عُمان قد أُجِّلَتْ حتى نلتقي ثانيةً.

«جهزنا نفسينا أنا وبركات للرحيل، واشترينا عدّة حاجيات من التحف المحلية، وأخذنا متطلبات العناية الطبية، ودفعنا واستلمنا PPC المعتاد للزوار، وحتى قدّمنا احتراماتنا إلى بلال الحاكم الحبشي، في المكان الذي كان يجلس فيه عند باب القصر في الكوت، الذي كان يبقى مع الناس العاديين، والذي كان يبدو مثل أي أسود آخر ذا لباس جيد. لم يكن جواز سفر مطلوباً لنخرج إلى طريق القطيف، والتي تشكل في عيون الحكومة إقليماً واحد مع الحَسَا، على الرغم من اختلافها عنها بكثير من الجوانب.

«كان الطريق آمناً بشكل مثالي، فالغزاة البدو وقاطعو الطرق ليس لهم أيّ وجود هنا. ولكن على كل حال كنا بحاجة لأصدقاء وأدلاء ولسنا بحاجة إلى حماية. جعل أبو عيسى يسأل في المدينة فوجد ثلاثة رجال صادف أن يكونوا على استعداد لشق طريقهم إلى القطيف، وقد وافقوا بسهولة على أن ننضمّ إلى فرقتهم. زوّدنا مضيفنا

الحبشي بكيس مليء بالمواد التموينية، وتدبّر أصحابنا في الهفوف لنا جِمالاً، وهكذا أصبحنا مزوّدين بالزاد وبالركائب، نلنا وداعاً مؤثراً من زوجة أبي عيسى اللطيفة بطبعها، وقبّلنا الولد الصغير، وتبادلنا عبارات – إلى اللقاء – مع أبيه وبدأنا رحلتنا بعد ظهر يوم التاسع عشر من ديسمبر، تاركين وراءنا الكثير من المعارف اللطفاء، الذين قد تسلّمتُ من بعضهم رسائل بينما كنت في البحرين. إلى الآن ومن ناحية السكان ليس لدي أيّ شك إن أنا عدتُ إلى أي مدينة في جزيرة العرب فلن أجد التحيات الحميمة نفسها والاستقبال الحافل كالذي وجدته في الهفوف ومن تجارها الودودين الأذكياء.

«خرجنا من المدينة من البوابة الشمالية الشرقية للرّفعة، حيث كان أصدقاؤنا وفقاً للعادات العربية قد ساروا حتى هذا البعد، وتمنّوا لنا رحلة موفقة، وألقوا علينا كلمة الوداع الأخيرة، وعادوا إلى منازلهم. بعد عدّة ساعات عسكرنا فوق تلة صغيرة من الرّمال النظيفة، وكان على يسارنا يظهر في الأفق خط غامق هو غابات الهفوف، بينما كان أمامنا ينبوع غزير يفض بمائه العذب بسرعة وبصوت ضجيج مميّز ومسموع بوضوح في سكون الليل، ويروي حديقة تساوي حدائق دمشق أو أنطاكية. كان هواء الليل معتدلاً، ليس بالبارد كما في نَجد ولا بالخانق كما في جنوبي الهند. السماء صافية ومرصّعة بالنجوم. فمن موقعنا العالي على الهضبة كنت أستطيع أن أميّز نجم سهيل، حيث ظهر الآن، ويتبعه وليس بعيداً عن الأفق، الأنجم الثلاثة العليا من الصليب الجنوبي Southern Cross المعروف لدى الهنود القدماء، وبعد شهرين في عُمان كان لي أن أرى منظر كامل البرج.

«في صباح اليوم التالي قطعنا سهلاً كبيراً تكسوه تربة رملية وخفيفة، وتتخلله بضع تلال متكونة من الصخور البازلتية والصخور الرّملية.

«استمرينا في المسير طوال اليوم، لم نلتق خلاله أي بدوي ولكن التقينا بعضَ المسافرين. وعند المساء خيّمنا في وادٍ قليل العمق، بالقرب من مجموعة آبار ممتلئة، بعضها عذب والآخر أُجاج، حيث كانت آثار مجاري المياه شبه الممسوحة وعلامات جدران المنزل المحطمة تدل على وجود سابق لقرية وهي الأخرى الآن مدمّرة.

أمضينـا ليلـة مريحـة تحت حماية النخيـل والشـجيرات العالية، المختلطـة مع نباتات الصبّـار الضخمة واليـوكا Yuccas ونهضنا باكراً في صباح اليـوم التالي لنتمم طريقنا. كان اتجاهنا شـمالياً شـرقياً. فـي مـا بعـد الظهر لمحنـا أول نظرة سـريعة لجبل مشهر Djebel Mushahhar ذي القمـة الهرميـة التـي يبلـغ ارتفاعهـا ما يقـارب السـبعمئة قـدم، والذي يقـع علـى بعد حوالي عشـرة أميـال مـن القطيـف. ولكن البحر وعلى الرغم من أننـي نظـرت باتجاهـه وبحثـت عنـه بلهفـة تشـابـه إلى حدّ ما لهفة عشـرة آلاف رجـل عنـد اقترابهـم من البحر الأسـود، بقي محجوبـاً عن الأنظار بسلسـلة من الارتفاعات.

«فـي اليوم التالي صحونا عند الفجر، وقطعنا هضاب القطيف من خلال ممرّ طويل ملتفّ، ثم بعد بضع سـاعات من السـير في دروب كالمتاهات وجدنا أنفسـنا أمام خط زراعي غامق يحيط بالقطيف نفسـها، الأرض المقصودة. كان البحر يمتدّ مباشـرة فيما واء ذلك، هذا الذي كنا نعرفه، ولكننا لم نستطع أن نحصل على نظرة سريعة إلى مياهه من خلال الحُجب الخضراء الممتدة فيما بيننا.

«نزلنـا فـي حوالـي منتصف النهـار آخر المنحـدرات، وقـد كان شـديد الانحدار، ويتكـون من صخور رمليـة، وكان يبدو وكأنه حدّ البحر في فترة سـابقة. إننا نقف الآن علـى السـاحل بحدّ ذاته، فمسـتواه قريب جداً من مسـتوى الخليج الـذي وراءه، بضع أقـدام من مدّ أعلى مـن العادي يمكن أن يغطيه حتى المنحدرات. من هنا ودون شـك تكون الأرض غير صحية، وعلى الرّغم من أنها خصبة وكثيفة بالسـكان، فإنّ السـكان غالبـاً ضعفـاء القوام وشـاحبو الهيئـة. كان الجـو العام ثقيـلاً وظالماً، كانـت الحرارة شـديدة، والحيـاة النباتية تنمو بوفرة وكثافة، تحدّث أصحابـي عن الاختناق، فتذكرت مرة أخرى السـاحل الهندي. أفضت بنا سـاعة أخرى من المشـي في ما بعد الظهر إلى القطيـف بحـدّ ذاتها، من بوابتها الغربية، التي لها قوس حجري عالٍ مبني بشـكل أنيق، ومحاط بأسـوار وأبـراج، ولكنها كلها مفككة ومهدمة. وبالقـرب منها توجد مقبرتان، واحدة للناس على الأرض والأخرى لحكام نجد، والمسـتعمرة مقسمة حتى فيما بعد

الموت بين كره متبادل وحرمان. هذه حماقة، إذا أردت، ولكنها ليست حماقة يختص بها الشرق وحده فحسب.

«المدينة بحد ذاتها مكتظة، رطبة، ووسخة، وتوحي بشكل عام بالكآبة، وكأحسن نعت يمكن أن توصف به أستطيع أن أصفها بـ «العفنة» *mouldy*. كانت تدار الكثير من الأعمال في شوارع السّوق، ولكن الهيئة غير الجميلة وغير العربية لدى أصحاب المتاجر والعاملين يؤكد ما يقول التاريخ عن الاستعمار الفارسي لهذه المدينة. حقاً فسكان المنطقة كلها ولكن على الأكثر سكان العاصمة ذوو عِرق مهجّن، حيث يغلب الدّم الفارسي، ممزوج مع ذاك الذي من بصرى وبغداد والعراق.

«كنا نلحّ على جمالنا الجافلة بأن تعبر الساحة المفتوحة مقابل السوق، وقطعنا المدينة على عرضها الذي هو أقل بقليل من ربع طولها (شأنها كشأن مدن الساحل) حتى خرجنا من البوابة المقابلة، وبعدها نظرنا بعيون شرهة إلى البحر، الآن وعلى مسافة أقل من عشر دقائق. وإلى الآن دون جدوى، تمتدّ الأرض منخفضة جداً ومجموعة سميكة من الأشجار. ولكن بعد لفة أو لفتين وصلنا إلى الأسوار الخارجية، التابعة لحصن قرموط Karmoot الضخم، ويوجد بعده مباشرة وادٍ مفتوح أرانا تقريباً عند أقدامنا سطوح الخور الضّحلة الميّتة. كم تختلف هذه المياه عن المياه البرّاقة في البحر الأبيض المتوسّط، التي تلتمع وتمور بالحياة، عندما ودّعناها قبل ثمانية أشهر في غزّة! أمّا هنا فالمياه تبدو كلوح رصاصي، نصفها راسبة ونصفها الآخر حشائش مائيّة، وكان البحر الموحل يمتدّ في المنظر عديم الموج وعديم الحركة.

وعلى يسارنا أسوار قلعة عالية خربة تقريباً تمتدّ حتى طرف الماء، وبعدها تحولت لتترك أرضاً مستوية ضيقة بين دورتها وبين الخليج. اصطفت على هذا النتوء بعض الأسلحة من القياس الكبير، لتظهر كم كان المكان يوماً ما محمياً، ومباشرة مقابل البوابة الرئيسية، هناك حصن خارجي خرب، يمكن لقذيفة مدفع واحدة أن تسوّيه بالأرض، وتظهر ست قطع من سلاح المدفعية كقرص العسل، أفواهها متجهة باتجاه البحر. وتوجد في الخارج مقاعد حجرية طويلة رابضة على الأرض دعتنا لنترك

جمالنا ونستريح قليلاً قبل أن نطلب إلى الحاكم أن يمنحنا يوماً من الاستضافة، وإذناً للمباشرة بالذهاب إلى البحرين.

«جلسنا أنا وبركات لننظر ونتأمل في الاختلاف بين طرفيَ جزيرة العرب، ولكن مقارنتنا، كالعرب الأصليين، كانت في وقتها المناسب لاستعادة النشاط، وبناءً عليها بدأت تساؤلاتهم عند بوابة القلعة، حيث يمكن أن يكون الحاكم موجوداً، وعلى أيّة حال كنا سنتكلم معه. عندها شاهدنا! ممثل جلالة الملك فيصل يأتي بشخصه من قصره ليزور رجل البحرية الجديد. سيسرّ أصدقائي الذين هم ضد مبدأ الاسترقاق ليعلموا أن صاحب هذا المقام الرفيع ليس بأقل من كونه من الهفوف، فهو زنجي، ارتقى من ولد مؤذٍ ذي شعر أجعد إلى أسود ذي شعر كالصّوف في قصر فيصل نفسه، وهو الآن حاكم لأهم مرفأ نجدي على الخليج العربي، ولمدينة رئيسة لهذه السلالة الحاكمة المطلقة التي سوّت الحصون بالتراب وملأت القطيف بغنائم الغزو من اليمن وسوريا. وأبعد من ذلك لأعطيه اسمه المناسب، الشائع فيما بين هؤلاء الذين هم على شاكلته، كان زنجياً أسود فيما يقارب الخمسين من عمره، ذا طبع حسن، كثير الكلام، مضياف، ولعلّه يحظى ببعض شيء أكثر من متوسط ذكاء زنوج.

«كان لدى أبي عيسى أصدقاء ومعارف في كل مكان، ولديه طريقة محبّبة جعلته دائماً الشخص المحبّب المميّز للزنوج سواءٌ كانوا من علية القوم أو الدّون، وكان قد زوّدنا برسالة تعريف إلى فرحات، بقصد جعل الأمور أسهل في طريقنا القادم. ولكن عندما وصلنا إلى هناك كانت الأمور تحتاج إلى قليل من الحذر. كانت المصادفة سعيدة الحظ للريح القوية الشمالية، إذ كانت قد هبّت في الخليج، معطية سبباً مريحاً لعدم المباشرة بالصعود على سفينة البصرة، بينما حوّلت الرحلة إلى البحرين، مقصدنا الحقيقي، معقولة وسهلة على حدٍّ سواء. إلى جانب أن فرحات بحد ذاته الذي كان شخصاً جيداً وسهل التعامل، قد فتح بصعوبة رسالة أبي عيسى، وبغير ضجّة قدم لنا ترحيباً قلبياً، وأمر أن تحضر أمتعتنا إلى داخل حدود القلعة، وطلب إلينا أن ندخل ونأخذ فنجاناً من القهوة، بانتظار عودته من محادثة أخرى بعد زيارته اليومية للتفتيش

على اسطول فيصل المختصر.

«مضى جزء من اليوم التالي في قهوة فرحات، وجزء في التنزه حول القلعة والمدينة والبساتين والشاطئ، وطُرحت في الوقت نفسه بعض التساؤلات حول القوارب والبحّارة.

«كان الوقت عند الظهيرة عندما التقينا بقبطان سفينة جاهز للإبحار في الليلة نفسها، في حال سمحت الرياح والمد والجَزر بذلك. كان رجال فرحات قد تكلموا معه، وكان جاهزاً لأن يأخذنا معه على متن السفينة. حينها دفعنا الرسوم المستحقة إلى موظف مكتب الحدود لنخلّص ذممنا كأشخاص وبضائع. كبير الموظفين هذا من المعاشر Ma'asher، سواء باتباع الأوامر من فرحات أو برغبته الشخصية، لا أعرف، أبدى لطفاً مطلقاً، وأكّد أن أخذ قطعة نقد بريطانية Farthing ضريبة على مَن يشتغل بمهنة عامة كالأطباء، يُعدّ «شين وخَطا» (أي عيباً وخطأ)، وللأسف فإن موظفي مكاتب الحدود الأوروبية قد أميط عنهم منذ زمن بعيد مثل هذا الكرم والأخلاق الوطنية!

«وزوّدنا أخيراً، وبكامل إرادته برجال ليحملوا أمتعتنا خلال الماء الذي يصل إلى الركبة والطين الذي يصل إلى الفخذ حتى القارب الصغير، الذي يوجد على بعد خمسين ياردا من الشاطئ. حلّ المساء الآن وأرسل لنا فرحات ليهنئنا، مبدياً أسفه بأدب على السرعة في إيجاد وسيلة نقل لنتمم رحلتنا. وفي الوقت نفسه فهمنا كيف أنه شخصياً كان مدعوّاً للعشاء في هذا المساء لدى تاجر ثري من تجار المدينة، وبأنه كان من المتوقع حضورنا إلى الحفلة، ولا حاجة لهذا أن يجعلنا قلقين على مسارنا، بما أن قائد سفينتنا كان أيضاً مدعواً، ولا يمكن للسفينة أن تبحر قبل المَد الأعلى عند منتصف الليل.

«عدنا من عشائنا في المدينة على ضوء مشعل إلى القلعة، كانت أمتعتنا والتي لم تكن بذاك الوزن الكبير، قد أُخذت إلى أسفل صوب بوابة البحر، حيث وقف رجلان من رجال القبطان بانتظارنا. نزلنا برفقتهما إلى الشاطئ وخُضنا بعدها في المياه ولباسنا مرفوع حتى الخصر حتى وصلنا إلى السفينة، ولم يكن هذا بغير صعوبة، وذلك لأنّ

المـدّ كان يأتـي بسـرعة، وكان علينا تقريباً أن نسـبح بسـببه. وصلنا أخيراً إلى السـفينة وتسلقنا عالياً طرفها، وكنت بغاية السعادة أن أجد نفسي في البحر مرة أخرى من الجهة الأخرى لجزيرة العرب».

* * *

وصـل پالغريف بعد رحلة بطيئـة لثلاثة أيام إلى البحرين، التـي هي المركز الرئيس لاسـتخراج اللؤلؤ، فاستقرّ في مدينة صغيرة تسمى المحرّق، لينتظر وصول أبي عيسى قبل الشروع بتنفيذ خطة استكشاف عُمان. استمتع ورفاقه بشعور عظيم بالراحة والأمان فـي هـذا المرفأ فيما بيـن البحـارة، الذين هم على علـم جيد بكل جنسـيات الأجانب المتنوعة، والذين ليس لديهم أيّ تحيز، ولـم يشعر بأيّة شبهة.

«وصل أبو عيسى في يوم التاسع من أكتوبر 1863، وبعد مشاورة جدّية تبنينا الخطة التالية: كان أبوعيسـى سيرسـل عشـرين جِملاً من أحسـن أنواع تمور الحَسَـا، وعباءة جميلـة، هدايـا إلى سـلطان عُمان، مـع ثلاث عبـاءات إضافية للرؤسـاء الثلاث الذين يتقاسمون ما بين البحرين ومَسقط».

كان پالغريـف ليرافق هـذه الهدايا، تحت شـخصيته كطبيب ممـارس لطلب بعض الأعشاب المعينة والنادرة والغامضة في عُمان. في الوقت ذاته أخذ أبو عيسى وبركات طريقهمـا إلى بوشـهر في بـلاد فارس، حيث في السـابق يمكـن أن يعيّن لثلاثة أشـهر لتجهيز القافلة التالية للحج إلى مكّة. وهنا كان پالغريف سينضـم إليهما بعد رحلته.

كان سـيحلّ مـكان بركات زميله وهو يدعى يوسـف، كان أبوعيسـى قـد أنقذه من التعاسـة وأبقـاه في وضع محتـرم. كان مواطننا أصلياً في الحَسَـا، نصف مهرّج ونصف محتـال، مازحـاً، متهـوراً، غبيـاً لأبعـد الحـدود، يعرف الكثيـر من النكـت والقصص المثيرة، ومن الشـعر والتقاليد، والمرح بكل مواصفاته. وبعدما كان كل شـيء قد رُتّب بيـن الشـركاء الأربعة، شـرع پالغريـف وصديقه الجديد فـي الإبحار إلى مينـاء البديّع ‘Bedaa على السـاحل العربي، حيث أقام أول الرؤسـاء الثلاثة والذي كانت حمايته

مهمة للأمن. وصلوا إلى هناك بعد رحلة بحرية دامت خمسة أو ستة أيام، حيث وجدوا المكان قاحلاً جداً ومهجوراً ووجدوا قلّةً من الحدائق أو الأشجار، ولكن كما قال الرئيس لپالغريف «نحن جميعاً من أعلانا شأناً إلى أقلنا شأناً، عبيد لسيد واحد، هو اللؤلؤة».

يحتوي الخليج على أفضل منطقة لاستخراج اللؤلؤ على طول الساحل، وتعتمد المدينة في وجودها على تجارة هذه الجواهر.

كان الرئيس ذكياً وودوداً، وبدا أنه لن يتدخل بأيّة عقبة للرحلة المقترحة في الداخل، ولكن پالغريف قرر أن يتابع عبر البحر إلى مدينة الشارقة، في الطرف الشمالي من شبه جزيرة عُمان. فركب السفينة مرة أخرى في السادس من شهر فبراير، كانت رياح عاتية هي التي تقود السفينة قاطعة إلى الساحل، ومضت عشرة أيام قبل أن يكون من الممكن الوصول إلى الشارقة. هنا أيضاً وعلى الرغم من أن استقبالهم كان مضيافاً، ترك المسافرون مكان وصولهم مرة ثانية وركبوا سفينة أخرى ليتجوّلوا فيما حول شبه الجزيرة عبر مضيق هرمز، وحطّوا على الساحل الشمالي في منطقة مسقط.

ووصلوا خلال ثلاثة أيام إلى جزيرة هُرمز، التي قال عنها پالغريف: «لم أكن آسفاً أبداً لتكون لي الفرصة بزيارة جزيرة كانت معروفة بتجارتها، والتي كان محتلوها البرتغاليون اعتادوا على القول بأنه: «إذا كان العالم خاتماً ذهبياً فهُرمز تكون ماسة الختم فيه». يدل المنظر العام لهُرمز على بركان خامد، وأنا أعتقد فعلاً بهذا، ويتألف محيطه من حائط عريض بيضوي الشكل، تشكّل من صخرة شديدة الانحدار fire-worn ومهترئة، تحتوي حوضاً في الوسط، حيث تنمو شجيرات صغيرة وأعشاب، وتميل الصخور البازلتيه من خارج الفاصل متجهة إلى عدة أماكن فاتحة طريقها إلى البحر، ومن ضمن الأشياء أشكال كالشظايا تعتلي الصخور وتزيّنها بعدة ألوان، كتلك التي غالباً ما تتخذها الحمم البركانيه عند برودها.

«وبين الغرب والشمال يوجد رأس مثلث داخل في البحر، منخفض ومستوٍ، يتقدّم إلى مسافة جيدة، ويضيق داخلاً في الخليج، الذي ينتهي بعدة صخور وحصن، هو من

صناعة العمال البرتغاليين، ولكنه يستحق بأن يصنف من بين الآثار الرومانية، فهو ذو جدران متينة جداً، أحجاره متراصة والآجرات فيه منتقاة بشكل جيد جداً، واجهت ثلاثة قرون من العواصف البحرية التي حاولت عبثاً أن تحطمها. إن الجزء الأكبر من الرأس البحري بحدّ ذاته مغطى بالحطام، هنا قامت مدينة مزدهرة، وهي الآن امتداد عشوائي من ركام مهجور. ومن بينها آثار باقية لعدة مبانٍ جميلة، كالحمامات والكنائس الكبيرة التي ما زالت مميّزةً بوضوح إلى حد الآن. وبالقرب من الحصن الملتف يوجد مئة أو أكثر بقليل من الأكواخ المكشوفة، التي هي مقرّ للصيادين أو الرعاة، الذين يتجمعون للرعي في فوهة البركان، يوجد مكان مسقوف واحد حيث توجد التمور المجففة والزبيب والتبغ معروضة للبيع، هذا كل مابقي الآن من التجارة في هُرمز».

بعد البقاء محجوزين ثلاثة أيام في هُرمز بسبب عاصفة عبرت السفينة من خلال المضيق، تاركة الشاطئ الجنوبي لشبه الجزيرة، ووصلت إلى مرفأ صحار في الثالث من مارس، قرر پالغريف أن يبدأ رحلته برفقة يوسف في الليلة نفسها من مكان رسوّ السفينة لثمانية أو تسعة أيام إلى مسقط، ولكنه كان فيما مضى قد خسر الكثير من الوقت بسبب التأخير منذ مغادرة البحرين إذ أنه سَلَّم بأقوال بحّار سفينة أخرى، كان وعد بأن تأخذ الرحلة معه إلى مسقط في البحر يومين. بدأ إبحاره في اليوم السادس من الشهر، محمّلاً بشعور مسبق خفي بأن شيئاً سيئاً آتٍ، والذي سيُبَرّر قريباً. كان تجواله في جزيرة العرب وأيضاً في هذا العالم يقترب من نهايته. أبحرت السفينة ببطء مدة ثلاثة أيام، وكانت مسقط تقريباً على مرأى من السفينة عندما رانَ عليهم هدوء مُميت ومنذر بالشؤم بالقرب من جزر سوادة، وإنَّ بعضاً من الصخور القاسية الظاهرة على سطح الماء، على بعد ثلاثة فراسخ من الشاطئ، أثبتت فعلاً لپالغريف الهدوء المنذر بالشؤم، إضافةً إلى قبطان السفينة وكل مَنْ عليها. كانت متبوعةً بعاصفة هوجاء انتهت بتحطم القارب، وفقدان عدة أرواح مع كل تجهيزات الرحلة. وبلغ عدد الناجين من طاقم السفينة والمسافرين تسعة بما فيهم پالغريف، نجوا بصعوبة، ووصلوا إلى الشاطئ منهكين تماماً، ليس معهم شيء سوى ملابسهم التي عليهم.

شـق المسافر طريقه في وضع مؤسـف على طول ساحل مسقط. وكان مرغماً على أن يتخلـى عن فكرة اكتشـاف برّ عُمان الدّاخلي، وجزء من هـذا الأمر يعود إلى فقدانه كل مخزوناتـه، لكن السـبب الأهم هـو أن هويته كأوروبي كانت قد انكشـفت، وبهذه الطريقة الكارثية انتهت الرحلة الأهم والأكثر متعة من بين الرّحلات التي قام بها مسافر حتى الآن إلى جزيرة العرب.

* * *

الفصل السابع عشر

حج الليدي بلَنت إلى نجد

بيـن عامي 1878-1879، وذلك بعد ستة عشـر سنة من رحلـة پالغريف، أنجزت الليـدي آن بلَنـت Anne Blunt مـع زوجها وعدّة خـدم مواطنين رحلـة، تُعدّ من عدة نواحٍ جديرة بالملاحظة أكثر من أي بطولات سـابقة. حيث أن پالغريف وآخرين كانوا قد سافروا متنكرين، اعتقاداً منهم باستحالة الدخول إلى الدّاخل لغير المسـلمين، أما الزوجان بلَنت فلم يتظاهرا بأي شيء، بل ذهبا كمسافرين أوروبيين، رغبة منهما برؤية البلاد، وزيارة حكامها. فقد قطعا عرض شـبه الجزيرة كله، من بيروت الموجودة على سـاحل البحر المتوسط إلى بغداد المطلة على دجلة، قاطعين النّفود الكبرى، أو وسط الصحراء، زائرين حائل وجبل شمَّر وعدّة أماكن أخرى في نجد[1].

وفي طريق عودتهما نشـرت الليدي بلَنت قصة مغامراتها الجديرة بالاهتمام، تحت اسـم «حـجٌّ إلى نجـد» الكتاب الـذي أضاف الكثيـر إلـى معلوماتنا عن داخـل جزيرة العرب[2]، والذي يبقى ذكره في هذا الفصل أمراً شديد الضرورة.

---

(1) كتب محرّر كتاب تايلور: من المفيد الإشارة إلى أن پالغريف والليدي بلَنت قد قاما بتهجئة أسماء الأماكن بشكل مختلف، مما يجعل من الصعب في بعض الأحيان اتخاذها كمراجع للأماكن نفسها التي زارها كل منهما. فمثلا تذكر بلَنت Hail بينما يسمّيها پالغريف Ha'yel وهما المكان نفسه، وكذلك Jof و Djowf. واختلافات أخرى مثل: Nejd و Nejed، Djebel Shomer و Jebel Shammer... إلخ.

(2) قمتُ بترجمة هذا الكتاب كاملاً *A Pilgrimage to Nejd*، وهو من أمتع كتب رحلات الغربيين

بـدأ المسـافران مغامرتهما مسـتفيدين من الخبرة المكتسـبة من رحلـة قاما بها بين القبائـل البدوية في وادي الفُرات[1]، ومعرفة بلغة العـرب. وخدمهما المحلّيون الذين رافقوهما في رحلتهم الاسـتطلاعية السـابقة، قد سـارعوا بتلهف للانضمام لخدمتهما في المغامرة الجديدة، وتمّ شـراء جمال وأحصنة وكل المستلزمات الضرورية للرحلة من دمشق، وفي الثاني عشر من ديسمبر من عام 1878 حانت ساعة الانطلاق.

لـم يكن لديهمـا الرغبة في السـفر بألوان مزيفة كالعِرق أو الجنسـية، كالمسـافرين الإنكليـز الذيـن وجدوها أكثر ملاءمـة للتأقلم مع العـادات البدوية لرحلـة الصحراء، لتجنـب لفت الانتباه أكثر من اللازم. كان هدفهما الأول هو الجوف، وهي واحة مهمة في الصحراء، على بعد أربعمئة ميل، تصف الليدي بلَنت البداية من دمشق قائلة:

»غادرنا المدينة ميمّمين شطر نجد! في البداية مررنا بالباب الذي قيل بأن مار بولس قد دخل منه، والمكان الذي هرب منه ضمن سور دمشق[2]. ثم مررنا بضاحية الميدان، حيـث يقيم البدو وقت نزولهم بالمدينة، وحيث وجدنـا دليلنا التّدمري ومعه الجمال. كان المفتـرض بنا أن نلاقي الجردة في هذه الضاحيـة، فانتظرنا بُرهة من الوقت خارج «بوّابة الله»، بينما ذهب محمّد للقيام ببعض الاستطلاعات وتوديع صحبه التّدامرة.

«مواجه هذه البوّابة المذكورة يتجمهر الحجّاج يوم انطلاقهم إلى مكّة، ويبتدئ منها درب الحـجّ آخـذاً في خط مسـتقيم تقريباً نحـو الجنوب. إن درب الحجّ هذا سـيكون طريقنا حتى نبلغ المزيريب، وهو مسـلك عريض ومرصوف بشـكل جيّد، وإن كان لا يمكن اعتباره طريقاً حسب المفهوم الإنكليزي. ورغم هذا فهو يتّسم بصبغة رومانسية لا يتمالك المرء نفسـه إلا أن يشـعر بها، بامتداده البعيد عبر أراضٍ منعزلة، طريق كهذا

في جزيرتنا العربيّة، وسوف نقوم بنشره ضمن السلسلة في أقرب وقت، مع طائفة نادرة جداً من الصّور القديمة.

(1) وهذا الكتاب أيضاً *Bedouin Tribes of the Euphrates* أقوم بترجمته، وسأفرغ منه إن شاء الله في غضون شهر، لنشره أيضاً في سلسلتنا هذه.

(2) بحسب المتواتر لدى مسيحيي دمشق، دخل مار بولس من الباب الشرقي إلى الشارع المستقيم la Via Recta، بينما هرب من باب كيسان، إلى جنوب الباب الشرقي.

مشـى عليه آلاف المسـافرين دونما رجعة. ويخيّل لي أن في تاريخه الطويل يمكن أن يُحفر قبر في كل ياردة منه على امتداده ما بين دمشـق والمدينة، حيث أن هناك بشـكل دائـم تصيب المنيّة العديـد من الحجّاج، وبخاصّة في رحلة العـودة، من جرّاء الإنهاك ونقص الغذاء».

إنها رحلة متأنية استغرقت أسبوعاً جاءت بالمجموعة إلى صلخد حيث المجتمع الدرزي والتي هي على طرف الصحراء، حيث زوّدهم حسـين شـيخ الدروز بمرشدين إلـى واحة كاف التي تبعد رحلة خمسـة أيام في الصحـراء. مروا في الطريق إلى الكاف بمناطق من الرّمال، بيضاء كالثلج وصادفوا عواصف رملية عنيفة، فأضاعوا في واحدة منهن جملاً استغل الفرصة وهرب عائدا إلى مزيريب. وبعد كاف قاموا برحلة واجهتهم فيها مغامرة مثيرة، وقد جرى وصفها تصويرياً كما يلي:

«الجمعة 3 ديسمبر: مررنا بمغامرة أخيراً، لكنها كانت مغامرة مريرة، وبمثابة درس قاسٍ لنا عن مخاطر التّخييم بالقُرب من الآبار. بدأنا يومنا مُبكرين، لكننا تلكّأنا سـاعة كاملـة عنـد بئر جراوي للتـزوّد بالماء، ولم نغادر الآبـار حتى قُرابة السـاعة الثامنة. ثم انعطفنـا راجعيـن باتّجاه الشـرق تقريبـاً عبر الـوادي. كانت التّربـة المؤلّفة مـن الرّمل الأبيض الصافي تُعيق المسـير، ولذا فكنّا نمشـي ببطء مجتازيـن تموّجات واطئة، ولم نـر أيّـة علائم أرضية سـوى التلـول التي تركناهـا للتـوّ وراء ظهورنا. كانت بيـن الفينة والأخـرى تبرز أمامنـا آكام صغيرة مكلّلة بالغَضَا. فخببـتُ وولفريد باتّجاه إحدى هذه الآكام تاركين الجمال خلفنا، ثم ترجّلنا وربطنا فرسـينا إلى الأجَمَات، آملين بالإخلاد إلـى بضع دقائق من الرّاحة، ولكي نتناول بضع لُقيمات للغداء. كانت كلابنا السّـلوقيّة في هذه الأثناء تلهو ويطارد بعضها بعضاً على أديم الرّمال.

«شـرعنا نتأهّـب للقيام وكنّـا نتحادث حول أشـياء لم أعـد أذكرها، عندمـا أدركتنا الجمال. وكانت تبعد عنا بالكاد مئتي ياردة إلى الأمام، عندما طرق سمعنا فجأة صوتٌ مكتـوم يصطفـق على الرّمـال: طَبْ.. طَـبْ.. طَـبْ، كان صوت جريـان الخيل. هبّ ولفريد واقفاً على قدميه، ونظر حوله ثم صاح بي: «هَلُمّي إلى فرسك.. هذا غزو!».

«وفيما كنتُ أزحف حول الأجمة نحو فرسي، شاهدتُ كوكبةً من الخيّالة يُغيرون علينا بأقصى سُرعة، ورماحهم مُشرعة، على بُعد يقلّ عن مئتي ياردة. كان ولفريد قد ركب أثناء تفوّهه بكلامه، وهذا ما كان عليّ فعله أنا الأخرى، لولا أن ركبتي المرضوضة والرّمل العميق لم يساعداني على القيام، فسقطتُ إلى الأرض من جديد. لم يكن هناك أي وقت للتفكير، لكن ما كدتُ أقف بجهد جهيد على قدميّ حتى كان العدو قد صار فوق رؤوسنا، فأُطيح بي بضربة رُمح. ثم أحدق الفُرسان جميعهم بولفريد الذي توقّف لانتظاري، ووثب أحدهم إلى الأرض ليقبض عنان فرسه. كانت بندقيّتي معه، إذ كنتُ ناولته إيّاها للتوّ لكنها لم تكن مذخّرة بالطلقات، أما بندقيته وسيفه فكانا على ذَلوله. وكان ولفريد لحسن الحظ يرتدي ثياباً كثيفة، عباءتين الواحدة منهما فوق الأخرى وثياباً إنكليزية تحتهما، لذا لم تُوقع به رماح المُغيرين أي أذى يُذكر. وفي الختام استطاع المهاجمون استلاب البندقيّة منه وكسروها على رأسه، فضربوه بها ثلاث ضربات وهشّموا الأخمص الخشبي.

«كان من الواضح أنه لا جدوى من المقاومة البتّة، ولذا صُحتُ بأقرب الفرسان: »أنا دَخيلك!«، وهو الشكل المُتعارَف عليه للاستسلام. فعندما سمع ولفريد ذلك، وكان قد ناله ما يكفي من هذا الصّراع غير المتكافئ لرجل واحد مقابل اثني عشر، ألقى بنفسه من على متن فرسه. استولى الخيّالة على الفرسين كليهما ثم تمهّلوا، فحالما استردّوا أنفاسهم بدأوا باستجوابنا عمّن نكون ومن أين أتينا.

«أجبناهم: »نحن من الإنكليز، وقد أتينا من دمشق، وجمالنا قريبة من ها هنا«.

«كانت قافلتنا أثناء هذه المجريات، التي دامت لا أكثر من خمس دقائق فقط، قد استحكمت بشكل مربّع وأُنيخت الجمال كما رأينا بسهولة من موضعنا الذي كنّا فيه. لم أكن أتوقع من الخيّالة أن يتركونا نذهب، ولكن الرّجل الذي بَدا عقيدهم خلاّنا نمشي في الحال (وهذا ما سبّب لي ألماً حادّاً)، وتبعنا مع صحبه إلى موقع القافلة. وجدنا محمّداً وباقي جماعتنا مُتمترسين وراء الجمال وبنادقهم مصوّبة، وعندما اقتربنا خرج محمّد إلى الأمام وتقدّم نحو الغُزاة.

«فصاح بهم: «من أنتم؟»».

«أجابوا: «زْوَلَة من ابن ضباع»[1].. «والله؟».. «والله، وأنت؟»..

««محمّد ابن العرّوق من تَدْمُر».. «والله؟».. «والله!».. «وهؤلاء المسافرون معكم إفرنج؟».. «والله هؤلاء إفرنج، أصحاب ابن شعلان».

«لحُسن الحظ كنّا قد وقعنا بين أيدي أصدقاء. فلقد كان ابن شعلان، مُضيفُنا في العام الفائت، قد تعهّد بحمايتنا حتى في قلب أعماق البادية، ولذا فلم يكن أحد من عشيرته ليجرؤ على التحرّش بنا عندما يعلم ذلك. وفوق ذلك كان محمّد تدمُريّاً، فلا يحقّ لأي رويلي أن يغزوه ويسلبه، لأن تدمُر تدفع الجزية لابن شعلان، وللتّدامرة بذلك الحقّ في حمايته. لذا، بمجرّد أن تمّ اجتلاء الوضع، أُعطيت الأوامر من عقيد المجموعة إلى أتباعه بردّ الفرسين إلينا، فضلاً عن البندقيّة وكل ما سقط منا أثناء الكائنة التي وقعت. حتى كيس تبغ ولفريد عاد إليه كما هو».

تصالح السارقون مع المسافرين بعد أن انتهت المشكلة، وكان السّارقون خجلين من أنفسهم لاستخدامهم رماحهم ضد امرأة. واعتذرت الليدي بلَنت منهم، وذلك لأنها ارتدت ألبسةً بدويةً للركوب على الخيل مما منعهم من تمييز جنسها أثناء الارتباك الذي حصل أثناء الهجوم المفاجئ.

وصلت المجموعة إلى الجوف بعد يومين من التصادم في الصحراء، حيث قضوا ثلاثة أيام، ووجدوا الناس هناك مضيافين جداً. كان محمّد رئيس خدمهم وسائق الجمل عربياً، وله اتصالات وطيدة مع هذا الجزء من جزيرة العرب، وقرابة نسب، وليس من المهم كم هو بعيد، فالمسألة ذات أهمية كبرى، كانت هذه العلاقة أساس المساعدة في أن تأمّن لهم حسن النية من الساكنين. لم تتأثر بلَنت بذاك التأثير الحسن بالجوف الذي كان لدى پالغريف، الذي استخدم في أي حال مصطلح الجوف بشكل

---

(1) ليس في الزّوَلة على الإطلاق فرقة أو بديدة تسمّى بذلك، ولكنهم فَندة من قبيلة الشّرارات تدعى الاضبعة، والشّرارات تلوذ بالزّوَلة لقوّة هذه الأخيرة وتمكث تحت حمايتها.

أوسـع، متضمناً عدد الواحات المتوضعة في مكانٍ بيضوي الشـكل كبير مجوّف على طول سـتين أو سبعين ميلاً وعرض عشرة أو عشرين، يمتدّ بين الصحراء الشمالية التي تفصله عن سوريا والفُرات، والنّفود الجنوبية، أو قفار الرّمال، التي تدخل بينه والجبال الشمالية عن الهضبة العربية المتوسطة.

كتبـت الليـدي بلَنت عنه: «لـم يكن الجوف أبداً كمـا توقعنا. فقد ظننا أننا سـنجده منطقـة كبيـرة ومزروعة، لكـن وجدناه مجرد مدينـة صغيرة. لا يوجد أي شـيء خارج الأسـوار ما عدا عدة قطع مربعة، مسـاحتها فدّان أو ماقارب لكل واحد منها، مخضرة بالذرة الفتيه» إلخ.

إلى أي درجة من الحقيقة أن هذين الرّحالتين لم يريا الأشـياء بالمنظار نفسـه، دون شـك إن كلاً من هذين الرّحالتين المُمَيَّزين مصيبان بشكل معقول بوصفهما، ولكنهما لخّصـا انطباعاتهمـا من وجهـة نظر معاكسـة من الناحيـة الوصفية، بأن الخطأ الشـائع بشـكل كبير في آسـيا أن اسـم المكان غالباً مايدل وبنفس الدقة المتسـاوية على منطقة كبيـرة من البلد ومنطقة أخرى في مركزه. وكمثال على هذا في وسـط آسـيا يوجد مرو Merv الذي هو اسم لمدينة وأيضاً اسم لواحة كبيرة خصبة توجد فيها أيضاً، كما يوجد أيضاً اسـم هراة Herat الذي يعني منطقة واسعة من الواحات، حيث يبلغ عدد السكان فيها حوالي نصف مليون نسمة، كما يوجد فيها حصن مدينة هراة، التي هي ليست أقل من المدينة نفسها.

حصل العديد من التغييرات السياسـية منذ زيارة پالغريف. فالحكم الوهابي تراجع في الجوف، والممثلون الوحيدون للسلطة الثابتة هو الشيخ وستة جنود، يمثلون سلطة محمّد بن رشيد، أمير جبل شمَّر، وكرسيه في حكومة حائل.

تابـع المسـافرون من الجوف باتجاه حائـل، قاطعين النّفود المفزعـة، التي أعطوها الكثيـر مـن الوصـف الممتع، وأقـل كآبة بكثيـر مما وصـف پالغريف. علـى كل حال فإنهـم عبروهـا في ينايـر، بينما پالغريف كان قـد عبرها في منتصـف الصيف، وكذلك فـإن في حالة وصـف النّفود وكذلك الجـوف، الواضح أن الوصـف المتناقض ودون

شـك لكليهمـا دقيق وصحيح، فواحـد يصف الصحراء في الشـتاء، والآخر يصفها في الصيف. وفي الثاني عشر من يناير وجد المسافرون أنفسهم على عتبة الصحراء.

«في الثالثة والنصف، شـاهدنا شُـعاعاً أحمـر في الأفق أمامنا، أخـذ يرتفع ويتجمّع كلمـا اقتربنـا منه، ممتداً بجهة الشـرق والغرب في خطّ متصل. ظننّـا أولاً أنه قد يكون بفعـل السّـراب، ولكـن باقترابنا منه وجدنـاه يتقطّع إلـى موجات هائلـة لا يميّزها عن البحـر الهائـج إلا لونُهـا الأحمر، إذ كانـت ترتفع عالياً، كمـا يرتفع مـوج البحر، فوق سـطح الأرض. صاح أحدهم: »النّفود«، وبرغم تشـكّكنا لوهلة، سُرعان ما أيقنّا ذلك. كان لونها هو ما أدهشـنا، فبسـبب أحجار الرّاوند والمغنيزيا لا تشبه أياً من الرّمال التي شـاهدناها حتـى الآن، ولا تشـبه ما وضعنـاه من توقّعـات حيالها. إن النّفـود هي فعلاً الصّحراء الحمراء الكبرى في أواسـط جزيـرة العرب. وخلال دقائق عدّة وصلنا إليها، وخاضت فرسانا بقوائمها في أولى موجاتها.

«يوم 13 ديسـمبر: أمضينا النّهار كله في النّفود التي فاقت توقّعاتنا بإثارتها بالإضافة إلى سحرها».

وبعـد معارضـة السـيد پالغريـف، الـذي تظن الليـدي بلَنت أنـه تغافل عـن جانبها المشرق، تتابع سرد القصة وفق نظرتها الشخصية قائلة:

«إن أول مـا لفـت انتباهي في صحراء النّفود هو لونها، فهي ليسـت بيضاء كالكُثبان الرّمليـة التـي مررنا بها البارحة، ولا هي صفراء كمـا هي الحال في أجزاء من الصّحراء المصرية، لكن لونها أحمرُ زاهٍ يكاد يكون قُرمزياً في الصّباح عندما يرطّبها النّدى.

«أما رمالها فهي خشنة ولكنها نقية لا تشوبها أية مادة دخيلة كالحصيّات أو حُبيبات الرّمل الكبيرة أو التّراب، ويبقى لونها ومادّتها ثابتين في كل أنحائها. ومن الخطأ الكبير أن نعدّهـا صحـراء قاحلة، بل هـي على العكس غنيّة بالشّـجيرات والكلأ، أكثر من أي جـزء مـن البوادي التي مررنا بها منذ مغادرتنا لدمشـق. فالنّفود مغطـاة بأجمات الغَضَا وشـجيرات مـن نـوع آخر يُدعـى الأرطـى yerta، الذي لا يحمـل أوراقاً فـي مثل هذا

الوقت من السّنة، فيشبه تماماً كرمة عنب مجدولة الأغصان بسبب سيقانها المعقودة وجذعها الليفي.

«هناك أيضاً عدّة أنواع من كلأ الجمال، وبالأخص نوعٌ جديد علينا يدعى الأذْر، يقال إن الأغنام تغتذي عليه لمدة شهر دون أن تحتاج إلى الماء. وهناك أكثر من نوع من العشب، لذلك رَتَعَت الجمال والخيل بهذا المكان، وسَرّتنا أيضاً وفرة الحطب من أجل مخيّمنا. قال ولفريد إن النّفود قد حلّت مسألة غامضة، هي تربية الخيول في أواسط جزيرة العرب، ففي البوادي القاحلة لا يجد الحصان ما يأكله، ولكن هنا يتوافر الكثير. إن النّفود تفسّر كل شيء، فبدلاً من كونها مكاناً فظيعاً كما وصفها بعض الرّحالين الذين زاروها، هي في الحقيقة مأوى للبدو في جزء كبير من السنة. ولكن الماء هو ما ينقصها، فليس فيها إلا بضعة آبار على طول حافّتها. لكنها كثيفة السّكان، فأخبرنا راضي أنه في بداية فصل الربيع عندما يكون العشب أخضر بعد هطول المطر، لا يبالي البدو بالماء طالما تدرّ نوقهم الحليب، فيمضون أسابيع دونه وهم يتجوّلون في الأجزاء الداخلية من الصّحراء الرّملية».

وجد المسافرون في الصحراء الرّملية الكثير من الفجوات المثيرة للفضول، والتي يسميها المواطنون الفلج fulj. بعض هذه الحفر كان محيطه ربع ميل، وعميقة إلى حد 230 قدماً. وكان شكلها على الأغلب كحافر الفرس. تستحق المشاهدة، وعند نقطة معينة على الصحراء وجد الارتفاع إلى 3300 قدم فوق سطح البحر. بعد سبعة أيام في النفود والتي كنا في آخر يومين نجرب فيها قوة احتمال الناس والدواب، وصلت المجموعة إلى واحة الجبة والتي وصفت بكونها واحدة من أهم الأماكن المثيرة للفضول والأكثر جمالاً في العالم.

«اسمها جُبّة يعني بالعربية البئر[1]، وهذا ما يفسّر موقعها، فهي تقبع ضمن وَطاءة أو جُبّ في النّفود؛ وليست واقعة ضمن فَلج، بل إن لحوضة جُبّة شكلاً مغايراً تماماً، فهي لا تُشبه على الإطلاق الوطاءات النّضوية (الشبيهة بحدوة الحصان) التي كنتُ

(1) ذاك هو الجبّ، أما الجُوبة في جبال الشام فتعني السّهوة المُحوّطة بجُروف صخرية.

وصفتُها أعلاه. إنها بالإجمال فريدة الشكل تماماً، فلذا يتعذّر جداً اعتبارها من الناحية الجيولوجية واحدةً من تلك الأفلاج. إنها رقعة جرداء كبيرة للغاية ضمن خضمّ مُحيط من الرّمال، تنخفض عنه بمقدار يتراوح من أربعمئة إلى خمسـمئة قدم، ويبلغ اتّساعها حوالي ثلاثة أميال؛ وهذه الوطاءة في الواقع لا تختلف كثيراً عن الجوف، باسـتثناء أن صحـراء النّفود تحيط بها بدلاً من جُروف الحجر الرّملي. وممّا لا شـك فيه أنها كانت فـي الماضي السّـحيق بُحيرة، على اعتبـار وجود آثار حتّ مائي فـي الصخور التي تنتأ فوق مِهادها بأعلى البلدة؛ ثم إن من الجدير ذكره أن هناك رواية قديمة ما زالت متداولة بالتواتـر حـول ماء كان هناك فيما مضى سـابقاً. لكن ممّا يدعو للعجـب أنه كيف تبقى هـذه الرّقعـة بمنأى عن الرّمـال؟ ما هي القوّة التـي تحتجز دونها رمـال صحراء النّفود الطّامية وتمنع تخطّيها إليها؟

«فعندما تُنعم النّظر في السّبخة subbkha، أي مهد البُحيرة الجاف، ترى النّفود كما لو كانت غَمراً من المياه لا بُدّ طافحها لا مَحالة، لكن برغم ذلك لا تُسـفى الرّمال أبداً بقلب الوطاءة، بل تبقى حدودها قائمة واضحة المعالـم».

اسـتطاع الرّحلتـان التغلب على طـول النفود، واقتربا من حائـل، وليس دون إدراك أن الاسـتقبال يمكن أن يكون بانتظارهم. عرَّفهم مرشـدهم من الجوف بما يتعلق بعدة تغيرات قد حصلت منذ زيارة پالغريف، إن التغيرات سـتكون جداً ممتعة للقراء الذين تابعوا قصة پالغريف في الفصول السابقة.

فوقتئـذ فقد طلال الحاكم المسـتبد في حائل صوابه، وانتحر بطعن نفسـه بواسـطة خنجره الخاص بعد أربع سـنين من زيـارة پالغريف. وقد خلفه أخوه متعب الذي على أيـة حـال توفي فجأة بعد أن حكم ثلاث سـنين، عندها نشـب خلاف بيـن أخيه محمّد وبنـدر الابن الأكبر لطلال حول الخلافـة. كان محمّد بعيداً في ذلك الوقت، وأما بندر الشـاب ذو العشـرين عاماً فقـد نُصّب أميراً. عـاد محمّد، وبصراع عنيـف مع ابن اخيه سحب خنجره وطعنه فقتله.

وبعدهـا ركض محمّد إلى القلعة ووجد هناك حُمُود (ابن عبيد، عم طلال) فحصل

علـى مسـاعدته واسـتولى علـى القصـر. وبعدها حجـز الابـن الأصغر لطـلال (أورد بالغريـف اسـم طلال بتهجئة مختلفة) وإخـوة بندر كلهـم ما عدا ولـد صغير هو نايف، وكذلك بدر الذي كان غائباً عن حائل، فقطع خدمه رؤوسهم في ساحة القلعة.

يقولون على أية حال بأن حْمُوداً احتج على هذا. ولكن محمّداً كان متهوراً، أو أراد أن ينشر الذعر، ولـم يكن راضياً بما كان قد فعله، فمضى قدماً مخرباً كل علاقاته.

«كان هنـاك بعض أبناء عمومة له، هم أبناء عمّه جابر الأخ الأصغر لعبد الله وعُبيد، فأرسـل إليهم للمُثول أمامه. فقدموا إلى القصر متوجّسـين شـرّاً، ومع كلّ منهم عبده. كانوا شبّاناً تلوح عليهم غضارة الصّبا وعلائم النُّبل والنّعمة، وكان عبيدهم نشأوا معهم كما هي العادة، كإخوة أكثر منهم خدماً. تمّ إدخالهم إلى قهوة القصر، فاستُقبلوا بغاية الحفاوة، وكان خدم محمّد سـبقوهم لدعوتهم للدّاخـل. كانت العادة في حائل عندما القيام بزيارة للأمير، أنه يتوجّب على الزّائر قبل أن يجلس تعليق سيفه على أحد الأوتاد الخشـبية المثبّتة فـي الجدار، فكان هذا مـا فعله أبناء جابر، وكذلـك عبيدهم على حدّ سواء. ثم جلسوا فانتظروا طويلاً، غير أن القهوة لم تُقدّم إليهم. وفي الختام ظهر محمّد مُحاطاً بحرسه، لكنّه لـم يبادرهم بالسّلام المعهود »السّلام عليكم«، وما لبث أن أعطى الأوامـر بالقبض على أبناء عمومته وتقييدهـم. هُرعوا فوراً إلى سـيوفهم المعلّقة، لكن حرس القصر حالوا بينهم وما يبغون، وأمسـكوا بهم. ثم أمر محمّد بكل قسـوة وبربريّة بتقطيـع أيديهـم وأرجلهم، وكذلك أيـدي عبيدهم وأرجلهم، ثم أمر بسـحبهم وهـم ما زالوا على قيد الحياة إلى باحة القصر، حيث بقوا مرميين إلى أن لاقوا حتفهم صَبراً.

«هذه الجرائم المروّعة، أشد فظاعة من أي شيء حصل في البلاد حيث إراقة الدماء عمـداً كان شـيئاً غير عادي، وهو على ما يبدو نشـر الذعر في كل مـكان، ولـم يعد أحدٌ يجرؤ على رفع يده ضد محمّد».

إن معرفـة الرّحالتين بهذه الأفعال الشـنيعة جعلتهما بشـكل طبيعي يشـعران بأنهما يغامـران فـي مناطق خطرة كلما كانـا يقتربان من بوابات حائل. لكـن الأمير الذي كان اسـمه محمّد بن رشـيد، استقبلهم على كل حال بلباقة، وكان اكتشافاً بأنه وبغض النظر

عـن الأعمال الدموية المتعلقة بالخلافة، تحول ليصبح حاكماً غير سـيء. في أي جزء من سـلطته، كان من المفهوم أن المرء يمكن له أن يسـافر غير مسـلح، حاملاً أي كمية يشـاء من الذهـب، دون أي خوف مـن المضايقات. علاوة على ذلك يبـدو أنه أصيب بندم عميق على ماضيه الآثم، فعاش في خوف مسـتمر من الاغتيال، وكان يسـعى إلى أي تعويـض يمكن تقديمه ببذل التشـريف والتكريم للصبي نايـف، الوحيد الذي أبقاه من أبناء أخيه، لأن بدراً كان قد قتل أيضاً.

كل هذا يبدو وكأنه قصة من قصص «ألف ليلة وليلة»، وما تزال جزيرة العرب أرض الشـاعرية والقصائـد وكان ذلك قد أُكد من غريب الأخبـار التي علمناها من عبيد، عن الذين سوف يتذكرون السيد پالغريف الذي روى أخباراً طيبة.

«عاش عُبيدٌ عمراً مديداً، ومات فقط منذ تسـعة أعوام (1870). وممّا يُروى عنه أنه لـم يخلّـف أيّة ممتلـكات، فلقد أعطى كل ما بيـده أثناء فترة حياته، ولـم يَذَر شـيئاً خلا سـيفه وفَرَسـه وزوجته الشـابّة. فترك هذه الثلاث لابن أخيه محمّد ابن رشـيد، الأمير الحاكم، طالباً إليه بأن يبقي سيفه في غمده، وتبقى فرسه لا يعلو متنها أحد، أما زوجته فلتمكث أيّماً بلا زوج إلى انقضاء الدّهر».

* * *

أبدى الرّحالتان اهتماماً مثيراً لخيل الأمير، الخيول الأكثر شهرة في نجد.

وعلـى الرغم من كونهم مهتمين ولكن بشـكل عام كانت آمالهـم مخيبة فيما يتعلق بخيـل نجـد مقارنة مع تلك التي في شـمال جزيـرة العرب. «بمقارنة ما نـراه هنا مع ما رأينـاه في الشـمال العام الماضي، أول مـا يلفت انتباهنا أن هذه خيول پوني (سيسـي) بينما تلك خيول كبيرة. ولـم يكن اختلاف الارتفاع، بالرغم من وجود فرق بمقدار ثلاثة إنشات وسطياً، ما أعطانا هذا الانطباع، وإنما اختلاف الشكل.

«وجدنا معدل الارتفاع تحت أربعة عشر شبراً، وعلى الرغم من أن عنايةً كبيرة كانت

تعطى لها للحفاظ على سلالة دم صافية، بطريقة التغذية والاعتناء، فعلى ما يبدو أنّ التجاهل الكبير كان هو السّائد، حتى في الأحصنة الملكية. كانت الإصطبلات مجرد ساحات مفتوحة، تقف فيها الحيوانات، وكل منها كان مبوطاً إلى معلف. لم تكن مزوّدة بأي سقف للحماية، ولكن كل حصان كان محمياً ببساط سميك. الجزء الذي يغطي خدّ الفرس من اللجام لم يكن موجوداً، مربوط من الأسفل بحبال أو سلاسل عند الحافر. لم تكن تعطى لها أيّة تمرينات منتظمة، وكان طعامها تقريباً مقتصراً على الشعير الجاف، ومنظرها بشكل عام كان مختلفاً عما يمكن أن يتوقع بشكل تلقائي الأوروپيون حول أجمل إصطبلات الخيول في «شبه جزيرة الخيل».

كما أطلعنا الرّحالتان على موضوع الأحصنة من جانب آخر: «فالخيول على اختلاف أنواعها نادرة جداً الآن في نَجد. فقد يسافر المرء مسافة شاسعة في جزيرة العرب دون أن يلتقي بحصان واحد أو حتى يصادف آثار حصان. يُعدّ الحصان من وسائل التَّرَف عند بدو شبه الجزيرة، بينما يُعدّ ضرورة للحياة اليومية عند بدو الشمال. ويعتمد بدو الجزيرة على الجمال، وليس على الخيول، في انتجاعهم وغاراتهم وغزواتهم، وعلى الأغلب فإن الشيخ يمتطي فرسه في لحظة المعركة. لقد أخبرنا آل الكثيرين، وهي عشيرة من نجد وفرع من بني خالد، أخبرونا بفخر أنهم قادرون على تجهيز مئة فارس، وحتى المطير، التي اشتهرت باستيلاد أروع الأنواع في نجد، قيل إنها لا تملك أكثر من أربعمئة فرس».

عزّز محمّد بن رشيد إصطبلاته من إجبار شيوخ القبائل الفرعية بأن يبيعوا له أفضل أمهارهم، لتحسين ما كان عليه مَن سبقوه، الذين أبقوا خيولهم دوماً رمزاً للمَلَكية العربية وشنّوا الغزوات ضد القبائل من أجل الحصول على الخيول المشتهرة، وحملهم على التنازل عن أثمانها.

توزّعت خيول إصطبلات الأمير في الربيع فيما بين الجيران البدو لترعى في النّفود، التي تقدّم في هذا الوقت مراعي ممتازة. ولو كان الزائران رأيا القطعان بعد شهر في النّفود فعلى الأغلب أنهما كانا سيحملان انطباعاً إيجابياً أكثر. وعلى ما يبدو في فصل

الشتاء ترسل المهر إلى أماكن أسوأ من أماكن ذويها، وذلك من خلال ما روته الليدي بلَنت:

«بالإضافة إلى الخيول المكتملة النموّ، تضمّ مرابط ابن رشيد ثلاثين أو أربعين فلواً ومُهرة بعمر سنة واحدة. إنها مخلوقات صغيرة جميلة لكنها بائسة وجائعة جداً. «إن المهور التي ترعى في البادية نحيلة، بينما تبدو على مهور المدينة مظاهر المرض بوضوح. فهي مربوطة طوال النّهار من أقدامها، فتبدو تعيسة ولا تُظهر حركات اللعب الموافقة لسنها. ولعل ما يصدمك هو ألفتها الزائدة كتلك التي في «الديك والوحش» "the fowl and the brute" ».

إن التباين بين المعاملة الحقيقية لهذه الحيوانات الملكية والوصفة العربية لتنشئة الخيول فعلاً ملفت للنظر:

«خلال الشهر الأول من حياته دعوه يشبع من حليب أمه، فهو يكفيه. وفي خلال الخمسة أشهر التالية أضيفوا حليب الماعز بحسب حاجته. ولستة أشهر قادمة أعطوه حليب النّوق بالإضافة إلى مكيال من القمح المنقوع في الماء لمدّة ربع ساعة، ويُقدّم للمهر في المخلاة. «في عمر السّنة ينتهي المهر من شرب الحليب، فيُطعم القمح اليابس من المخلاة والعُشب الأخضر إن وُجد.

«عند السنتين يجب أن يبدأ الحركة وإلا يكون بلا شأن. غذّوه الآن الشّعير كحصان مكتمل النمو، وليتناول الثّريد صيفاً في منتصف نهار كل يوم. والثّريد يُعمل كما يلي: تؤخذ قبضتان من الطحين وتمزجان بالماء جيداً حتى يبدو الماء كالحليب، ثم يُعصر فيُترك تفل الطحين ويُسقى السّائل للمُهر.

«منذ ساعة ولادته ينبغي أن يتعرّض المُهر للشمس، فالظلّ يؤذي الخيل، ولكنه يجب أن يشرب كفايته إذا كان النّهار حاراً. ينبغي الآن ركوب المهر، وأن يأخذه صاحبه معه حيثما ذهب بحيث يرى كل شيء ويكتسب الشجاعة. يجب تدريبه بشكل دائم وألا يبقى في معلفه لفترة طويلة. يجب أخذه في رحلات، فالحركة تقوّي أطرافه».

وفي عمر الثلاث سنوات يجب تعليمه العَدْو. فإن كان أصيلاً، سوف يكون سابقاً لا يُشقّ له غُبار. يا الله!».

تظن الليدي بلَنت بأن هذه تقدّم الطريقة التقليدية لتنشئة الخيول في جزيرة العرب منذ أيام الرسول محمّد[1].

انضمّت من حائل مجموعة بلَنت إلى قافلة الحجّاج العجم، العائدين إلى بلادهم من مكّة والمدينة، وبعد ثمانية وأربعين يوماً، سافروا من دمشق برحلتهم العربية ووصلوا إلى النهاية في بغداد. أخذهم طريقهم من حائل بعيداً نحو الشمال من طريق پالغريف، ولذلك لم يزورا الرّياض، المركز الرئيس، في وقت پالغريف، للحاكم الوهابي فيصل. على كل حال أعلمتنا الليدي بلَنت في ملحق قصتها عن نهاية فيصل، وعن التراجع المستمرّ للحكم الوهابي بعد زيارة پالغريف.

بعد ثلاث سنوات من زيارة پالغريف توفي فيصل، والدولة الوهابية التي استعادت في أيامه الكثير من قوتها وتأثيرها (وكانت قائمة حتى سحقها الأتراك بعد حرب القرم) كانت قد ضعفت مرة ثانية بسبب النزاعات الداخلية. خلّف فيصل ابنين: عبد الله وسعود، اللذين تشاجرا فيما بينهما ووضعا نفسيهما على رأس مناصريهم الخصوصيين. وأثبت سعود بأنه الطرف الأقوى ففي عام 1871 هرب عبد الله إلى جبل شمَّر، وطلب المساعدة من مدحت پاشا، الحاكم التركي في بغداد.

كانت النتيجة بأن حملةً تركية مؤلفة من 5000 جندي نظامي احتلت منطقة ساحل الحَسَا، واستولت على الهفوف (التي ذكرها پالغريف) بينما كان عبد الله وحلفاؤه، ومنافس آخر هو عبد الله بن تركي هاجموا سعوداً في الرّياض. غُلب سعود وحاول عبد الله أن يحكم الرّياض، ولكن في السنة التالية خلعه سعود ثانية وحُمَّ حتى عام 1874، حتى مات، وكان ذلك دون شك بالسّم.

إن تفسير الليدي بلَنت لمشاكل نهاية العاصمة الوهابية يشير إلى أن عبد الله وأخاه

---

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

غير الشقيق عبد الرّحمن كانا على اتصال وسيطرة محبّبة، عبد الله كأمير وعبد الرّحمن كرئيس وزراء. كانت الحَسَا والساحل بيد الأتراك، الذين كانت سياستهم إثارة العداوة ونشرها بين العرب، بغية إضعاف سلطة وقوة الأمير في الرّياض، وبهذا يجعلون البلاد فريسة سهلة في أي وقت تحين الفرصة لدمجها تحت السيادة العثمانية. أصبحت القوة والعصبية للإمبراطورية الوهابية، شيئاً بسيطاً أكثر من اسم وذكرى فيما بين القبائل البدوية، الذين في يوم ما دفعوا الجزية لأمرائها، وكل ما كان أفكاراً وطنية وإيحاءً جديراً بالاحترام وسط جزيرة العرب على ما يبدو لفّ نفسه حول السلالة الحاكمة الجديدة لأمير جبل شمَّر محمّد بن رشيد في حائل[1].

النهاية

(1) يكتب المؤلف تايلور هذا الكلام في حوالي عام 1880، وفي هذه السنة بالذات سار محمّد ابن رَشيد بجيش قُوامه 5000 رجل من حائل، فعبر وادي السّرحان إلى حوران ووصل إلى بُصرى، على بعد مسافة 60 ميلاً من دمشق. وهذا يؤطر آنذاك ذروة قوة إمارة آل رَشيد في حائل، وانحدار الدّولة السّعوديّة الثانية بعد وفاة فيصل بن تركي. ثم تقوّضت إمارتهم لدى استرداد آل سعود قوّتهم بزعامة عبد العزيز بن عبد الرّحمن بن فيصل، الذي أفلح في ضمّ أكثر أرجاء جزيرة العرب، وأعلن بمطلع القرن العشرين قيام المملكة العربية السّعودية (وهي الدّولة السّعودية الثالثة). أما آخر حكام إمارة حائل وجبل شَمَّر فكان محمّد بن طلال، الذي سلّم إمارته طوعاً للملك عبد العزيز في عام 1921، فدالت بذلك إمارة آل رشيد وزالت نهائياً.

فهرس الكتاب